

كتابي
٣٩
اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الأول
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد

(أ)

حلم .. طالما تمنيت تحقيقه !

عزيزى القارىء ..

● بصدور هذه الترجمة الكاملة « لاعترافات » جان جاك روسو ، يتحقق حلم من اضخم الأحلام الأدبية التى راودتنى منذ عشقت الأدب ، وادركتنى حرفته ! .. ويتجسم هدف من اعز الأهداف التى اغرتنى بإصدار سلسلة (مطبوعات كتابى) منذ زمن قريب . ولئن كانت هذه المطبوعات قد تمكنت من ان تبلغ هذا الهدف فى مثل هذا الزمن القصير ، بعد أن ظلت « اعترافات » روسو منيعة «مستعصية» على النشر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملين ، ترجمت خلالهما إلى جميع اللغات الحية ، ما عدا لغتنا العربية ! .. فإن هذه السلسلة ما كانت لتحقق هذا الهدف من اهدافها لو لم تتلقها انت وتتعهدها منذ ولدت برعايتك وإعزازك اللذين مكناها من تذليل جميع الصعاب التى تعترض طريقها ، والسير قدما نحو غايتها .

وإذا اردت ان تعرف قيمة هذا الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ سلامه موسى فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (اخبار اليوم) .. إذ قال : « .. واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى كان يجب ان تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ او ١٥٠ سنة .. فلقد تغيرت اوربا بتأثير افكار هذا الأديب . ونستطيع ان نعزو اهم التطورات التى حدثت فى هذه القارة إلى آرائه، التى يتلخص مغزاها فى كلمات معدودة، هى: ان الطبيعة حسنة، والإنسان طيب، ولكنهما يفسدان بالمجتمع السيىء .. فما احوجنا فى البلاد العربية إلى هذه الخمائر !» .

(ب)

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن صدقى فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير عام ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة (العقد الاجتماعى) و (اميل) و (هيلويز الجديدة) ، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك ان الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، اما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل ، فنحن نتعرف فيما نحسه فى أعماقنا على غرائز رجل الكهوف .. فكم بالحرى إذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب (الاعترافات) ، اقرب إلى عصرنا بثقافته ، وإن كان اشبه بأهل الفطرة فى صراحته ، وجراته ؟ ! » .

والواقع ان هذه (الاعترافات) التى تقدم « مطبوعات كتابى » إليك اليوم اول ترجمة امينة كاملة لها باللغة العربية، والتى تعتبر من اعظم الشوامخ الخالدة فى الأدب «الكلاسيكى»، هى ادق واصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى « جان جاك روسو » ، فى الثلاثة والخمسين عاما الأولى من حياته على الأقل .. ولقد كان من اهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه (الاعترافات) ، انها كانت اول عمل ادبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فيظهرها على حقيقتها الكاملة دون اى زيف او تستر .. فقد سجل « روسو » فى هذا الكتاب ادق احداث حياته ـ خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ـ دون ان يجفل من مواجهة الحقيقة ، وكأنه مؤمن صادق التوبة ، يصارح الهه باخطائه برهانا على صدق توبته ، والتماسا للصفح

ولكن .. هل كان هذا هو الهدف الذى ابتغاه « جان جاك روسو » من وراء تسجيل اعترافاته ؟

قد نجد الجواب عن هــذا السؤال فى مؤلفاته التى سبقت « الاعترافات » ، وفى كتاب « اميل » بالذات .. فلقــد أورد « روسو » فى هذا الكتاب ، وفى بعض مؤلفاته السابقة ، صورا من حياته، ومن الشخصيات التى صادفته واثرت فيه .. ولكنه كان يســدل عليها سترا من الزيف و « الرتوش » ، شأن كل كاتب واديب ، حين توحى إليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تنساب على طرف قلمه اثناء الكتابة، فيحاول ان يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التى تباعد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية فى نظر القارىء !

ولكن « روسو » كان يهدف من إيراد هذه الذكريات إلى اكثر من مجرد رسم شخصيات ، او افتعال احــداث . كان يسعى إلى ان يقدم تجاربه للناس ، سيما فى ميدان التربيــة ورعاية النشء . فلمــا واتتــه الجــراة ، نزع ســتر الزيف والتضليل ، وساق الحــديث صريحــا واضحــا ، واعترف بالسرقة والانحراف — مثلا — لينبه الآباء إلى العوامل التى قد تدفع بالأبناء بعيدا عن جادة الصواب .. ولينبه المجتمع إلى الأشياء التى تنكبه بالمنحرفين من الأعضاء .

وهذا ما نلمســه واضحا فى بعض مواضع من «الاعترافات» : فهو يقول تعليقا على معاملة ابيه لأخيه الأكبر : « كان من جراء الحنان الضافى الذى اسبغه ابى على ، ان اهمل هــذا الأخ .. وتأثرت تربية اخى بهذا الإهمال ، فسلك مسالك السوء قبل ان يبلغ سنا تتناسب مع ادمان الفجور ! » .... الخ .

.. ويبين — فى سياق حديثه عن المدة التى قضاها فى تعلم حرفة الحفر على المعادن — كيف أن مخالطة الصغار لزملاء يكبرونهم سنا ، ويختلفون عنهم بيئة ونشاة ، يدفعهم إلى الخضوع لما يوحى به إليهم هؤلاء الكبار .. إذ تعود « جان » الصغير السرقة بإيعاز من زميل له !

كل هــذه الصور توحى بأن « الاعترافات » لم تكن — فى غايتها — سوى دروس اجتماعية وتربوية .

الاضطهادات تلاحقه فى كل مكان !

● ولقد تناولت « الاعترافات » حياة «روسو» حتى سنة ١٧٦٥ .. ومن الطريف انه بدأ فى وضعها عندما هاجــر إلى انجلترا . فإن بعض كتبه السابقة — « أميل » و « العقــد الاجتماعى » و « هيلويز الجــديدة » — تضــمنت من الآراء والمهاجمات ما أثار غضب حكومة فرنسا ، ورجال الكنيســة ، وانصار المدارس الفلسفية فى فرنسا وهولندا وجنيف ، حتى لقد أحرقت كتبه علنا فى بعض البلدان ، واضطر إلى ان يهرب من فرنسا إلى جمهورية (بيرن) ، ولكن مجلس شيوخها أمره بمبارحتها ، فرحل إلى (مورتيير) بمقاطعة نيوشاتل — وكانت تحت حكم فردريك الثانى البروسى ..

على أن « روسو » ما لبث أن اصــدر كتاب « خطــابات الجيل » ، فاذا الضجة التى احدثها هذا الكتاب ، تضطره إلى الرحيل إلى جزيرة (سان بيير) فى بحيرة (بيين) .. ولكن مجلس شيوخ جمهورية (بيرن) عــاد فأمره بمبارحة هــذه الجزيرة التى كانت تابعة للجمهورية !

وكان « روسو » قد تلقى دعوة من صديق إنجليزى ، فسافر إلى إنجلترا .. ووصل إلى هناك فى يناير سنة ١٧٦٦ ، فمكث شهرين فى لندن ، ثم انتقل إلى الريف فى (ووتون) بسترادفوردشاير ، حيث وضع الكراسات الست الأولى من « الاعترافات » . وتصادف أن نشرت الصحف فى تلك الأثناء خطابا بتوقيع ملك بروسيا ، يطعن فى أخلاق « روسو » ، فظن هذا بمضيفية وأصدقائه فى انجلترا الظنون، ونزح فى مايو سنة ١٧٦٧ إلى (اميين) ، حيث نزل بقلعة (تراى) التى كانت ملكا للأمير دى كونتى ، فأقام بها ردحا تحت اسم « رينو » !.. وهناك استأنف كتابة «الاعترافات» . ثم رحل إلى (جرينوبل)، فما لبث أن ملها وسئم أهلها ، ومن ثم رحل إلى (بورجوان) ، يبدان جوها لم يلائم صحته ، فانتقل فى سنة ١٧٦٩ إلى (مونكان) ، حيث أتم الكراسة العاشرة من اعترافاته ..

وما لبث « روسو » أن عاد إلى باريس ، حيث سمح له بالإقامة ، على شريطة أن لا يكتب شيئا ضد الحكومة أو الدين. فانصرف إلى نقل « النوتات » الموسيقية ، وإلى الاختلاط بعلية القوم . حتى إذا كان شهر مايو سنة ١٧٧٨ ، نقل الكاتب الفيلسوف ــ الذى كان قد بلغ السادسة والستين من عمره ــ إلى كوخ فى (ارمونفيل) يمتلكه الكونت جيراردان .. وهناك، توفى فجأة فى ٣ يوليو من ذلك العام . وقد ذهب فريق من الناس ــ ومنهم مدام دى ستايل ــ إلى أنه انتحر .. كما ذهب فريق آخر إلى أنه مات فى نوبة صرع .

الطبعة التى ترجمنا عنها الاعترافات

● ولقد كان من عادة « روسو » أن يشرف بنفسه على

إصدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه . على أنه كان يتدخل فى الطبعات التى تصدر بعد ذلك ، فيضيف إليها بعض الملاحظات، دون أن يحذف أو يغير شيئا من موادها .

ولقد تولى ثلاثة من أقرب خلصائه ــ هم « دوبيرو » و « مولتون » الجنيفى ، ومركيز « جيراردان » ــ فحص مخطوطاته بعد موته ، ومطابقتها على ما سبق أن أفضى به إليهم .. وقد انتهت تحقيقاتهم بصدد « الاعترافات » إلى اصدار طبعة منها فى (جنيف) فى سنة ١٧٨٢ .. على أن « دوبيرو » لم يرض عن التعديلات التى أدخلت على الكراسات الست ، فأصدر بنفسه طبعة أخرى ، استند فيها إلى ما كان بين يديه من وثائق ، لا سيما رسائل « روسو » .

وفى سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من « الاعترافات » ، أخذت عن أصول قدمتها مدام « روسو » ، ولا تزال محفوظة فى البرلمان الفرنسى .. وكان الفارق بين كل من هذه الطبعات الثلاث وبين الآخرين ، لا يعدو مجرد تعديلات بسيطة فى بعض العبارات ، وليس فى الوقائع .

والترجمة التى تقدمها لك «مطبوعات كتابى» اليوم، أخذت عن طبعة أصدرتها دار « لوفيفر » فى سنة ١٨٥٩ ، بعد دراسة الطبعات الثلاث وتحقيقها،ومن ثم فهى تعتبر أدق طبعة صدرت من «اعترافات جان جاك روسو» .. وقد بذل الزميل القدير المرحوم محمد بدر الدين خليل فى نقلها إلى العربية كل جهد ممكن ، للمحافظة على النص والروح بأمانة تامة ، لم يشبها أى اختصار، أو حذف، أو تحوير .. بل لقد بذل عناية فائقة

لجعل التعبير والاسلوب اقرب ما يكونان إلى النص الذى كتبه الأديب العبقرى ، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية ..

واخيرا ، فأملى ان تكون « مطبوعات كتابى » ، بنقلها هذا التراث الإنسانى الخالد إلى لغتنا ، قد ساهمت فى تزويد المكتبة العربيةبأثر شامخ منشوامخ الاعمالالأدبية الباقيةعلىالزمن..

ولهذه المناسبة ، احسبك تقرنى على انه لم يكن من الممكن نشر كتاب يبلغالألف صفحة تقريبا، فىجزء واحد من(مطبوعات كتابى) ، ومن ثم لم يكن بد من نشر هـذه « الاعترافات » فى خمسة أجزاء متتابعة ، اولها هذا الجزء الذى بين يديك ..

وإلى اللقاء على صفحات الجزء الثانى من هذه الاعترافات.

والله ولى التوفيق

حلمى مراد





اعترافات جان جاك روسو

الجزء الأول

الكراسة الأولى

١ ـ من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧١٩

إننى مقدم على مشروع لم يسبقه مثيل ، ولن يكون له نظير . إذ اننى ابغى ان أعرض على اقرانى إنسانا فى أصدق صور طبيعته .. وهذا الإنسان هو : أنا !.. أنا وحدى !.. فانى أعرف مشاعر قلبى ، كذلك أعرف البشر ! ولست أرانى قد خلقت على شاكلة غيرى ممن رأيت ، بل إننى لأجرؤ على أن اعتقد باننى لم أخلق على غرار أحد ممن فى الوجود !.. وإذا لم اكن أفضل منهم ، فاننى ـ على الأقل ـ أختلف عنهم !.. ولن يتسنى البت فيما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت إذ أتلفت القالب الذى صاغتنى فيه ، إلا بعد قراءة هذه الاعترافات !

فاذا ما انطلقت آخر صيحات بوق البعث ، عندما يقدر له أن يدوى ، فلسوف أمثل أمام الحاكم العادل وهذا الكتاب بين يدى . ولسوف أقول فى رباطة جاش : « هذا ما فعلت ، وما فكرت ، وما كنت .. لقد رويت فى كتابى الطيب والخبيث على السواء ، بصراحة ، فلم أمح أى ردىء ، ولا انتحلت زورا أى طيب .. وإذا كنت قد استخدمت بعض التزويق الفارغ ـ بين وقت وآخر ـ فما ذلك إلا لأملأ فراغا نشأ عن نقص فى الذاكرة . ولربما قطعت بصدق أمر أعرف أنه « قد » يكون صحيحا ، ولكننى قط لم أزعم صدق ما عرفته زيفا .. لقد صورت نفسى على حقيقتها : فى ضعتها وزرايتها .. وفى

صلاحها ، وحصافة عقلها ، وسموها .. تبعا للحال التى كنت فيها !.. لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسى ، كما كنت أنت تراها ، أيها الخالد السرمدى .. فأجمع حولى الحشد الذى لا حصر له من أبناء جنسى ، ودعهم يصغون إلى اعترافاتى ، فيرثون لخستى ، ويخجلون لمثالبى . ثم ادع كلا منهم إلى أن يكشف بدوره ـ وبعين الصراحة ـ أسرار فؤاده ، عند قوائم عرشك ، وليقل إن جرؤ : « لقد كنت خيرا من ذاك الرجل » !

* * *

ولدت فى (جنيف) ، فى عام ١٧٢١ ، للمواطنين « ايزاك روسو » و « سوزان برنار » ، وكان تقسيم ميراث أسرة أبى ـ على قلته ـ بين خمسة عشر ابنا وابنة ، قد هبط بنصيب أبى إلى نذر لا يكاد يذكر ، فلم تكن له وسيلة عيش سوى مهنته كـ « ساعاتى » ـ وكان فى الحق جد بارع فيها ـ أما أمى فكانت أحسن منه حالا . كانت ابنة القس البروتستانتى « برنار » ، وكانت ماهرة ، جميلة ، وقد وجد والدى عناء فى الظفر بيدها ، إذ بدأ حبهما منذ طفولتهما الباكرة ، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا أن يتمشيا كل مساء فى طريق (تريى) ، أبدع طرق جنيف .. فلما صارا فى العاشرة ، لم يعودا يفترقان . وعزز التعاطف والائتلاف الروحى ذلك الاحساس الذى خلقته الألفة بينهما .. ولم يكن كل منهما ـ وقد خلق مرهف الحس رقيق الشعور ـ ليرجو سوى تلك اللحظة التى يتاح له فيها أن يكتشف عند الآخر نفس ما كان يخالجه من إحساس .. أو ـ على الأصح ـ كانت تلك اللحظة ترتقبهما ، فأسلم كل منهما قلبه للآخر فى أول فرصة .. وكأن بالقدر حين لاح

انه يعارضهما ــ قد زادهما وجدا .. وإذا بالعاشق الشاب الذى عجز عن الظفر بحبيبته ــ إذ ابى اهلها أن يزوجوه إياها ــ يذوب أسى وحزنا ، فنصحته فتاته بالترحال ، وبأن يسعى لنسيانها . فسافر ، ولكن .. دون جدوى ، إذ عاد مدلها أكثر من ذى قبل ! ووجد تلك التى احبها لا تزال وفية ، صادقة الحب . فلم يبق لهما ــ بعد تلك التجربة التى اختبرا بها عاطفتهما ــ إلا ان يظلا متحابين طيلة عمريهما .. فأقسما ان يفعلا ذلك ، وباركت السماء تعاهدهما !

وحدث ان وقع « جابرييل برنار »ــ شقيق أمى ــ فى حب احدى شقيقات أبى ، فلم توافق على خطبته إلا على شريطة أن يتزوج اخوها من أخته . وهكذا دبر الحب كل شىء ، وعقدت الزيجتان فى يوم واحد ، فأصبح خالى زوج عمتى ، وقدر لأولادهما أن يكونوا اولاد عمومة وخؤولة لى .. وفى نهاية العام الأول للزواج ، رزق كل من الفريقين بطفل ، ثم تشتت شملهما .. فقد كان خالى مهندسا ، فعين فى خدمة الإمبراطورية ــ فى المجر ــ تحت إمرة الأمير « يوجين » ، واستطاع ان يبلى بلاء حسنا فى معركة (بلجراد) . اما أبى فقد رحل ــ بعد مولد اخى الأوحد ــ إلى القطسنطينية ، حيث استدعى ليتولى منصب « ساعاتى السلطان » ! واستطاعت أمى ــ فى غيابه ــ ان تكسب ولاء عدد كبير من المعجبين ، بفضل جمالها وذكائها ومواهبها (١) . وكان من أشد هؤلاء

(١) كانت مواهبها تفوق مكانتها الاجتماعية بكثير .. فان أباها القس كان يحبها الى درجة العبادة ، وقد بذل فى تعليمها وتربيتها عناية فائقة ، ومن =

المعجبين تهافتا ، مسيو « ديلا كلوزير » ، المندوب الفرنسى المقيم . ولابد أن شغفه بها كان عارما ، فقد رأيته شديد التأثر وهو يحدثنى عنها ، بعد ذلك بثلاثين عاما ! على أن أمى كانت تتذرع لمقاومة كل محاولات بما هو أكثر من الفضيلة .. كانت تحب زوجها حبا مبرحا . وقد راحت تلحف عليه فى العودة ، فترك كل شىء ورجع . وكانت الثمرة التعسة لهذه العودة ، إذ ولدت بعد عشرة أشهر ، ضعيفا سقيما . وقد كبدت أمى حياتها ، وكان مولدى أول ما حاق بى من نحس وتعاسة !

ولم يقص على أحد قط كيف احتمل ابى هذا المصاب ، ولكنى أعرف أنه لم يتعز أبدا ، وكان يخال أنه يرى زوجته فى شخصى ، دون أن يقوى على أن ينسى اننى الذى حرمته إياها !.. أبدا لم يحتضنى دون أن الاحظ ــ من تنهداته والاختلاجات التى كانت تعتريه وهو يضمنى إلى صدره ــ أن حسرة مريرة كانت تخالط قبلاته ، فلا تزيدها إلا حنانا . وكان إذا قال لى : « لنتحدث عن أمك يا جان جاك » ، أجبت : « حسنا ، لسوف نبكى إذن يا أبت ! » .. وكانت هذه العبارة

=

ثم فانها كانت تجيد الرسم ، والغناء ، والعزف على آلة تشبه العود . كما كانت كثيرة الاطلاع ، وكانت تنظم أشعارا لا بأس بها . وقد حدث ــ اثناء غياب زوجها وأخيها ــ أن خرجت للنزهة مع زوجة أخيها ، فصادفتا شخصا ذكرهما بالغائبين ، وإذا هى تقول على الفور شعرا هذا معناه :

وهذان السيدان الغائبان .. عزيزان علينا من كل جانب ، فهما صديقانا وحبيبانا ، وهما زوجانا وشقيقانا .. وهما والدا طفلينا

وحدها كفيلة بأن تبعث الدمع إلى عينيه ، فكان يهتف متأوها :
« آه !.. الا ردها إلى !.. كن عزائى عن فقدهـــا ، وامـلأ
الفراغ الذى خلفته فى نفسى !.. افترانى كنت احبك هذا الحب
كله ، لو انك كنت مجـرد ابن لى ؟ » .. وبعد اربعين عاما
من مصابه فيها ، مات بين ذراعى زوجة ثانية .. ولكن اسم
الأولى كان على شفتيه ، وصورتها فى قرارة فؤاده !

وهكذا كان الاثنان اللذان أوجدانى ، ولم يورثانى – من كل
النعم التى اسبغتها عليهما السماء – سوى قلب رقيق مرهف
الحس .. ولقد كان قلباهما منبعى سعادتهما ، اما قلبى فقد
كان منبع كل شقوة فى حياتى !

* * *

ولقد هبطت إلى الدنيا فى حال تقرب من الموت ، فلم يكن
ثمة امل يذكر فى إنقاذ حياتى . وكنت أحمل فى كيانى بذور
علة اخـذت تقـوى على مر الزمن ، ولا تبارحنى فى بعض
الأوقات ، إلا لتقسو فى تعذيبى بشكل آخر . وقد أولتنى إحدى
عماتى –وكانت شابة لطيفة فاضلة – من الرعاية ما أنقذ
حياتى . وهى لا تزال حتى كتابة هذه السطور على قيد
الحياة ، وقد بلغت الثمانين من عمرها ، وتوفرت على تمريض
زوج يصغرها سنا ، ولكن الافراط فى الشراب أنهك قواه
.. اننى لأغفر لك ، يا عمتى العزيزة ، أن ابقيت على حياتى .
وما أعمق أسفى إذ ارانى عاجزا عن ان أرد اليك – فى أواخر
ايامك – تلك الرعاية السابقة التى اوليتنيها فى أوائل

ايامى ! (١) .. كذلك لا تزال مرضعتى العزيزة العجوز
« جاكلين » على قيد الحياة ، موفورة الصحة والقوة . وكأنى
باليدين اللتين فتحتا عينى عند مولدى ، ستغمضانهما عند
وفاتى !

ولقد تنبه إحساسى قبل أن يتنبه فكرى .. وهو شىء يحدث
لجميع البشر ، ولكننى كنت اكثر من سواى خبرة به وتجربة
له .. ولست ادرى ماذا كنت أفعل قبل ان أبلغ الخامسة او
السادسة . ولا أعرف كيف تعلمت القراءة .. وكل ما أذكره ،
أول مرة قرأت فيها ، وما كان لها من تأثير ، فقد اتخذتها
تاريخا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات .. وكانت
أمى قد خلفت بعض قصص غرامية ، شرعت فى قراءتها مع
أبى ، عقب العشاء ، فى كل ليلة . وكان القصد من ذلك – فى
البداية – مجرد تدريبى على القراءة ، بالاستعانة بالكتب
المشوقة . وكان الشغف لم يلبث ان دب فينا ، فكنا نتناوب
القراءة دون توقف ، وننفق ليالى باكملها فى هذا العمل . وكنا
نعجز عن التحول عن الكتاب حتى نفرغ منه . وكان ابى يقول
أحيانا فى استحياء ، وهو يسمع العصافير تشرع فى الشقشقة
مع مطلع النهار : « هيا بنا إلى الفراش .. كأنى أنا الطفل
ولست أنت ! » .

---

(١) كانت هذه العمة تدعى مدام جونسيرو . وقد رتب لها روسو – منذ
مارس سنة ١٧٦٧ – معاشا قدره مائة جنيه ، كان يدفعه اليها دائما ، وفى
مواظبة دقيقة ، حتى فى اشد أوقات ضيقه !

وبفضل هذا الأسلوب الخطر ، استطعت فى أمد قصير أن اكتسب حذقا بالغا للقراءة والفهم .. ليس هذا فحسب ، بل اننى أحرزت أيضا دارية بالعواطف المشبوبة ، كانت نادرة بالنسبة لطفل فى سنى . فباتت جميع مشاعر الحياة العادية مألوفة لدى، وإن لم اكن أدرك كنهها .. كنت احس بكل شىء ، دون أن أفقه كنه أحاسيسى . فمن المؤكد أن هـذه المشاعر المهوشة المبهمة ـــ التى كنت أشعر بها واحدا بعد آخر ـــ لم تؤلف نسيجا قوى الادراك لدى ، لأننى لم اكن احظى إذ ذاك بهذه القوى ، ولكنهـا ساعدت على تشكيلها فى أعماقى على نسق خاص ، وأوحت إلى بأفـكار خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية ، لم تقو التجربة وقوة التفكير على أن تبرئنى تماما منها طيلة حياتى !

٢ ـــ من سنة ١٧١٩ إلى سنة ١٧٢٣

وفرغنا من الروايات فى صيف سنة ١٧١٩ ، فاذا الشتاء التالى يوافينا بمادة تختلف عنها . إذ اننا لم نكد نستنفد مكتبة أمى ، حتى تحولنا إلى نصيبها ـــ الذى آل إلينا ـــ من مكتبة أبيها . وكان بها بعض كتب دسمه ، لحسن الحظ . وما كان من المنتظر أن تكون غير ذلك ، إذ كانت جزءا من مكتبة جمعها قس ، كان ـ فى الوقت ذاته ـ عالما ، على غرار ما كان مألوفا فى أيامه . كما كان رجلا ذا ذوق وذكاء ! وكان من هذه الكتب التى آلت الينا : « تاريخ الإمبراطورية والكنيسة » للوسيور ، و « رسالة فى تاريخ العالم » لبوسويه ، و « حيـاة مشاهير الرجال » لبلوتارك ، و «تاريخ البندقية» لناف ، و «التطورات»

و « الأصول » لأوفيـد ، و « العوالم » و « حـوار الموتى » لفونتنيل ، وبعض مؤلفات موليير .. فنقلت كل هذه إلى غرفة أبى ، وأخذت أقرؤها عليه وهو عاكف على عمـله . وكنت استوعبها فى استساغة نادرة ، بل لعلها كانت فذة بالنسبة لعمرى . وأصبح « بلوتارك » ـــ بوجـه خاص ـــ هو أحب المؤلفين إلى نفسى ، فأبرأنى الاسـتمتاع بقراءة كتابه مرارا وتكرارا من بعض الشغف الذى كان قد تملكنى نحو الروايات ، وسرعان ما شغلت بأبطاله : وبدأت أفضل « أجيسلاوس » و « بروتس » و « ارسـتيدس » على « اورونداتيس » و « ارتامينس » و «جوبا» . وقد أدى هذا الاطلاع المشوق ، والمحادثات التى كان يثيرها بينى وبين أبى ، إلى تولد روح الحرية فى نفسى .. تلك الروح الأبية ، المنيعة ، التى لا تطيق العبودية أو الاسترقاق ، والتى عذبتنى طـوال حياتى ، فى مواقف كانت بعيدة عن أن تتيح لها مجالا .. وهكذا أصبحت أفكارى فى شغل لا ينقطع بروما وأثينا ، وقد دبت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما . وقد أذكى حماسى أننى ولدت مواطنا فى جمهورية ، وابنا لأب كانت وطنيته هى أشد عواطفه اتقادا ، فكنت أخال نفسى إغريقيا أو رومانيا ـ حسب شخصية العظيم الذى اقـرأ سيرته ـــ وكنت أذيب شخصيتى فى شخصيته ، كمـا كان الاسهاب فى ذكر صفات الجلد والبسالة ـــ التى كانت تستهوينى ـــ يجعل عينى تومضـان ، وصوتى يقوى . وقد حدث ذات يوم ، أن انطلقت أروى سيرة « سكيفولا » للأفراد الذين ضمتهم مائدتنا ، فاذا بالجزع يتولاهم إذ رأونى

فى غمرة التحمس اتقدم فاضم قبضتى على المشواة ـ « الشواية » ـ الساخنة ، لأصور عملا من أعمال البطل !

وكان لى شقيق يكبرنى بسبع سنوات ، يتلقى عن ابى حرفته ، وقد كان من جراء الحنان الضافى الذى أسبغه أبى على ، أن أهمل هذا الأخ، وهى معاملة لا اقرها ولا احبذها !.. وتأثرت تربية أخى بهذا الاهمال ، فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور . وقد عهد به أبى إلى معلم آخر ، فكان لا ينفك يهرب منه ، ومن البيت ، حتى اننى نادرا ما رأيته ، واكاد اقول اننى لم اكن اعرفه ! على اننى لم اكف عن ان احبه فى شغف . اما هو فقد احبنى كما يحب الشريد اى شىء !.. واذكر أن ابى عاقبه ـ فى إحدى المناسبات ـ بغلظة وغضب ، فاندفعت ملقيا بنفسى بينهما ، واحتضنته .

وبذلك حجبت جسمه بجسمى ، فتلقيت عنه الضربات التى كانت موجهة إليه !.. وظللت متشبثا بهذا الوضع فى عناد ، حتى اضطر ابى فى النهاية إلى أن يتخلى عن العقاب ، إما لأن صرخاتى ودموعى الانت قلبه ، أو لأنه خشى أن يؤذينى اكثر مما كان يؤذى اخى . على أن حال هذا الأخ ما لبثت أن ازدادت سوءا ، ففر واختفى كل اثر له . وسمعنا بعد ذلك بزمن أنه كان فى المانيا . بيد أنه لم يكتب إلينا قط ، ولا تلقينا عنه نبأ على الاطلاق ، ومن ثم صرت الابن الأوحد لأبى !

وإذا كان هذا البائس قد نشأ محوطا بالاهمال ، إلا أن هذه لم تكن حال اخيه .. أنا ! فما كان أبناء الملوك ليحظوا باكثر

من الرعاية التى حظيت بها فى سنى حياتى الأولى .. كنت معبود كل المحيطين بى .. على أن هذه العبادة لم تجعل منى طفلا مدللا مفسودا ، كما هو المألوف فى الأطفال الذين يحظون بحب اهلهم . ولم يتح لى قط ـ إلى أن غادرت دار أبى ـ أن اجرى فى الطرقات مع سواى من الأطفال ، ولا احتاج احد إلى ان يشجع او يكبح فى نفسى تلك النزوات الخيالية التى تعترض حياة الأطفال ، والتى تعزى ـ خطأ ـ إلى الطبيعة ، وهى فى الواقع من ثمار التربية .. ولقد كنت أرتكب المآخذ المألوفة لدى اقرانى فى السن : فكنت ثرثارا ، نهما ، كذوبا فى بعض الأحيان .. وربما كنت أسرق بعض الفاكهة ، او الحلوى ، أو المأكولات .. ولكنى لم أنشد قط متعة فى إيذاء الغير ، أو الإضرار بهم ، أو اتهامهم ، أو فى تعذيب الحيوانات البكماء المسكينة . وإن كنت اذكر اننى تبولت مرة فى قدر أو وعاء لجارة لنا ـ تدعى مدام «كلو» ـ بينما كانت فى الكنيسة . وانى لأجهر ، حتى بعد أن بلغت هذه السن ، بأن ذكرى هذا الحادث تثير ضحكى .. فقد كانت مدام كلو أكثر الذين عرفتهم إمعانا فى الشكوى ولجاجة فى التذمر ، برغم انها كانت طيبة فيما عدا ذلك .. وهذه ـ بايجاز وصدق ـ كبرى إساءاتى فى الطفولة !

* * *

وكيف كان من المكمن أن أغدو شريرا ، وقد كانت عيناى لا تقعان إلا على أمثلة للطف الدماثة ، ولم يكن يحيط بى سوى خير ناس فى الدنيا ؟.. والحق أن أبى وعمتى ومربيتى واقاربى وأصدقائى وجيرانى ، لم يكونوا يخضعون لرغباتى ؛

ولكنهم كانوا يحبونني ، وكنت انا الآخر احبهم . وقليلا ما كانت رغباتي تثير — او تستحق — معارضة ، حتى ليخطر لي انني لم تكن لي اية رغبات على الاطلاق !.. وبوسعي ان اقسم على انني ما عرفت كنه النزوات او الشطط في الهوى ، إلى ان قدر لي ان اعمل في خدمة معلم . وفيما عدا الأوقات التي كنت اقضيها في القراءة او الكتابة — بصحبة ابي — او التي كانت مربيتي تصحبني فيها للنزهة .. فيما عدا هذه الأوقات ، كنت دائما مع عمتي ، اجلس او اقف إلى جوارها ، ارقبها وهي تطرز ، أو اصغي إليها وهي تغني .. وكنت أغتبط بهذا . ولقد طبعت بشاشتها ولطفها ووجهها السمح اثرا عميقا ، بهيجا ، في ذهني ، حتى انني لا ازال اتمثلها بخلقها ومظهرها وتصرفاتها ، ولا ازال اذكر لهجتها الحنون .. وبوسعي ان أصف ما كانت ترتديه من ثياب ، وكيف كانت تصفف شعرها ، دون ان انسى الخصلتين اللتين كانتا تتدليان على صدغيها ، من شعرها الأسود ، على غرار ما كان شائعا في ذلك العهد .

واني لأعتقد بأنني مدين لها بميلي — بل ولعي — بالموسيقى، وهو الولع الذي لم يستكمل نموه في نفسي إلا بعد ذلك بزمن طويل . وكانت تعرف عددا من الألحان والأغاني الممتازة ، التي اعتادت ان ترددها بصوت جد رفيع رخيم !.. وقد كان الطرب الذي فطرت عليه نفس هذه المرأة الرائعة ، يطرد عنها وعن كل المحيطين بها الوساوس والاكتئاب . وكان السحر الذي يفرضه غناؤها على نفسي عظيما ، حتى أن بعض

أغانيها بقيت على الدوام في ذاكرتي .. بل إن كثيرا من أغانيها التي كنت قد نسيتها تماما منذ ايام طفولتي ، ترتد اليوم إلى ذهني ـ بعد أن فقدت هذه العمة ، وبعد أن تقدم بي العمر — مصحوبة بسحر لا قبل لي بوصفه ! أفيصدق احد أنني وقد غدوت شيخا مخرفا ، تنتهبه الهموم والمتاعب ، أجد نفسي — في بعض الأوقات — منخرطا في البكاء كالطفل ، عندما اترنم باحدى هذه الأغاني بصوت متحشرج مهدم ؟.. بل إن إحدى هذه الأغاني عاودتني بكل جزئية من لحنها ، وإن استعصت على بعض كلماتها ، برغم كل جهد ابذله لاستعادتها .. وها هو ذا مطلعها ، وكل ما استطيع ان اذكره من بقيتها :

« لست اجرؤ يا « تيرسيس » على سماع مزمارك تحت شجرة الدردار .

« فقد بدأ القوم يتحدثون عنا في قريتنا !

«... راع ، ... من خطر، فالشوك دائما تحت الورد»(١)

واني لأتساءل : اين السحر المؤثر الذي يجده فؤادي في هذه الأغنية ؟.. انها نزوة واهمة لا أستطيع أن افهمها . ومع ذلك فمن المستحيل تماما ان أردد هذه الأغنية دون أن تقطع

---

(١) لا تزال هذه الأغنية معروفة في باريس ، وشائعة بين طبقات العمال فيها ، وهذه هي تتمة الكلام الناقص :

« القلب اذا ما اشتبك بحب راع ، لا ينجو من خطر

« فالشوك دائما تحت الورد »

على دموعى الاسترسال فيها ! ولقد اعتزمت مرارا لا حصر لها أن أكتب إلى باريس متحريا عن بقية الكلمات ، إذا كان ثمة من يعرفها . على أننى أكاد أكون موقنا من أن قسطا من الطرب الذى أشعر به إذ أتذكر اللحن ، لن يلبث أن يتلاشى ، إذا تبينت أن هناك من ترنم بهذه الأغنية غير عمتى « سوسن » المسكينة !

* * *

وهكذا كانت مشاعرى الأولى فى بداية عهدى بالحياة .. وهكذا بدأ يتكون ويتكشف فى صدرى ذلك القلب الأبى الشفوق وتلك الشخصية التى لا تلين ولا تنثنى برغم رقتها القريبة من الأنوثة ، والتى استطاعت خلال حياتى ـ بتذبذبها بين الخجل والجرأة ، وبين الضعف والسيطرة على النفس ـ أن تجعلنى متقلبا ، والتى تسببت فى أن أصبحت التقوى والمتعة ، واللهو والتعقل ، تفلت من قبضتى على السواء !

ثم قطع على المضى فى انحظوة بهذه التربية حادث ، كان لتبعاته تأثير على كل ما تبع ذلك فى حياتى : فقد اشتجر أبى مع «يوزباشى» فى الجيش الفرنسى يدعى « جوتييه » ، كان على علاقة ببعض أعضاء المجلس الشعبى . ولقد نزف أنف ذلك « الجوتييه » ـ الذى كان جبانا ، وقحا ـ أثناء الشجار ، فأراد أن يثأر لنفسه ، واتهم أبى بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة . وقد تشبث أبى ـ الذى أرادوا أن يلقوا به فى السجن ـ بأن لابد لصاحب الاتهام أن يرسل هو الآخر إلى السجن ، وفقا للقانون . فلما عجز عن أن يحقق هذا ، آثر أن

يهجر (جنيف) ، وأن ينفى نفسه من وطنه بقية حياته ، على أن يتخلى عن أمر يتعلق بالشرف والحرية ، كما تراءى له !

وبقيت أنا فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان فى تلك الحقبة يعمل فى إنشاء استحكامات (جنيف) . وكانت ابنته الكبرى قد ماتت ، وبقى له ابن فى مثل سنى . فأوفدنا معا إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، كى نتلقى ـ إلى جانب اللغة اللاتينية ـ كل تلك السفاسف الداعية للأسف ، والتى يزج بها تحت اسم التربية والتعليم . وقد ألانت السنتان اللتان قضيتهما فى القرية من خشونتى الرومانية بعض الشىء ، وردتانى طفلا من جديد . ففى جنيف كنت أهوى المطالعة والاطلاع ، إذ لم تكن ثمة مهام مفروضة على .. أما فى (بوسى) فإن واجباتى جعلتنى أحب الألعاب التى كانت تتيح لى الفرار من تلك الواجبات . وكان الإقليم جديدا بالنسبة إلى ، فلم يهن استمتاعى به ، وقد تملكتنى عاطفة قوية نحوه ، لم تخب منذ ذلك الحين . فكانت ذكرى الأيام الهنيئة التى قضيتها هناك تملأ نفسى حنينا محسورا إلى بهجتها ، فى كل فترات حياتى ، حتى اليوم الذى قدر لى فيه أن أعود إلى ذلك الإقليم !

ولقد كان مسيو « لامبرسييه » لبيبا ، ذكيا ، لم يسرف قط فيما كان يفرضه علينا من واجبات ، ولم يهمل فى تعليمنا . ويكفى دليلا على أن أسلوبه فى التعليم كان جيدا ، أننى برغم كراهيتى للقيود ، لم أذكر مرة سويعات دراستى بامتعاض .. وأننى ، حتى إذا كنت لم أتعلم كثيرا على يديه ، استوعبت فى

غير عناء ما تلقيته عنه ، فلم أنسه أبداً . وكانت بساطة الحياة
الريفية لا تقدر بقيمة فى اعتبارى ، فقد فتحت قلبى للصداقة .
إذ أننى لم اكن قد عرفت حتى ذاك الحين سوى بعض
المشاعر ، التى كانت — على سموها — خيالية متعلقة
بأوهام !. على أن تعود العيش فى وئام مع ابن خالى — وابن
عمتى فى الوقت ذاته — شد كلا منا إلى الآخر بروابط من
التعاطف ، وسرعان ما اصبحت عواطفى نحوه أكثر مودة من
تلك التى كنت أوثر بها اخى ، ولم يقدر لها قط أن تهن او
تضعف . وكان ابن خالى طويلا ، نحيفا ، ضعيفا .. رقيقا
فى مسلكه بقدر ما كان رقيقا فى بنيانه ، لم يحاول مطلقا ان
يسىء استغلال الايثار الذى كان يلقاه فى البيت بوصفه ابن
الرجل الذى كان يكفلنى !.. وكانت واجباتنا ، وميولنا ،
واذواقنا واحدة . وكنا وحيدين ، وفى سن واحدة ، وكل منا
بحاجة إلى زميل .. فكان الفراق — فى نظرنا — نوعا من
الهلاك !.. ومع أنه لم تتح لنا سوى فرص قليلة لإبداء هذا
التعلق المتبادل ، إلا انه كان تعلقا قويا شديدا ، فلم يكن من
العسير علينا — فحسب — أن نعيش لحظة متباعدين ، بل
إننا لم نكن نتصور أن من المحتمل أن نفترق !

.. ولما كان كل منا على استعداد لأن يجنح إلى اللطف
والدعة مع الآخر — فى الأحوال التى لم يكن فيها اى قسر —
فاننا كنا داوما على اتفاق فى كل شىء . وإذا كان ابن خالى قد
اعتاد أن يحظى بشىء من الامتياز دونى ، عندما كنا نجتمع
باللذين كانا يرعياننا — نظرا لمكانته فى اعتبارهما — فاننى

كنت أحظى ، إذا ما خلا كل منا إلى الآخر ، بامتياز عليه ، مما
كان يحقق التعادل بيننا .. فكنت — ونحن نستذكر دروسنا —
أؤنبه إذا ما ابطأ ، كما كنت اساعده إذا ما فرغت من واجباتى
الدراسية .. اما فى تسليتنا والعابنا ، فقد كان عقلى أكثر
نشاطا من عقله دائما ، مما كان يكفل لى الزعامة . وقصارى
القول ان شخصيتينا انسجمتا تمام الانسجام ، كما
ان الصداقة التى توثقت بيننا كانت من الاخلاص الصادق بحيث
اننا لم نكن نفترق تقريبا ، طوال السنوات الخمس التى قضيناها
معا ، سواء فى (بوسى) أو فى (جنيف) .. ومع اننا كنا نشتجر
احيانا ، الا أن الشجار لم يكن ليفرق بيننا ، ولا كانت منازعاتنا
تدوم لأكثر من ربع ساعة ، ولا كان أى منا يشكو الآخر او
يتجنى عليه !.. وقد تكون هذه الملاحظات صبيانية — إن
شئت ان تراها كذلك — ولكنها تضرب مثلا قد يكون فريدا فى
نوعه ، مذ وجد اطفال على الأرض !

* * *

ولقد راقت لى الحياة التى مارستها فى (بوسى) ، حتى انها
لو دامت اطول مما قدر لها لكانت خليقة بأن تشكل شخصيتى
.. فقد كان اساسها الحنان ، والعطف ، والرقة .. وكنت
أومن بأن أحدا من ابناء نوعنا لم يكن يبزنى فيما فطرت عليه
من تحرر من الغرور . وكنت اسمو بنفسى فأحلق عاليا ، ثم
لا البث سراعا ان أهوى إلى ضعفى الطبيعى واستخذائى ..
كانت اكثر رغباتى إلحاحا ، هى ان اكون محبوبا لدى كل من
يتصل بى عن كثب . وقد كنت ذا فطرة رقيقة ، وكذلك كان
ابن خالى ، والشخصان اللذان وكلت اليهما رعايتنا . ومن ثم

فاننى لم اشهد ، ولا خبرت ـ خلال عامين كاملين ـ أى شعور اهوج عنيفا ، بل كان كل شىء يغذى فى قلبى تلك الميول التى اودعته الطبيعة إياها . ولم اكن اعرف سعادة تسمو على ان ارى كل الدنيا راضية عنى، وعن كل شىء ! ولن انسى ما حييت ان شيئا لم يكن يقض راحـة بالى ، قـدر مشاهدتى أمارات القلق والاستياء على محيـا الآنسة « لامبرسييه » ـ اخت القس ـ عندما كان يقـدر لى ان اتردد او اتلعثم ، وانا اتلو الدرس الدينى من الذاكرة فى الكنيسة . كان هذا ـ فى حـد ذاته ـ اكثر إزعاجا لى من ان اكشف عن عجز فى امام الملأ ، على ما كان فى هذا من إيلام لنفسى . ذلك لانه وإن لم يستخفنى الاطراء ، إلا اننى كنت شديد التأثر بما يخجل . وانى لاذهب هنا إلى القول بأن التفكير فى تأنيبات الآنسة « لامبرسييه » كان اقل ازعاجا لى من الخوف من ان اجرح شعورها !

على ان الشدة لم تكن تعوز الآنسة وشقيقها ، إذا دعا إليها الأمر .. ولكن هذه الشدة كانت عادلة فى الغالب ، ولم تكن قط صادرة عن انفعال أو موجدة ، ومن ثم فانها كانت تؤلمنى دون أن تثير تمردى .. كان الاخفاق فى الارضاء اقسى وقعا على نفسى من العقاب ، وكانت أمارات الاستياء اكثر إيذاء لى من العقاب البدنى .. وقد يكون من المحرج أن أمضى فى الحديث عن نفسى بأكثر من هذا ، ولكننى لا اجد بدا .. فما أشد ما تتغير إليه معاملة المرء للصغار ، إذا قدر له ان يرى بجلاء مدى آثار أسلوب المعاملة المألوف ، الذى ينتهج دائما دون ما تبصر ولا حكمة !.. وان الدرس الهام الذى قد يستمد من مثـال

واحد ـ شائع بقدر ما هو خطير العواقب ـ ليحملنى على أن أروى هذا المثال :

كانت الآنسة « لامبرسييه » تكن لنا حنان الأمومة ، ولكنها كانت كذلك تفرض علينـا سلطان الأم ، وكانت أحيانا تذهب فى ذلك إلى حد معاقبتنا ـ كما يعاقب الأطفال ـ عندما نستحق ذلك . ولقـد اكتفت ـ بعض الوقت ـ بالتهديدات ، فكان الانذار بالعقاب يبدو لى رهيبا ، إذ كان جديدا على .. على أننى تبينت ـ بعد تنفيذه ـ أن الواقع كان اقل رهبـة من الترقب .. والأغرب من ذلك ، ان العقاب جعلنى اكثر تعلقا بتلك التى انفذته فى ! ووجدتنى بحاجة إلى أن أتذرع بقوة هذا التعلق ، وبكل ما اوتيت من وداعة فطرية ، لأكبح نفسى عن اتيان ما قد يجعلنى اهلا لتكرار العقاب ، إذ اننى كنت أشعر فى الألم ـ على ما فيه من خزى ـ بلـذة تجعلنى اقل خوفا ، واكثر رغبة فى ان احظى به مرة أخـرى ، من نفس اليد !.. ولا ريب فى ان غريزة جنسية ما ، ذات نضوج مبـكر سبق أوانها ، كانت تخالط هذا الشعور ، لأن عين النوع من العقاب لم يكن يبدو مستحبا إذا ما أوقعه بى شقيق الآنسة !.. على انه لم يكن ثمة خوف من ان يحل القس محل اخته فى معاقبتى ، نظرا لرقة مشاعره . وإذا كنت قد نأيت بنفسى عن ان استحق العقاب ، فما كان ذلك إلا عن خوف من ان اتسبب فى استياء الآنسة لامبرسييه . ذلك لأن كرم الخلق كان اقوى تأثيرا على نفسى من كل لذة حسية ، ومن ثم فقد كان دائما يسيطر على هذه الأخيرة فى اعماقى !

ولقد نجم تكرر العقاب ـ الذى تفاديته دون أن أخشاه ـ عن غير ذنب منى .. ولى ان اقول اننى أفدت منه ، دون أى تبكيت من ضميرى .. ولكن هذه المرة الثانية كانت هى الأخيرة كذلك ، لأن الآنسة لامبرسييه ـ التى لاحظت ولا شك شيئا اقنعها بأن العقاب لم يؤت الأثر المنشود ـ أعلنت أن هـذا العقاب يضنيها ، وأنها لذلك اعتزمت ان تتحول عنه ! وكنا حتى ذلك الحين ننام فى غرفتها ، بل وفى سريرها احيانا ، أثناء الشتاء . ولكنا ـ بعد يومين ـ نقلنا للنوم فى غرفة أخرى . ومنذ ذلك الوقت ، حظيت بشرف المعـاملة كفتى كبير ، وهو شرف كنت على استعداد لأن اتخلى عنه مغتبطا !

* * *

ومنذا الذى كان يصدق أن هذا العقاب الصبيانى الذى كانت تنزله بى ـ وانا لم أتجاوز الثامنة من عمرى ـ شابة فى الثلاثين ، قد اثر على ميولى ، ورغباتى ، ونزواتى ، وعلى نفسى ذاتها ، طوال بقية حياتى ، وبشكل يناقض تماما النتيجة الطبيعية التى كان ينبغى أن يؤدى إليهـا ؟.. فما أن اتقدت مشاعرى مرة ، حتى انطلقت شهـواتى ، وإن لم تحفل بأن تتطلع إلى أكثر من الارضاء المحدود الذى شعرت به بالفعل فى ذلك العقاب !.. على أننى برغم دمى الحار ـ الذى كان يتقد بالشهوة منذ مولدى تقريبا ـ صنت نفسى عن كل شـائبة ، حتى السن التى تستيقظ فيها أبرد الطباع وأكثرها فتـورا وبطءا !.. فقضيت زمنا طويلا التهم كل الحسان اللائى كنت اقابلهن بنظرات متقـدة ، وانـا أتعذب دون أن ادرى لذلك سببا !.. وكان خيالى لا يفتأ يذكرنى بهن ، لا لشىء إلا لأستغل



كانت كذلك تفـرض علينـا سـلطان الأم ، وكانت أحيـانا تذهب فى ذلك الى حـد معـاقبتنا ..

اطيافهن على طريقتى الخاصة ، فاجعل منهن نسخا عديدة من
الآنسة لامبرسييه !.. بل إن هذا الذوق الغريب — الذى ظل
كامنا فى نفسى على الدوام ، والذى ذهب سلطانه على إلى حد
أن فرض على الحرمان واستبد بى إلى درجة تثير الغيظ — ان
أخلاقى ، حتى بعد ان بلغت سنى النضوج ، برغم انه كان
خليقا — بطبيعته — بان يقوض من هذه الأخلاق !

وإذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة ، فهذه هى تربيتى يقينا .
فان عماتى الثلاث لم يكن أمثلة للتقوى فحسب ، بل إنهن كن
متحفظات إلى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ امد طويل .
وكان ابى محبا للهو ، ولكنه كان فى لهوه من أتباع المدرسة
القديمة فى الكياسة ، فما نطق يوما بكلمة يمكن ان تبعث حمرة
الخجل إلى وجنات العذارى ، ولو فى حضرة نساء يؤثرهن بما
لم يكن يؤثر به سواهن من حب .. ولم يكن الوقار — الخليق
بأن يلتزم فى حضور الصغار — موضوع مراعاة فى أسرة ما ،
قدر ما كان مرعيا فى أسرتى ، وفى حضورى ..

وقد وجدت من السيد لامبرسييه نفس الحرص فى هذه
الناحية ، حتى لقد فصل من خدمته خادما جد بارعة ، لمجرد
انها استعملت فى حضورنا تعبيرا كان يعتبر مستهجنا غير
لائق !.. وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال ، دون ما فكرة
واضحة عن الجماع بين الجنسين .. ليس هذا فحسب ، بل
إن الصورة المبهمة ، غير الواضحة المعالم عن الجماع ، لم تكن
لتخطر ببالى إلا فى اقبح الأشكال وازراها . وكنت اشعر نحو
البغايا بازدراء عارم لم تخف حدته يوما ، وظل اى مشهد

للفجور يملأ نفسى بالسخط ، بل وبالاشمئزاز دائما .. وهكذا
ولد استبشاعى للفسق منذ اليوم الذى سرت فيه إلى تلال
(بيتى ساكونيكس) — على غير قصد واضح منى — فشهدت
على الجانبين حفرا فى الأرض ، قيل لى إن تلك المخلوقات
— البغايا — كن يمارسن فيها بغاءهن . وقد ظل مجرد
التفكير فى اى بغى ، يبعث فى ذهنى صورة جماع الكلاب ،
فكانت الذكرى وحدها كافية لأن تثير اشمئزازى !

هذا الاتجاه الذى اتجهت إليه تربيتى ، والذى ادى — فى
حد ذاته — إلى تأخير الاندلاعات الأولى لطباع قابلة للالتهاب
.. اقول إن هذا الاتجاه وجد — كما ذكرت — ما يعززه فى
الاتجاه الذى اتخذته أولى بوادر الحس الشهوانى فى حالتى .
فان اقتصارى فى شغل خيالى على ما احسست به بالفعل
— برغم ما كان فوران دمى يسببه لى من متاعب — علمنى كيف
احول شهواتى نحو هذا النوع من اللهو الذى كنت آلفه ، دون
ان اتمادى إلى ذلك النوع الذى وجدت نفسى تبغضه ، والذى
كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخر !.. فكنت فى تصوراتى
الطائشة ، وفى فوراتى الجنسية المكبوتة ، وفى التصرفات
الهوجاء التى كانت تدفعنى هذه وتلك إليها احيانا .. كنت فى
كل هذه ، الجأ فى « خيالى » إلى الاستعانة بالجنس الآخر ،
دون ان يخطر قط ببالى ان هذا الجنس يصلح لخدمة اى
غرض سوى ذاك الغرض الذى كنت اتحرق شوقا إلى ان
استخدمه فيه . وعلى هذا النحو استطعت — برغم ما جبلت
عليه من طبيعة شهوانية هوجاء تسبق اوانها فى النضوج —

أن اجتاز فترة البلوغ دون شـــهوات ، بل دون ما إدراك لأية ملذات شهوانية اللهم إلا تلك التى نبهت الآنســـة لامبرسييه حسى إليها فى براءة تامة ، ودون أن تفطن !

فلما بلغت ــ مع الزمن ــ مبلغ الرجال ، إذا بالأحاسيس التى كانت خليقة بأن تقضى على ، هى ذاتها التى صانتنى من الدمار .. وبدلا من أن يختفى شعورى الصبيانى القديم ، إذا به يقترن بالشعور الآخر ـ المتسامى ـ بدرجة تعذر على معها أن أقصيه عن الرغبات التى أخذت شهواتى تذكيها فى نفسى.. وكان هذا الجنون ، إلى جانب ما جبلت عليه من خجل فطرى، يجعلنى دائما أبعد ما أكون عن أن أروق فى نظر النساء ، إذ كانت تعوزنى الجرأة على أن أقول كل ما ينبغى أن يقال ، كما كانت تعوزنى القدرة على أن أفعل كل ما ينبغى أن يفعل .. ذلك لأن النوع الذى كان يروق لى من المتعة ــ والذى كانت اللذة الأخرى هى الحلقة النهائية المكملة له ــ لم يكن ممـــا يلجأ إليه المشوق إلى اللذة ، ولا مما يخطر ببال المرأة التى تجد من نفسها استعدادا لأن تمنح اللذة !

* * *

وهكذا قضيت عمرى فى شوق متقاعس ، دون أن أنبس ببنت شفة فى حضرة أولئك النساء اللواتى أحببتهن كل الحب .. على أننى أرضيت ذوقى أخيرا ــ وأنـــا أشـــد ما أكون استحياء من المجاهرة به ــ فى مواقف كانت تتمشى معه ، وإن احتفظت فى نفسى بالفكرة !.. فكان مجرد الاستلقاء عند قدمى سيدة جليلة ، وإطاعة أوامرها ، واستغفارى إياها ، أحلى

متعة فى رأيى !.. وكلما أذكى خيالى النشـــيط وقدة دمائى . ازداد ظهورى بمظهر العاشق الخجـــول . ومن السهـــل أن يتصور أى امرىء أن هذا النهج فى الهوى لا يقـــود إلى نتائج عاجلة ، ولا هو جد خطير على فضيلة أولئك الذين يخضعون لسلطانه .. ومن أجل هذا ، ندر أن ضاجعت امرأة ، ولكننى ــ مع ذلك ــ متعت نفسى بطريقتى الخاصـــة .. أعنى ، فى خيالى فقط !.. وهكذا تسنى لأحاسيسى المنسجمة مع طبعى الخجول وروحى الخيالية الشاعرية ، أن تصـــون مشاعرى نقية ، وأخلاقى خالصة مما يعاب ، وذلك بفضل نفس النزوات التى كانت خليقة ــ إذا ما اقترنت بقليل من النزق ــ بأن تزج بى إلى أبشع مسلك شهوى حيوانى !

بهذا أكون اجتزت أصعب الخطوات فى أظلم وأقذر الدروب فى اعترافاتى . وإنه لأيسر على المرء أن يعترف بالذنب ، منه بأن يقر بالنزق الذى يدعو إلى الخزى . ومن ثم فإنى واثق من أننى ــ بعد أن جرؤت على أن أقول ما قلت ــ لن أجفل من شىء . وفى وسع أى إنسان أن يقدر مدى ما كبدتنى هذه الاعترافات ، إذا علم أننى خلال حياتى كلها لم أجسر قط على أن أفضى بشىء من ضـــلالاتى لأولئك الذين أحببتهم بعاطفة هوجاء حرمتنى البصر والسمع ، وسلبتنى مداركى ، وجعلتنى أرتجف فى اختلاجات عنيفة .. فما استطعت يوما أن أحمل نفسى على أن أسأل امرأة أن تمنحنى النعمة المشتهاة دون كل النعم ، مهما كنت وثيق الصلة بها !.. أجل لم يحدث لى هذا سوى مرة واحدة ، وكان ذلك فى حداثتى ، ومع فتاة من سنى .. وحتى فى تلك المرة ، كانت الأنثى هى السباقة إلى العرض !

وإذ أرجع بالذاكرة إلى المعالم الأولى فى حياتى الداخلية ، أعثر على عوامل قد تبدو – فى بعض الأحيان – غير ذات بال ، ولكنها مع ذلك اتحدت لتنتج فى قوة اثرا بسيطا مهذبا .. كما أعثر على عوامل اخرى ، قد تبدو – فى ظاهرها – كسابقتها، ولكنها كونت اتحادات مختلفة عن تلك ، بفضل تعاون ظروف معينة ، دون أن يتصور المرء مطلقا أنها كانت مترابطة !.. فمثلا ، منذا الذى يعتقد أن نزعة من أقوى نزعات نفسى قد هذبت وذللت فى اعماقى النبع الذى فاض منه فى دمى سيل من الشهوة ومن التخنث ؟.. ولسوف ارسم على ضوء هذا الموضوع – ودون ان اخرج عن نطاقه – صورة اخرى مختلفة: فقد حدث ذات يوم ان كنت استذكر درسى فى عزلة فى الحجرة المجاورة للمطبخ ، وكانت الخادم قد وضعت أمشاط الآنسة لامبرسييه امام المدفأة لتجف . فلما جاءت لتستعيدها ، وجدت مشطا قد تحطمت جميع اسنانه .. فعلى من كان يقع اللوم ؟ لم يكن ثمة من دخل الحجرة سواى ! فلما سئلت ، انكرت أننى مسست الأمشاط ، فشرع السيد والآنسة لامبرسييه فى أخذى بالرفق ، ثم بالضغط ، ثم بالوعيد ، ولكننى أصررت على إنكارى فى عناد . على أن القرائن كانت جد قوية ، بحيث فاقت كل احتجاجاتى – برغم انها كانت المرة الأولى التى ظن فيها أننى اكذب بمثل هذه الجراة ! – فاعتبرت المسالة خطيرة، وكانت فى الواقع جديرة بذلك . وبدا الذنب ، والكذب ، والعناد ، خليقة كلها بان تتطلب العقاب ، ولكن العقوبة لم تنفذ بيد الآنسة لامبرسييه فى هذه المرة ، وإنما ارسل خطاب إلى خالى برنار ، فحضر واتهم ابن خالى المسكين بذنب آخر

خطير ، لا يقل عن ذنبى ، فحق عليه نفس العقاب ، وما كان افظعه !.. فلو انهم شاءوا أن يستخلصوا العلاج من الداء ، وان يقتلوا إلى الأبد احاسيسى المكبوتة ، لما فعلوا اكثر مما فعلوا فى هذه المناسبة ، فقد كفت مشاعرى الشهوية عن إزعاجى أمدا طويلا بعدها !

ذلك أنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا منى الاعتراف المنشود. ومع أننى مثلت بين ايديهم عدة مرات ، وتعرضت لمحاولات ارهقتنى إلى درجة خليقة بالرثاء ، إلا أننى لم اتزعزع عن موقفى . وكنت على استعداد لأن أصمد حتى الموت ، وقد عقدت عزمى بالفعل على ذلك ! واضطرت القوة إلى أن تتراجع أمام « العناد الشيطانى » الذى كان صادرا عن غلام صغير – كما وصفوا ثباتى – واخيرا نجوت بجلدى من هذه المحاكمة القاسية وانا محطم .. ولكننى كنت منتصرا ! ولقد انقضى حتى الآن خمسون عاما منذ وقع هذا الحادث – فلست اخشى ان أعاقب ثانية من أجله – ومن ثم فاننى أعلن على مشهد من السماء أننى كنت بريئا من الذنب ، واننى لم اكسر المشط او امسه ، ولا اقتربت من المدفأة ، بل ولا فكرت فى ذلك .. ولا جدوى من وراء سؤالى عن كيفية حدوث ما حدث ، فاننى لا ادرى ولا أستطيع ان ادرى .. كل الذى أعلمه عن يقين ، هو أننى لا شأن لى به !

* * *

ولكم ان تتصوروا شعور غلام خجول ، ومطيع فى حياته العادية ، ولكنه شديد الاعتزاز ، مفرط الكبرياء ، جامح

العواطف .. غلام لم ينقد قط إلا إلى صوت العقل ، ولم يعامل إلا بالرفق ، والانصاف ، والتقدير ، فليست لديه اية فكرة عن الظلم .. تصوروا غلاما كهذا يتعرف للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم ، وعلى أيدى اولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم اكثر من غيرهم !.. فيالها من صدمة خيبت آراءه ! ويا له من حادث اخل باتزان مشاعره ! ويا له من انقلاب الم بقلبه وعقله وكل كيانه الذهنى والمعنوى على صغره ! تصوروا هذا إن استطعتم !.. اما انا ، فإننى اعجز عن تبين أو تتبع اى اثر من الآثار التى خالجتنى من جرائه !.. ذلك انه لم يكن لى من الإدراك يومئذ ما يمكننى من ان ارى إلى اى مدى كانت الظواهر تقف ضدى ، ومن ان اضع نفسى فى موقف الآخرين. لقد صمدت فى موقفى ، فكان كل ما شعرت به يتمثل فى قسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم ارتكبه .. ولم احس بالألم الجسدى — برغم شدته — إلا قليلا ، وإنما كان كل شعورى ينحصر فى السخط ، والغضب ، والقنوط ..

وكذلك كان ابن خالى — الذى كانت حاله مشابهة لحالى ، والذى عوقب لخطأ صدر عن غير إرادته وكأنه كان عملا مدبرا متعمدا — فقد لاذ بسخط مثل سخطى ، وانساق إلى عين الانفعال الذى انسقت إليه . وإذ كنا ننام فى سرير واحد ، فقد احتضن كل منا الآخر فى ضمات تشنجية ، حتى شعرنا باننا نوشك ان نختنق . وعندما سرى عن قلبينا الصغيرين بعض الشىء — فى النهاية — بدأ القلبان ينفثان غلهما ، فاستوينا جالسين فى سريرنا ، ورحنا نصرخ بأعلى صوتنا ، مرات لا عداد لها : « ايها الجلاد !.. الجلاد !.. الجلاد ! ».

إننى لأشعر — إذ اكتب هذه الكلمات — بأن خفقات قلبى تتسارع ، فلسوف تظل ذكرى تلك اللحظات ماثلة أمامى ابدا ، ولو عشت مائة الف سنة !.. لقد ظل أول شعور لى بالعنف والظلم محفورا فى نفسى إلى درجة أن كل الأفكار المتصلة به تردنى دائما إلى الانفعالات الأولى التى خالجتنى .. وقد اشتد هذا الشعور ، الذى لا قيمة له فى جوهره إلا لدى انا وحدى ، اشتد فى حد ذاته ، واستقل عن كل تأثر أو ميل شخصى ، حتى أن قلبى ليكتوى حنقا كلما سمعت أو رأيت اى عمل من أعمال الظلم — مهما تكن فريسته أو اينما يرتكب — وكأنما ينصب تأثيره على انا .. وعندما اقرأ عن فظائع اى جبار طاغية ، أو منكرات اى قس لئيم ، فانني لا اتردد فى أن اغمد خنجرا فى قلب شقيين كهذين ، وأنا مسرور .. ولو قضى على بأن أعدم مائة مرة من اجل ذلك !.. وكثيرا ما انهكت نفسى — حتى يتفصد العرق منى — وانا اطارد ، أو أرمى بالأحجار ديكا أو بقرة أو كلبا ، أو اى حيوان اكون قد رأيته يعذب حيوانا آخر لمجرد شعوره بانه الأقوى !.. وقد تكون هذه النزعة طبيعية بالنسبة لى — وإنى لأعتقد انها كذلك ! — ولكن الأثر الذى خلفه الظلم الأول فى نفسى ظل طويلا مرتبطا بها بقوة بالغة ، إلى درجة لم يكن من الممكن معها الا يقوى ويشتد !

وبوقوع الحادث الذى رويته ، ولت طمأنينة طفولتى ووداعتها ، فكففت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية ، ولا أزال اشعر — إلى اليوم — بأن ذكرى مفاتن

طفولتى ، وقفت عند ذلك الحد ! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور فى (بوسى) ، غير اننا كنا هناك كما كان الإنسان الأول فيما يصورونه لنا : كنا فى جنة أرضية ، ولكنا لم نعد نستمتع بها ! صحيح ان حالنا ظلت فى ظاهرها على ما كانت عليه ، ولكنها كانت قد تغيرت فى جوهرها تغيرا تاما . فان التعلق ، والاحترام ، والمودة ، والثقة ، لم تعد تربط التلميذين برائديهما . ومن ثم فإنا لم نعد نعتبرهما من « الآلهة » ! لم نعد نعتبرهما إلهين قادرين على استطلاع قلبينا . ولهذا اصبحنا اقل من ذى قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء ، واكثر خوفا من أن نتعرض للاتهام .. وبدأنا نفقد سذاجتنا ، وطاعتنا ، وشرعنا نلجأ إلى الكذب .. وقوضت كل رذائل السن التى كنا نجتازها ، براءتنا ، والقت على موارد تسليتنا قناعا قبيحا ! بل إن الريف ذاته فقد فى نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فاتنتين تتغلغلان فى القلب ، واصبح يلوح لنا موحشا كئيبا . أصبح يبدو وكأنه استتر وراء قناع حجب جماله عن أعيننا . فكففنا عن فلاحة حوضينا فى الحديقة ، وعن غرس نباتاتنا وزهورنا .. ولم نعد نفلح الأرض فى رفق ونصيح فرحا حين نرى البذرة التى غرسناها قد بدات تشق وجه الأرض . أصبحنا نكره الحياة ، واصبح الغير يكرهوننا ، ومن ثم اصطحبنا خالى معه ، فافترقنا عن السيد والآنسة لامبرسييه وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر ، فلم نأسف على الفراق إلا قليلا !.. بل لقد مكثت حوالى ثلاثين عاما بعد مغادرة (بوسى) دون أن استعيد فترة إقامتى بها مصحوبة بأى سرور أو ذكريات !

اما الآن ــ وقد تجاوزت شرخ العمر ، واخذت أدنو من الشيخوخة ــ فاننى أشعر بهذه الذكريات بالذات تقفز إلى بالى ، بينما يتوارى سواها .. إنها لتنطبع على صفحة ذاكرتى بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يوما بعد يوم ، وكأننى ــ إذ اشعر بالحياة وقد بدأت تتسلل منى ــ أحاول أن أمسك بناصيتها ، فاغتبط بأتفه أحداث ذلك العهد ، لا لشىء إلا لأنها تنتمى إلى تلك الفترة من حياتى !.. واكاد ابصر الخادمة أو الخادم منهمكا فى تنسيق الغرفة ، أو عصفورا يمرق خلال النافذة ، او ذبابة تحط على يدى وانا أتلو ما استذكرت من دروسى .. بل إننى لأتمثل الغرفة التى اعتدنا أن نقيم فيها بكل تفصيلاتها .. وإلى يمينها غرفة مكتب السيد لامبرسييه ، ولوحة نحاسية نقشت عليها رسوم كل البابوات ، و «بارومتر» ، وتقويم (نتيجة حائط) كبير معلق على الجدار ، وأشجار الخداش[1] الكثيفة ــ التى كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة ــ تواجه مؤخرة الدار ، ومن ثم فانها كانت تنشر ظلالها على النافذة ، وقد تقتحمها احيانا !.. وانى لأدرك أن القارىء غير راغب فى الإلمام بكل هذا ، ولكنى مسوق إلى أن اقصه عليه ، فلماذا لا تواتينى الجرأة على أن أروى له كذلك كل الحكايات التافهة التى وقعت فى ذلك العهد السعيد ، والتى تهزنى نشوة حين اتذكرها ؟

---

(١) « الخداش » نبات متسلق ذو ثمار حمراء ، يشبه العليق .



إننى لأتوق إلى أن أروى خمسا أو ستا منها ، بوجه خاص .. ولكن ، لنجعلها صفقة بيننا ! سأنزل عن خمس منها ، بيد أننى راغب فى أن أروى لك السادسة ، على شريطة أن تسمح لى بأن أرويها بكل تفصيل ممكن ، لكى أطيل فى اغتباطى !.. ولو أننى اقتصرت على ما فيه فكاهة لك ، لاخترت لك قصة سقوط الآنسة لامبرسييه فى المرج ، وانكشاف ظهرها ـ أو عجزها على الأصح ـ لسوء حظها ، حتى لقد بان بأكمله لملك (سردينيا) الذى تصادف مروره فى تلك الفترة !.. ولكن قصة شجرة الجوز المطلة على الشرفة ، أكثر إمتاعا لى ، إذ قمت فيها بدور ـ فى حين كنت مجرد متفرج فى قصة السقوط فى المرج ! ـ كما أعترف بأننى لا أجد ما يدعو قط إلى الضحك فى حادث أثار ـ برغم طرافته ـ خوفى على سلامة شخص كنت أحبه . فقد كنت أحب الآنسة لامبرسييه كأم ، بل أكثر من أم !

والآن ، انصتوا أيها المتشوقون إلى حكاية شجرة الجوز المطلة على الشرفة .. انصتوا إلى المأساة الرهيبة ، وحاولوا أن تتفادوا الارتجاف إن استطعتم !.. ففى خارج باب فناء البيت ، كانت تقوم إلى يسار المدخل شرفة اعتدنا أن نجلس فيها فيما بين الظهيرة والأصيل . ولما كانت فى غير وقاء من الشمس مطلقا ، فقد أمر السيد لامبرسييه بإقامة شجرة جوز هناك ، وتمت عملية غرسها فى أكثر مظاهر الاحتفال جلالا ، إذ اختير نزيلا الدار ـ أنا وابن خالى ـ اشبينين للشجرة ! وبينما كان التراب ينهال فى الثغرة التى أقيمت فيها الشجرة ، أسند كل منا الشجرة بإحدى يديه ، ورحنا نردد

أناشيد الانتصار والفوز !.. ولرى الشجرة ، أنشىء حول أسفل جذعها ما يشبه الحوض . وإذ رحت وابن خالى نرقب ريها كل يوم بشغف ، اشتد بنا الاقتناع ـ بطبيعة الحال ـ بأن من المستحسن غرس شجرة أخرى فى الشرفة ذاتها ، فإن هذا أفضل من أن ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات .

وعقدنا العزم على أن نستأثر بما فى هذا العمل من فضل ، فلا نشرك معنا أحدا .. ولهذا بادرنا فقطعنا غصنا من صفصافة ، وغرسناه فى الشرفة ، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أقدام من شجرة الجوز الضخمة . ولم ننس أن نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التى حفرت حول الشجرة الأخرى ، ولكن الصعوبة تمثلت فى ابتكار طريقة لملء القناة بالماء ، إذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة ، ولم يكن مباحا لنا أن نهرع لاجتلابه .. ومع ذلك فلم يكن ثمة غنى عن اجتلاب قدر منه لصفصافتنا . وقضينا بضعة أيام نجرب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء ، حتى نجحنا إلى درجة دبت عندها الحياة فى الشجرة ، فنبتت عليها أوراق صغيرة . واقنعنا نموها ـ الذى كنا نحسبه ونقيسه فى كل ساعة ـ بأنها لن تلبث أن تفىء علينا ظلالا ، برغم أن طولها لم يكن قد تجاوز قدما واحدة !.. وإذ استأثرت شجرتنا بكل اهتمامنا حتى أننا لم نعد قادرين على تلقى أو استذكار أى درس ، وأصبحنا فى غشية حجبت عن عقولنا كل شىء آخر .. وإذ شد رائدانا قبضتيهما علينا ، وهما لا يدريان ما ألم بنا ،

رأينا أن اللحظة الحاسمة التى لن نجد فيها ماء لشجرتنا وشيكة الحلول ، فطارت نفسانا شعاعا لمجرد التفكير فى رؤية الشجرة تذوى من العطش . . وأخيرا ، أوحت لنا الحاجة ـ وهى أم الاختراع ـ وبطريقة تجنبنا الأسى ، وتجنب الشجرة الهلاك المؤكد ، وذلك بأن نحفر قناة تحت سطح الأرض ، تسرب إلى صفصافتنا ـ خفية ـ قسطا من الماء الموجه إلى شجرة الجوز ! . . على أن المشروع فشل فى البداية ، برغم الحماس الذى اكتنف تنفيذه . فقد حفر النفق بطريقة بدائية ، فلم يجر الماء فيه مطلقا ، إذ انهار التراب وسد القناة ، وامتلأ المدخل بالطين ، وتلف كل شىء ! ولكن شيئا من هذا لم يثبط من عزمنا ، فإن الدأب يقهر الصعاب جميعا ، ومن ثم زدنا المجرى عمقا لنمكن الماء من الجريان ، كما قطعنا قيعان بعض الصناديق إلى شرائح صغيرة ضيقة ، بسط بعضها على القاع ـ شريحة إثر شريحة ـ وأقيمت الباقية على الجانبين بميل أقام قناة مثلثة الشكل . ثم غرسنا بضع قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل ، فكانت أشبه بحاجز أو مصفاة تصد الوحل والأحجار دون أن تمنع انسياب الماء . . ثم غطينا مجراتنا بتراب دسناه فى حذر وعناية حتى سويناه مع سطح الأرض . وإذ انتهى كل شىء ، شرعنا ننتظر ـ ونحن فى أشد الانفعال من جراء الأمل والخوف ـ موعد الرى . . وحانت الساعة أخيرا ، بعد انتظار خلناه استغرق قرونا ، فجاء السيد لامبرسييه ليعاون فى العملية كالمعتاد ، بينما حرصنا نحن على أن نكون خلفه لكى نحجب شجرتنا ، التى كان ـ لحسن الحظ ـ يوليها ظهره !

وما أن سكب أول دلو من الماء ، حتى رأينا بعضه يجرى إلى قناتنا ، وعند هذا المنظر فارقنا تعقلنا ، فبدأنا نطلق صيحات ابتهاج حملت السيد لامبرسييه على أن يلتفت ، وكانت هذه هى الطامة ، فقد تولاه اهتمام ضاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التى قامت فيها شجرة الجوز من جودة ، وكيف ابتلعت الماء بشراهة . وإذ دهش لرؤيته الماء ينساب موزعا بين حوضين ، صاح بدوره ، وأنعم النظر ، فتبين الحيلة ! وإذ ذاك أمر بإحضار معول ، وكسر بضربة واحدة شريحتين أو ثلاثا من خشبنا ، ثم صرخ بصوت جهورى : « قناة ! قناة ! » ، وراح يكيل الضربات فى كل اتجاه ، دون ما رحمة ، فكأنما كانت كل منها تصيب قلبينا مباشرة ! وإن هى إلا لحظات حتى كانت شرائحنا الخشبية ، وقناتنا ، ومجراها ، والصفصافة ، وكل شىء ، قد تقوض واجتث من مكانه ، دون أن ينبس القس خلال هذا العمل التدميرى بكلمة ، اللهم إلا ذلك التعجب الذى راح يكرره دون توقف : « قناة ! » . . وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شىء : « قناة ! قناة ! » . ومن الطبيعى أن يخطر بالبال أن المغامرة انتهت أسوأ نهاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين ، ولكن هذا الحدس خاطىء ، فقد انقضى ذكرها بانتهاء الهدم ، ولم ينبس السيد لامبرسييه قط بكلمة لوم ، أو ينظر إلينا فى استياء ، كما أنه لم يشر إليها بشىء مطلقا . بل إننا لم نلبث أن سمعناه بعد قليل يقهقه مع أخته ، فقد كانت قهقهته تسمع عن بعد . . على أن الأكثر مدعاة للدهشة هو أننا ـ بعد أن زايلنا الخوف الأول ـ لم نشعر بأى انزعاج أو ضيق ، بل إننا غرسنا شجرة ثانية فى

بقعة أخرى ، وكثيرا ما كنا نذكر نفسينا بالنكبة التى انقضت على محاولتنا الأولى ، بان رحنا نردد فى لهجة ذات معنى : « قناة ! قناة ! » .. وكانت تواتينى — حتى ذلك الوقت — نوبات من الزهو ، بين آن وآخر ، إذ أخال نفسى مثل « اريستديس » أو « بروتس » أو غيرهما من أبطال التاريخ ، ولكن هذه النوبات لم تلبث ان زايلتنى إذ شعرت بأول نبضات الغرور واضحة ملموسة .. فقد لاح لى ان إنشاءنا قناة بأيدينا ، وغرسنا فرعا من شجرة لنتحدى به دوحة ضخمة ، كان عملا يرقى إلى ذروة المجد !.. وهكذا كنت — وانا فى العاشرة من عمرى — اقدر على تمييز المجد من « قيصر » حين كان فى الثلاثين !

وقد ظلت شجرة الجوز هذه ، والقصة الصغيرة المتعلقة بها ، حيتين فى ذاكرتى ، او انهما عادتا إليها بعد حين ، حتى لقد كان من المشروعات التى وفرت لى سرورا عظيما — خلال رحلتى إلى جنيف ، فى سنة ١٧٥٤ — ان قررت الذهاب إلى (بوسى) وزيارة مراتع صباى ، وفى مقدمتها جميعا « شجرة الجوز » التى كان عمرها فى ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن !.. ولكنى شغلت طيلة فترة وجودى هناك ، ولم يكن لى كثير سلطان على نفسى ، فلم اجد لحظة ارضى فيها هذه الرغبة . وليس ثمة احتمال يذكر فى ان تسنح لى هذه الفرصة مرة أخرى ، ومع ذلك فان الرغبة لم تتلاش بتبدد الأمل فى تحقيقها ، بل اكاد أوقن من اننى إذا قدر لى ان اعود إلى تلك البقاع

الحبيبة ، وأن اجد شجرة الجوز العزيزة قائمة على قيد الحياة ، فلن أحجم عن ان ارويها بدموعى !

* * *

وبعد عودتى إلى جنيف ، اقمت مع خالى عامين أو ثلاثة ، ريثما يقرر أصدقائى ما ينبغى ان يتم بشأنى . ولما كان خالى قد اراد ابنه على ان يكون مهندسا ، فقد حمله على ان يتلقى شيئا عن الرسم ، كما علمه مبادىء «يوكليد»(١) ، فاستذكرت هذه المواد معه ، وتولانى ميل إليها ، وإلى الرسم بوجه خاص. وفى تلك الاثناء ، كان الجدل يدور حول ما إذا كان يخلق بى ان أصبح صانع ساعات ، أو من رجال القانون ، أو قسا واعظا !.. وكان ميلى يتجه إلى تفضيل الاحتمال الأخير منها ، إذ كان الوعظ يبدو لى أمرا بديعا ، بيد أن الدخل الضئيل الذى كان يدره عقار أمى — والذى كان يجب أن يقسم بينى وبين اخى — لم يكن كافيا لأن يمكننى من متابعة دراساتى . ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار ، نظرا لسنى فى تلك الفترة ، ولذلك مكثت مؤقتا مع خالى ، دون أن أفيد كثيرا من وقتى ، ودون ان ادفع مبلغا يذكر لقاء نفقات إقامتى ، كما كان الانصاف يقتضى .. أما خالى ، فمع أنه كان محبا للهو مثل أبى ، إلا أنه كان عاجزا عن أن يكون مثله فى تقيده بالواجب ،

---

(١) كان « يوكليد » عالما رياضيا عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد وضع أصولا — أو مبادىء — للعلوم الرياضية فى ١٣ مجلدا ، خص الهندسة منها بتسعة مجلدات .

كما أنه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من اجلنا . وكانت عمتى
تعتبر من المنصرفات للتقوى — بحيث كانت تؤثر أن تنشد
المزامير على أن تعنى بتعليمنا ! — ومن ثم فقد اتيحت لنا حرية
كادت أن تكون مطلقة ، ولكنا لم نسىء استغلالها قط ، فكنا
دائما قانعين بصحبتنا أحدنا للآخر ، إذ لم نكن نفترق قط ،
كما أننا لم نتعرض لمغريات تحملنا على أن نتخذ من أندادنا من
أبناء الشارع رفاقا ، فلم نتعلم شيئا من العادات المنحلة التى
كان التبطل خليقا بأن يقودنا إليها .. بل إننى لأخطىء إذ اقول
إننا كنا متبطلين ، فاننا لم ننحط قط إلى هذا الدرك فى حياتنا ،
وكان من اعظم ما حبانا به الحظ ان كل الطرق التى كنا ننتهجها
لتسلية نفسينا ، والتى شغفنا بها على التوالى ، كانت تشغلنا
معا فى البيت ، دون أن ننساق لغواية الخروج إلى عرض
الطريق .. فكنا نصنع اقفاصا ، وصافرات « الناى » ،
وخذاريف (النحلات التى يلعب بها الأطفال) ، وطبولا ،
وبيوتا ، وقاذفات للحصى (أو مقاليع) ، واقواسا للرماية .
ولقد اتلفنا ادوات جدنا فى محاولاتنا ان نصنع ساعات ، كما
كان يصنع هو !.. وكان لنا مزاج خاص فى الاسراف فى نماذج
الورق ، وفى الرسم ، واستخدام الألوان المائية ، وتوزيع
الأضواء ، وإفساد الألوان . ولقد وفد على جنيف صاحب
مسرح إيطالى يدعى «جامبا - كورتا» ، فذهبنا لمشاهدة عرضه
مرة ، لم نرغب بعدها فى الذهاب مرة اخرى !.. ولكنه قدم
فيما قدم عرضا للدمى (على غرار خيال الظل) ، فشرعنا
نصنع دمى .. ولما كانت عرائسه تمثل فكاهات ، فقد عكفنا

على إعداد مسرحيات فكهة من وضعنا . ولما كانت تعوزنا
الأداة التى تصدر ذلك الصوت المصوصو المصرصع ، فقد
عمدنا إلى تقليده بأصوات نصدرها من حلقينا ، لكى نخرج
مسرحياتنا الفكهة البديعة ، التى تذرع أقاربنا المساكين
المتفضلون بالصبر كى يجلسوا وينصتوا إليها ! ولكن خالى
برنار قرأ على الأسرة ذات يوم موعظة بديعة من تأليفه ، فاذا
بنا نهجر المسرحيات الفكهة لنؤلف المواعظ !

وانى لأعترف بأن هذه التفصيلات ليست مشوقة جدا ،
ولكنها تبين كيف أن تربيتنا الأولى كانت موجهة خير توجيه ،
كما يبدو من اننا ندر أن انسقنا إلى اساءة استغلال الفرص
التى كانت متاحة لنا ، برغم أننا كنا سيدى نفسينا وصاحبى
السيطرة على وقتنا ، فى تلك السن المبكرة !.. ذلك لأننا لم
نكن بحاجة تذكر إلى أن ننشد رفاقا وزملاء ، حتى اننا كنا
نهمل الفرص التى تقود إلى ذلك . فكنا إذا خرجنا للتريض ،
نظرنا ، ونحن نمر بأندادنا فى السن ، إلى وسائل لهوهم ،
دون ما ادنى رغبة ، بل دون مجرد التفكير فى أن نشاركهم
اياها . كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلبينا تمام الملء ، حتى لقد
كان يكفينا ان نجتمع معا ، كى نجعل من ابسط اسباب التسلية
ملهاة سارة !.. وما لبثنا ان استرعينا الانتباه بتلازمنا هذا ،
وعدم افتراقنا ، سيما وأن ابن خالى كان فارع الطول ، بينما
كنت انا جد قصير ، فكنا نؤلف ثنائيا غريب التكوين !.. كان
قوام ابن خالى الطويل النحيل ، ووجهه الصغير الشبيه
بالتفاحة المسلوقة ، واخلاقه الرقيقة ، ومشيته الهينة

المتخطرة ، تستثير سخف الأطفال ، فكان يسمى فى ساحة الحى « بارنا بريدانا ! » ، وكنا حين نغادر البيت لا نسمع سوى صيحة « بارنا بريدانا ! » تحف بنا . وقد احتمل هو ذلك بهدوء فاق هدوئى ، إذ كنت افقد جلدى ، وابدى الرغبة فى العراك ، وهذا عين ما كان ينشده الأوغاد الصغار . وقدر لى أن اتشاجر مرة ، فمنيت بالهزيمة . وحاول ابن خالى المسكين أن يساعدنى ما استطاع ، ولكنه كان ضعيفا ، فصرعته لكمة واحدة ، وإذ ذاك اشتد هياجى . على اننى — وإن تلقيت لكمات وافرة — لم اكن الهدف الحقيقى للعدوان ، وإنما كان « بارنا بريدانا » هو الهدف .. وما لبث غيظى المستعر أن زاد من استفحال الموقف ، حتى اننا لم نعد نجرؤ على الخروج من الدار — فيما بعد — إلا فى أويقات المدرسة ، خشية أن يتعقبنا الأطفال ليسخروا منا !

الا ترون إذن اننى اقمت من نفسى ماحيا للمظالم !.. ولكى اصبح « بالادين »(١) حقا ، كنت فى حاجة إلى سيدة ، ولكننى أوتيت اثنتين ! فلقد اعتدت ان اذهب — بين وقت وآخر — لزيارة ابى فى (نيون) ، وهى بلدة صغيرة فى إقليم (فود) ، استقر به المقام فيها . وقد حظى بحب القوم هناك ، وقدر لابنه أن يشعر بآثار ذلك ، ففى الفترة القصيرة التى كنت امكثها معه ، كان الأصدقاء يتبارون فى الاحتفاء بى . وقد آثرتنى سيدة منهم — كانت تدعى السيدة « دى فيلسون »

(١) رمز للبطل الذى يدافع عن الحق ويدفع الجور عن المظلومين .

— بألف قبلة ، ثم توجت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتنى ابنتها عشيقا لها !.. ومن الميسور أن تفهموا معنى « العشيق » هنا إذا تذكرتم أننى كنت فى الحادية عشرة من عمرى ، فى حين أن الفتاة كانت فى الثانية والعشرين !.. ولكن هؤلاء الشابات الخبيثات — جميعا ! — لم يكن يتورعن قط عن أن يلعبن أمام الملأ بدمى صغيرة — مثلى — لكى يسترن وراءها عشاقا كبارا ، أو لكى يغوين بها هؤلاء الكبار !.. أما أنا ، فلم أر شيئا من عدم التكافؤ بيننا ، فحملت المسألة على محمل الجد ، وانغمست بكل قلبى — أو بالحرى بكل رأسى — إذ أننى لم اقبل على الحب إلا بذلك الجزء من نفسى ، فتماديت إلى درجة الجنون ، وكان طربى وانفعالى وخبالى تؤدى إلى مناظر كافية لأن تجعل اى فرد لا يتمالك نفسه من الضحك حتى ينشق جنباه !

ولقد الفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف ، فلا يكاد يكون بينهما اى تشابه ، وإن كان كل منهما حارا مشبوبا ، كما انهما يختلفان — كلاهما — عن الصداقة العاطفية .. بل إن عمرى كله كان موزعا بين هذين النوعين من الحب ، برغم اختلافهما الجوهرى ، فاعتدت أن اشعر بهما معا ، وفى آن واحد .. مثال ذلك أننى فى الفترة التى اتحدث عنها ، وفى الوقت الذى كنت فيه مغرما بالآنسة « دى فيلسون » جهارا وفى انانية طاغية — حتى أننى لم اكن اطيق أن يقترب منها اى رجل ! — فى تلك الاثناء بالذات ، حظيت عدة مرات بلقاءات قصيرة ولكنها حافلة ، مع فتاة

معينة ـ تدعى الآنسة « جوتون » ـ فكانت تعمد خلال تلك اللقاءات إلى القيام بدور المعلمة ! وكان هذا غاية الأمر . ولكن « غاية الأمر » هذه ـ وكانت هى « الغاية » فعلا ، بالنسبة لى ـ بدت فى نظرى منتهى السعادة .. وإذ شعرت بقيمة الغموض ، وإن لم اكن أدرى كيف استغله اللهم إلا فى نطاق حيل الطفولة ، رحت اكيل بنفس الكيل للآنسة «دى فيلسون» ـ التى لم ترتب فى الأمر ـ جزاء دأبها على استغلالى كستار لإخفاء عشاق آخرين ! بيد أن سرى لم يلبث ان تكشف ـ ويا لعظم أسفى ! ـ او أنه لم يحظ من معلمتى الصغيرة بمثل ما كنت أحيطه به من كتمان ، ومن ثم فسرعان ما افترقنا .. وحدث بينما كنت اجتاز (كوتانس) ، فى طريقى إلى (جنيف) ـ بعد ذلك بوقت قصير ـ أن سمعت بعض فتيات صغيرات يهتفن متهامسات : « جوتون تيك ـ تاك روسو » !

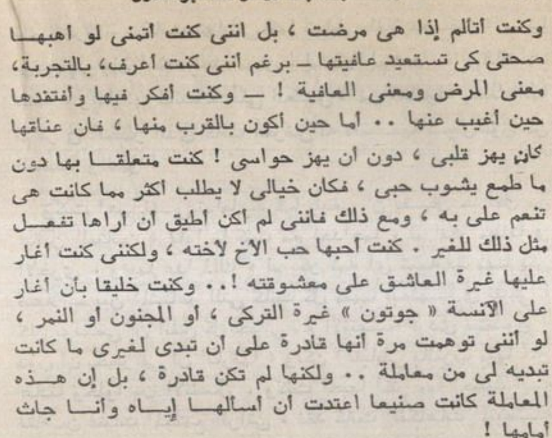
ولقد كانت هذه الآنسة « جوتون » الصغيرة فتاة فذة .. فمع أنها لم تكن جميلة ، إلا انها أوتيت وجها لا يسهل نسيانه ، ولا ازال اتمثله فى مخيلتى فى كثير من الأحيان ، فى حنان لا يليق بشيخ ارعن !.. وما كان شكلها ، ولا اخلاقها ، ولا عيناها ـ قبل كل شىء ـ بالتى تتناسب مع سنها . وكان لها مظهر أشم ، متسلط ، يتفق كل الاتفاق مع دورها ، كمعلمة ، بل إن مظهرها هذا هو الذى اوحى إلينا ـ فى الواقع ـ بأول تفكير فى هذا الدور .. ولكن أغرب ما كان فيها ، هو امتزاج بين الرعونة والتحفظ ، لم يكن من الهين إدراك مأتاه .. كانت تتصرف معى بكل حريتها ، ولكنها ابدا لم تسمح لى بأن اعاملها

بأى تحرر .. كانت تعاملنى كما تعامل طفلا فحسب ، مما يوحى إلى بأن أعتقد أحد أمرين : إما أنها لم تعد ـ إذ ذاك ـ طفلة ، وإما انها كانت ـ على العكس ـ من الطفولة بحيث أنها لم تر فى الخطر الذى كانت تعرض له نفسها سوى لون من التسلية واللهو !

وكنت أهب نفسى تماما ـ كما ينبغى أن يقال ـ لكل من هاتين الفتاتين ، فاذا ما كنت مع إحداهما ، لم افكر مطلقا فى الأخرى . وفيما عدا ذلك ، لم يكن ثمة أى شبه ـ مهما يكن ضيلا ـ بين المشاعر التى كانت كل منهما تبعثها فى نفسى ! كان بوسعى أن انفق كل حياتى مع الآنسة « دى فيلسون » دون أن يخطر لى أن افارقها ، ولكن اغتباطى بالقرب منها كان هادئا وخلوا من الانفعال . وكنت أحبها أكثر مما احببت أية فتاة من فتيات المجتمع الراقى ، فقد كانت الفكاهات المنبعثة عن ذكاء لماح ، والمجون المستظرف ، وما كانت تبديه من مظاهر الغيرة العابرة ، تستهوينى وتستأثر بشغفى . وكنت أشعر بزهو وغرور لما كانت تضفيه على من مظاهر الإيثار أمام المزاحمين الكبار الذين كانت تعاملهم فى ازدراء !.. وكنت اتعذب ، ولكننى احببت العذاب !.. وكان التصفيق ، والتشجيع ، والضحك ، تبعث الثقة والإلهام فى نفسى .. وكانت تنتابنى نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفثىء فى فكاهات جريئة .. كان الحب يحيلنى شخصا آخر ، فى المجتمعات .. اما فى الخلوات ، فكنت محرجا ، فاترا ، بل لعلنى كنت ضيق الصدر . ومع ذلك فاننى كنت أشعر بعاطفة صادقة نحوها .

وكنت اتألم إذا هى مرضت ، بل اننى كنت أتمنى لو اهبها صحتى كى تستعيد عافيتها ـ برغم أننى كنت أعرف، بالتجربة، معنى المرض ومعنى العافية ! ـ وكنت أفكر فيها وافتقدها حين أغيب عنها .. اما حين أكون بالقرب منها ، فان عناقها كان يهز قلبى ، دون ان يهز حواسى ! كنت متعلقا بها دون ما طمع يشوب حبى ، فكان خيالى لا يطلب اكثر مما كانت هى تنعم على به ، ومع ذلك فاننى لم اكن اطيق ان اراها تفعل مثل ذلك للغير . كنت احبها حب الأخ لأخته ، ولكننى كنت اغار عليها غيرة العاشق على معشوقته !.. وكنت خليقا بأن اغار على الآنسة « جوتون » غيرة التركى ، أو المجنون أو النمر ، لو اننى توهمت مرة أنها قادرة على أن تبدى لغيرى ما كانت تبديه لى من معاملة .. ولكنها لم تكن قادرة ، بل إن هذه المعاملة كانت صنيعا اعتدت أن اسألها إياه وأنا جاث أمامها !

كنت أسعى إلى الآنسة « دى فيلسون » بفرح طاغ ، ولكن دون ما انفعال ، فى حين اننى كنت لا أكاد أرى الآنسة « جوتون » حتى تنبهر حواسى ، فلا أعود أرى سواها !.. كنت آلف الأولى دون ما كلفة ، بينما كنت فى حضرة الثانية على النقيض خجولا بقدر ما كنت منفعلا ، حتى فى أقصى درجات الفتنا . وأعتقد أننى كنت خليقا بأن أموت لو اننى مكثت معها طويلا ، فان خفقات قلبى كانت كفيلة بأن تخنق انفاسى !.. وكنت اخشى أن تستاء منى الاثنتان على السواء ، ولكنى كنت اغمر الأولى بمزيد من حفاوتى ، وأبدى للثانية مزيدا من



فى حين اننى كنت لا أكاد أرى الآنســة «جوتون» حتى تنبهر حواسى ، فلا أعـود ارى سـواها !..

خضوعى، فما كان لأى شىء فى الدنيا ان يحملنى على أن اغضب الآنسة « دى فيلسون » ، اما إذا امرتنى الآنسة « جوتون » بان القى بنفسى فى اللهب ، فاعتقد أننى كنت قمينا بان اطيعها فى الحال !.. ولم يستمر حبى ــ أو بالحرى لقاءاتى ــ للأخيرة سوى وقت قصير . قصير بالنسبة لسعادة كل منا ! ومع أن علاقاتى بالآنسة « دى فيلسون » لم تكن فى خطورة علاقاتى بالأخرى ، إلا انها لم تخل من الخطر ، بعد ان استمرت امدا أطول . وجدير بجميع العلاقات التى على هذه الشاكلة ان تنتهى دائما بطريقة شاعرية ، وأن تصبح مادة لزفرات الأسى. ومع أن صلتى بالآنسة دى فيلسون كانت اقل شدة واضطراما من علاقتى بالآنسة جوتون ، إلا أنها كانت اكثر توثقا ومتانة ، فلم نفترق قط دون دموع ، وكان من الخليق بالعجب حقا ، ذلك الفراغ المحير الذى كنت اشعر باننى اتردى فيه بمجرد أن كنت افارقها !.. فما كنت اتحدث أو افكر فى سواها ، وكان اساى صادقا ومحتدما ، ولكنى اعتقد ان هذا الأسى المنطوى على البطولة لم يكن ــ فى قراره ــ من اجل الفتاة نفسها ، وإنما كان للمتع التى اعتدت ان انعم بها فى قرب الفتاة ، دور فى خلقه ، وإن لم افطن إذ ذاك !.. ولقد اعتدنا ـ لتخفف لوعات البعاد ـ أن نتراسل بخطابات كنا نضمنها من الشجون ما يذيب قلب الصخر !

وظفرت فى النهاية ، إذ أن الفتاة لم تستطع ان تمضى فى التجلد ، فجاءت إلى (جنيف) لترانى . وفى هذه المرة ، فقدت حجاى تماما ، فكنت منتشيا ، مجنونا ، اثناء اليومين اللذين

مكثتهما . فلما رحلت ، رغبت فى أن القى بنفسى فى الماء وراءها ، وتردد صراخى فى الهواء !.. وبعد ثمانية أيام ، ارسلت لى بعض الحلوى وقفازين . وكنت خليقا بأن اعتبر هذا مجاملة عظيمة لولا أننى علمت ــ فى الوقت ذاته ــ أنها تزوجت ، وأن الزيارة التى راق لها ان تشرفنى بها إنما دبرت فى الواقع من اجل شراء ثوب الزفاف !.. ولن احاول أن اصف حنقى ، ففى الوسع تصوره !.. واقسمت ــ فى غضبى السامى ــ الا ارى « الغادرة » مرة أخرى ، إذ لم اكن لأتصور عقابا اكثر قسوة عليها من هذا !.. ولكنها لم تمت من قسوتى ، إذ حدث ــ بعد عشرين عاما ــ بينما كنت أتنزه مع ابى فى النهر ، أثناء إحدى زياراتى له ، ان سألته عن سيدتين كانتا فى قارب على غير مبعدة منا ، فهتف أبى مبتسما : « عجبا ! الا ينبئك قلبك ؟.. انها حبيبتك القديمة ، التى كانت الآنسة دى فيلسون ، واصبحت السيدة كريستان ! » .. واجفلت إذ سمعت الاسم الذى كاد يصبح منسيا ، وسألت النوتيين ان يحولا اتجاه قاربنا ، فمع أن الفرصة كانت سانحة ــ فى تلك اللحظة ــ لكى اثأر لنفسى ، إلا أننى لم أر اية قيمة لأن اعاتب امرأة فى الأربعين ، وأن اجدد خصاما مضى عليه عشرون عاما !

٣ ــ من سنة ١٧٢٣ إلى سنة ١٧٢٨

وهكذا بددت اغلى فترات صباى فى الحماقات ، قبل أن يستقر الرأى على مهنتى المقبلة . وبعد جدل طويل بشأن ميولى الطبيعية ، انعقد العزم على مهنة لم اكن لها

سوى أقل ميل . فقد عهـد بى إلى السيد « ماسيرون » ــ كاتب البلدة ــ لأتعلم على يديه مهنة المحاماة النافعة !.. وكان مجرد الاسم الدارج لهذه المهنة ـ « مغتصب الأجر » ـ بغيضا لدى غاية البغض ، ولم يستهونى الأمل فى كسـب عدد من « الكراونات »(١) من مهنة « وضيعة » كهذه !.. بل إن العمل ذاته بدا لى مملا لا يطاق ، فان المطالبة المستمرة ، والشعور بالعبودية اتما كراهيتى ، فما ولجت المكتب مرة دون ان اشعر بنفور أخذ يزداد حدة يوما بعد يوم ! كذلك كان السيد ماسيرون من ناحيته ضيقا بى ، فكان يعاملنى بازدراء ، ولا يفتأ يرمينى بالغباء والبلادة ، ويردد على أذنى كل يوم ان خالى انباه باننى على قسط من المعرفـة ، فى حين أننى كنت ــ فى الواقع ــ لا اعرف شيئا !.. وانه بشره باننى فتى ذكى ، فى حين انه ابتلاه بجحش !.. وفصلت أخيرا من المكتب ، موصوما باننى غير كفء مطلقا ، وصرح معاونو السيد ماسيرون باننى لم اكن اصلح لشىء سوى نقل الملفات !

وإذ انتهى الأمر فى تقرير مهنتى على هذه الصورة ، ارسلت لأتعلم حرفة .. لا لدى « ساعاتى » ، وإنما لدى احد الناقشين على المعادن(٢) . وكان الصـغار الذى عاملنى به السـيد ماسيرون قد اذل نفسى كثيرا ، فأطعت بدون تذمر . وكان معلمى الجديد ــ السيد ديكومين ــ شابا فظا ، قاسيا أفلح

(١) « الكراون » عملة تعادل ثلاثة فرنكات .

(٢) حفار يصنع الأختام و « الميداليات » بالحفر على المعادن .

فى أمد وجيز فى إطفاء كل ما كان لى فى طفولتى من ذكاء ، وفى تخدير طبيعتى الودود النشيطة ، وفى الهبوط بى إلى مرتبـة « صبى الصانع » فعـلا ، سواء فى العقل أو فى المركز !.. وقدر لما كنت قد حصلته من اللاتينية والتاريخ ، ولما عرفته عن الاقدمين وآثارهم ، أن ينسى امدا طويلا .. بل إننى لم أعـد أذكر أن قد كان فى الدنيا أى من الرومان ! ولم يعد أبى يرى فى ــ حين ذهبت لزيارته ــ معبوده القديم .. كما أننى لم أعد . فى نظر السيدات ، « جان جاك » الكيس المقرب إلى قلوبهن . وايقنت انا نفسى ، من ان الأخوين لامبرسييه ما كانا ليعرفان فى شخصى تلميذهما القديم، حتى اننى خجلت من أن أزورهما ، فلم ارهما منذ ذلك الحين . وحلت أرذل الميول واحط مفاسد السوقة محل اسباب التسلية الساذجة ، بل إنهـا محت كل ذكرى لها ! ولابد أننى كنت قد أوتيت استـعدادا عظيمـا للانحدار ــ برغم أننى حظيت بنشأة أعظم ما تكون استقامة ــ ذلك لأن الانقلاب أصابنى بسرعة عظيمة ، دون اتفه عسر ، فما قدر قط « القيصر » مبكر النضوج أن أصبح « لاريدون » بمثل هذه السرعة !(١)

ولم تكن الحرفة ـ فى حد ذاتها ـ هى التى لم تصادف هوى من نفسى ، إذ كان لدى ميل اكيد للرسم ، وقـد لذ لى العمل

(١) استعير هذا الاسم من « لافونتين » الذى أطلقه على الكلاب المنحطة ، فى اسطورة بعنوان : « التربية » ، اذ قـال : « أواه ! كم من قياصرة اصبحوا لاريدونات ؟ » .

بآلة الحفر ، ولما كان ثمة طلب محدود على الحفار الماهر للاستعانة به فى صناعة الساعات ، فقد ساورنى الأمل فى أن أبلغ الكمال فى هذه الحرفة . ولعلنى كنت بالغا هذه الدرجة لولا ان فظاظة معلمى الوحشية ، وإفراطه فى فرض القيود على ، حملانى على ان اكره عملى ! وكنت استرق بعض ساعات العمل لاتوفر على بعض أعمال مشابهة ـ ولكنها كانت تفتننى بما كنت أحسه فى ممارستها من حرية ـ فكنت احفر الأوسمة التى ترمز إلى طبقة من الأشراف ابتكرتها لنفسى ولزملائى . وفاجأنى معلمى مرة وأنا فى هذا العمل المحظور ، فضربنى ضربا مبرحا ، معلنا اننى كنت اتدرب لأغدو مزيفا للنقود ، إذ ان الأوسمة التى صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية .. واقسم إننى لم أوت ـ إذ ذاك ـ اية فكرة عن النقود الزائفة ، بل اننى لم أوت إلا أتفه فكرة عن النقود الطيبة !.. وكان إلمامى بعملات الرومان ـ التى قرأت عنها فى الكتب ـ يفوق معرفتى بنقودنا المستعملة !

واخيرا ، أدت ربقة معلمى إلى أن صار العمل ـ الذى كنت مهيأ لأن اشغف به ـ شيئا لا يطاق ، وافعمتنى برذائل كنت خليقا بأن اكرهها لولا جبروته ، مثل الكذب ، والتكاسل ، والسرقة !.. ولقد علمتنى ذكرى التبدل الذى اصابنى فى هذه الفترة من حياتى ـ اكثر من اى شىء آخر ـ الفرق بين تبعية الابن للأب ، وبين الخضوع الذليل . ومع ما فطرت عليه من خجل واستحياء ، لم يكن ثمة عيب يجافى خصالى الطبيعية قدر بذاءة اللسان . على أننى كنت استمتع بحرية كريمة لم تلبث

ان تعرضت للقمع تدريجيا ـ بعد ابتعادى عن ابى ـ حتى تلاشت تماما . وكنت جريئا مع ابى ، غير مكبوت مع السيد لامبرسييه ، معتدلا مع خالى ، فصرت جبانا مع معلمى ! ومنذ تلك اللحظة اصبحت طفلا حائرا ضالا . ولما كنت قد الفت ان اكون على قدم المساواة التامة فى اتصالاتى بمن يكبروننى ، ولم اعرف ملهاة بعيدة عن متناولى ، ولا رأيت صفحة طعام لا يحق لى ان انال منها نصيبا ، ولا رغبة لا املك ان اعبر عنها جهارا .. لما كنت قد الفت كل هذا ، واعتدت ان يكون كل ما فى قلبى على طرف لسانى ، فان من الميسور تقدير ما كنت مسوقا إلى ان اتحول إليه فى بيت لم اكن اجسر فيه على ان افتح فمى ، وكنت مضطرا فيه إلى ان اغادر المائدة قبل ان افرغ من نصف الوجبة ، وان ابرح الغرفة بمجرد ان افرغ من شأنى بها .. فى بيت كنت فيه مغلولا إلى عملى باستمرار ، ولم اكن ارى فيه سوى اسباب المتعة لسواى والحرمان لنفسى .. حيث كانت رؤيتى الحرية التى يستمتع بها معلمى وزملائى تضاعف من وطأة الخضوع على نفسى ، وحيث لم اكن اجرؤ على ان افتح فمى إذا ما ثار الجدل حول أمور كنت على خير دراية بها !.. وقصارى القول ، حيث كان كل ما يقع عليه بصرى يغدو هدفا لشوقى ، لمجرد اننى كنت محروما من كل شىء !

منذ ذلك الحين فارقتنى وداعتى ولطفى وخفة روحى ، وتلك البشاشة التى كانت ـ فيما مضى ـ تقينى العقاب إذا ما ارتكبت ذنبا . كل هذه تبددت .. ولا اتمالك ان اضحك كلما تذكرت

كيف أننى ــ ذات مساء ــ ارسلت إلى الفراش ، فى بيت أبى ، دون عشاء ، لذنب أتيته .. وفيما كنت أجتاز المطبخ وفى يدى كسرة خبز تدعو إلى الأسى ، رأيت قطعة لحم تقلب على السفود ــ «الشواية» ــ فأخذت اتنسم عبيرها ! وكان كل اهل البيت وقوفا حول النار ، فاضطررت إلى أن القى على كل منهم تحية المساء ، اثناء مرورى ، حتى إذا فرغت من تحيتهم ، غمزت بعينى لقطعة اللحم التى بدت بديعة المنظر ، والتى كانت زكية الرائحة ، ولم أتمالك ان انحنيت لها ــ كما انحنيت للآخرين ــ وقلت بلهجة حزينة : « عمى مساء يا قطعة الشواء ! » . واطربتهم هذه الملحة الساذجة إلى درجة جعلتهم يستبقوننى للعشاء . ولعلها كانت كفيلة بأن تتخذ نفس الوقع من نفس معلمى ، ولكنى واثق من أنها لم تخطر ببالى قط ، ومن اننى ما كنت لأجد الشجاعة على ان اقولها فى حضوره !

وبهذا النهج تعلمت كيف اكتم ما اشتهى ، وكيف أنافق ، واكذب ، و ــ اخيرا ــ اسرق !.. وهو أمر لم يخطر ــ حتى ذلك الوقت ــ ببالى مطلقا ، ولم أستطع منذ ذلك الحين أن ابرىء نفسى منه تماما . ذلك لأن الاشتهاء المكبوت والضعف يقودان دائما إلى هذا الاتجاه ، الأمر الذى يفسر السر فى أن جميع الخدم نصابون ، وفى أن جميع الصبيان لدى اصحاب الحرف مسوقون إلى أن يكونوا كذلك .. ولكن هؤلاء يفقدون ــ بتقدمهم فى مدارج العمر ــ هذه الرذيلة المشينة ، إذا اتيحت لهم المساواة فى جوع وادع مأمون ، يألفون فيه ان يكون كل ما يرونه فى متناولهم . ولما لم تتح لى هذه الميزات ، فاننى لم أملك ان أجنى نفس الفوائد !.. وأكاد أقول إن الذى يدفع

الطفل إلى ان يخطو أولى خطواته نحو الشر ، هو دائما المبادىء الطيبة التى يساء توجيهها . فلقد مكثت مع معلمى عاما دون ان افكر فى الاقدام على اخذ اى شىء ــ حتى من المأكولات ــ برغم ما لاقيت من حرمان وإغراء مستمرين . وكانت اولى سرقاتى من اجل شخص سواى ، ولكنها فتحت الباب لسرقات اخرى ، لم يكن الباعث إليها امرا محمودا !.. فلقد كان لدى معلمى عامل باليومية ــ يدعى السيد «فيرا» ــ يقيم فى دار مجاورة ، وله حديقة على مسافة منها تنتج نوعا راقيا من (الاسفاناخ) . وخطر للسيد فيرا ــ الذى لم يكن يحصل على حاجته من المال ــ ان يسرق بعض الاسفاناخ الصغيرة التى كانت امه تستنبتها ، فيبيعها لتدر عليه ما يكفى لامداده بفطور طيب ليومين او ثلاثة . ولما لم يكن راغبا فى ان يقدم بنفسه على المغامرة ، كما انه لم يكن خفيف الحركة ، فقد اختارنى لهذه المهمة . وبعد محايلات اولية وتملقات ــ زاد من سهولة نجاحها فى التاثير على ، اننى لم اكن ادرك هدفها ــ عرض على الأمر كفكرة خطرت له عفو اللحظة . فعارضتها بشدة ، ولكنه الح . وليس بوسعى قط ان اقاوم التملق ، ومن ثم فقد انصعت له ، واخذت أذهب فى كل صباح فاجمع ابدع نبتات الاسفاناخ واحملها إلى سوق (مولار) ، حيث ادركت امراة طيبة انى كنت أسرقها لتوى ، فكانت ترمينى بهذا الاتهام لتبخسنى الثمن . وكنت فى ذعرى اقبل اى ثمن تقدمه ، ثم أحمله إلى فيرا ، فسرعان ما يتحول المبلغ إلى فطور كنت اتكفل باحضاره ، وكان يتقاسمه مع زميل آخر ، بينما أقنع أنا

ببضع لقيمات .. ولم أتذوق قط النبيذ الذى كانا يتناولانه مع هذا الفطور !

واستمرت هذه الخطة عدة ايام ، دون أن يخطر لى قط أن أسرق ـ بدورى ، من الباطن ـ السارق الأصلى ، وأن أفرض « عوائد » على ما كانت تدره اسفاناخ السيد فيرا ! بل كنت أؤدى دورى فى المهمة بمنتهى الاخلاص ، وليس لى من حافز سوى رغبتى فى ارضاء ذاك الذى كان يحرضنى . ومع ذلك ، فكم من صفعات وشتائم وقسوة كنت خليقا بان اتلقاها — لو ان امرى انفضح — بينما كان من المؤكد ان يبادر الوغد إلى انتحال اكذوبة تقابل بالتصديق — ومن ثم يتضاعف عقابى إذ يعتبر اتهامى اياه — وهو العامل وأنا الصبى — وقاحة !.. وهكذا نرى أنه — فى كافة ظروف الحياة — كثيرا ما يحدث ان المذنب القوى ينجى نفسه على حساب البرىء الضعيف !.. وبهذه الطريقة تعلمت ان السرقة لم تكن من الفظاعة بالقدر الذى كنت اتصورها عليه ، وأنه ليس من شىء اشتهيه يعز على ، ما دام فى متناول يدى. ولم اكن سيىء التغذية على طول الخط ، ولكن العفة اصبحت امرا متعذرا على وانا ارى معلمى ينظر إليها كشىء منكر !.. ويبدو لى ان اعتياد اقصاء الصغار عن المائدة ، فى الوقت الذى تحمل إليها فيه أشهى الأطعمة ، هو أروع طريقة تنتهج لجعلهم نهمين ولصوصا !.. وسرعان ما اصبحت نهما ولصا ، واستطعت ان امضى موفقا — بوجه عام — فلم يفتضح أمرى إلا فى مرات نادرة كنت افاجأ فيها !

اننى لأرتجف ـ واضحك فى الوقت ذاته ـ إذ اتذكر ان سرقة

بعض التفاح كادت تكبدنى غاليا ! فقد كانت تلك التفاحات فى قرار حجرة لاختزان المؤن ، تضاء بالنور المنساب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكة حديدية . وفى ذات يوم ، وقد خلت الدار إلا منى ، صعدت على المعجن — حوض العجين — لألقى نظرة على الثمار الغالية فى حديقة « هيسبريد »(١) . ولما كانت بعيدة عن متناولى ، فقد احضرت سيخا لأحاول ان اتبين ما إذا كان بوسعى ان أمس التفاحات ، ولكنه كان جد قصير . ولكى أزيده طولا ، ربطت إليه سيخا صغيرا ، كان يستخدم فى شى الحيوانات الصغيرة ، إذ كان معلمى مغرما بالصيد . ودفعت السيخين عدة مرات ، دون أن أوفق . وأخيرا ، شعرت لعظم اغتباطى ، اننى أصبت تفاحة ، فتأهبت لأن استخوذ عليها ، ولكن .. منذا الذى يستطيع ان يصف اساى ، حين وجدتها اكبر من ان تمر خلال قضبان الكوة ! وكم من حيل بذلتها لانفذها خلال القضبان !.. وكان لابد لى من العثور على ما يبقى السيخ فى مكانه ، والحصول على سكين ذات طول كاف لشطر التفاحة ، وقطعة من الخشب استعين بها على إبقاء التفاحة عاليا . وتمكنت اخيرا من ان أشطرها ، يحدونى الأمل فى أن استطيع ان اجتذب النصفين ، واحدا بعد الآخر ، ولكنهما ما ان انفصلا حتى هويا إلى ارض المخزن ! — الا فلتشاركنى أساى ، أيها القارىء الشفوق ! — ومع ذلك فاننى لم افقد جلدى مطلقا ، لكننى كنت قد ضيعت

(١) هيسبريد : اسم لواحدة من عذارى ورد ذكرهن فى أساطير الاغريق على أنهن كن يحرسن شجرة تثمر تفاحات ذهبية

وقتا ليس بالقصير ، فخشيت أن أفاجأ ، وارجأت القيام بمحاولة أخرى ــ تكون موفقة ــ إلى اليوم التالى ، وعدت إلى عملى فى سكينة ، وكأننى لم آت أمرا ، دون أن أفكر فى الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان فى المخزن !

وفى اليوم التالى ، انتهزت فرصة سانحة ، وقمت بمحاولة جديدة . فصعدت على مقعدى ، وربطت السيخين وهيأتهما ، وهممت بأن ادفعهما ، ولكن « الغول » لم يكن نائما ، لسوء الحظ . فقد فتح باب المخزن بغتة ، وخرج منه معلمى ، فعقد ذراعيه ، وتطلع إلى ، وقال : « تشجع ! » .

إن القلم يسقط من يدى !.. على أن حساسيتى إزاء العقاب لم تلبث أن ضعفت ، من جراء سوء المعاملة المستمر ، فكنت أنظر إلى السرقة على أنها نوع من التعويض يخول لى الاستمرار فيها ! وبدلا من أن استعرض ما فات وأقدر ما كنت ألقى من عقاب ، رحت أتطلع إلى الأمام وأفكر فى الانتقام !.. ورحت أرى أننى إذا كنت أضرب بزعم أننى لص ، فإن هذا الضرب يخولنى أن أتصرف كلص . وتبينت أن السرقة والضرب أمران يسيران جنبا إلى جنب ، فجعلت منهما جانبين فى صفقة عادلة .. فإذا قمت بدورى ، كان على أن أدع معلمى يؤدى دوره ! وبهذا التفكير ، شرعت أمارس السرقة بنفس أكثر طمأنينة من ذى قبل . وكنت أقول لنفسى : « ما هى النتيجة ؟.. ساضرب ؟.. لا بأس ، لقد تعودت الضرب ! » .

إننى مشغوف بالأكل ، ولكنى لست شرها .. وأنا مغرم بإرضاء نزواتى البدنية ، ولكنى لست نهما ، فإن لى ميولا كثيرة

أخرى تحول دون ذلك . وما جشمت نفسى يوما أية متاعب بشأن الطعام ، اللهم إلا حين يكون قلبى خاليا مما يشغله ، وهذه حال كانت من القلة فى حياتى بحيث أننى نادرا ما وجدت وقتا للتفكير فى الأطايب اللذيذة . ولهذا السبب لم أقصر اتجاهاتى فى اللصوصية على المواد الغذائية ــ لأمد طويل ــ بل سرعان ما بسطتها إلى كل شىء كان يغرينى ! وإذا كنت لم أصبح لصا محترفا ، فإنما ذلك لأننى لم أجد قط فى النقود إغراء شديدا . وكانت فى الطريق إلى خارج « الورشة » العامة حجرة خاصة لمعلمى ، وجدت وسيلة لأن افتح بابها وأغلقه دون أن يفطن أحد إلى ذلك . وهناك ، رحت أشاطره خير عدده وآلاته ورسومه وتجاربه .. بل كل شىء كان يجتذب ميولى ، وكان هو يحرص على إبقائه بعيدا عنى لهذا السبب !.. وكانت هذه السرقات ــ فى قرارها ــ بريئة تماما ، إذ ما كنت استغلها إلا فى خدمة معلمى . على أننى انتشيت إذ وجدت هذه التوافه فى متناولى ، وخيل إلى أننى كنت أسلبه مواهبه وما كان ينتج عنها ! وإلى جانب ذلك ، وجدت صناديق تحوى مبارد وأساور صغيرة وبعض النفائس والعملات الذهبية والفضية . وكنت حين أجد فى جيبى أربع أو خمس قطع من فئة « السو »(1) ، أعتبر نفسى غنيا . ومع ذلك ، فضلا عن أننى لم أمس شيئا مما وجدته هناك ، فإننى لا أذكر قط أننى رمقتها يوما بعينين مشوقتين . وإنما كنت أنظر

---

(1) « السو » عملة فرنسية صغيرة تعادل ٥ سنتيمات ، أو جزءا من عشرين من الفرنك .

إليها فى جزع اكثر منى فى ابتهاج ! واعتقد ان هذا الاستنكار لسرقة المال والنفائس كان راجعا ــ إلى حد كبير ــ إلى تربيتى ، وإلى ما كان يقترن بها من افكار دفينة عن العار ، والسجن ، والعقاب ، والمشانق ، مما كان كفيلا بأن يجعلنى ارتجف فرقا لو اننى تأثرت بالاغراء .. هذا فى حين أن أحاييلى كانت تبدو فى نظرى كمجرد اعمال خبيثة ــ أو « شقاوة » ــ لا اكثر ، وانها لا يمكن أن تفضى إلى اكثر من « علقة » طيبة من معلمى .. وكنت أعد نفسى مقدما لذلك !.. واكرر أننى لم اشعر قط برغبة كافية فى أن اكبح نفسى ، فلم يكن ثمة ما يقلق ضميرى . وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع أكثر إغراء لى من نقود تكفى لأن ابتاع رزمة منه ! وهذه الظاهرة الفذة ترتبط باحدى ميزات خلقى وشخصيتى ، وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكى ما يجعلها أهلا للشرح !

* * *

اننى إنسان ذو حمية بالغة ، إذا ما استبدت بى سورتها ، فلن يعدل اندفاعى شىء : إذ انسى كل حكمة ، وكل شعور بالاحترام والخوف والوقار ، فاذا انا اغدو شرسا ، متهورا ، عنيفا ، غير هياب .. لا يصدنى اى إحساس بالعار ، ولا يرهبنى اى خطر .. بل اننى لا احفل من الكون كله إلا بالغاية التى تشغل بالى فحسب ! على ان هذا كله لا يستمر إلا لحظة ، ثم إذا بى فى اللحظة التالية انغمس فى سكون تام . اما فى لحظات هدوئى ، فانا الخور والجبن ذاتهما ، إذ يخيفنى ويثبط همتى كل شىء : فالذبابة التى تمر بى وهى تطن تفزعنى .. واضطرارى إلى ان اقول كلمة او

ابدى حركة ، يقض خمولى .. وهكذا يتسلط على الخوف والخجل إلى درجة يسرنى معها أن استخفى عن بصر زملائى من الآدميين !.. وإذا كان على أن آتى تصرفا فاننى لا ادرى ماذا ينبغى ان افعل . وإذا قدر على ان اتكلم ، فإننى لا ادرى ما ينبغى ان اقول . وإذا نظر احد إلى ، تولانى الارتباك !.. ولقد اوفق إلى الكلمات الخليقة بأن تقال ، عندما استثار لدرجة عالية ، ولكنى ــ فى الحديث العادى ــ لا اعثر البتة على شىء يقال ، واغدو فى حال لا تطاق ، لمجرد ان اجدنى مضطرا إلى الكلام !.. اضف إلى ذلك ان ليس بين رغباتى المتسلطة ما يتجه إلى أشياء يمكن ان تشترى . فلست اشتهى سوى المتع البريئة ، غير الزائفة ، وكلها مما يسممه المال ويفسده . من ذلك اننى مشغوف بمتع الطعام ، ولكننى ــ إذ لا احتمل عبء الجلوس فى جماعة ، أو الشراب فى حانة ــ لا أملك ان أحظى بها إلا برفقة صديق .. أما إذا كنت وحيدا ، فان خيالى يشغل إذ ذاك بأمور اخرى ، فلا يعود للأكل حظوة لدى . وبرغم ان دمى الحار يهفو إلى النساء ، فان قلبى المشبوب اشد حنينا إلى العاطفة الصادقة . ومن ثم تفقد النساء ــ اللاتى يشترين بالمال ــ كل مفاتنهن فى نظرى .. بل انى أرتاب فى أن أجد من نفسى قابلية للافادة منهن . كذلك شأنى مع كل المتع التى فى متناول يدى ، فانا اجدها غثة طالما كانت لا تكبدنى شيئا !.. وإنما احب من المتع وأسباب اللذة ما لا يكون ملكا لأول إنسان يعرف كيف يستمرئها !

والمال .. ابدا ما تراءى لى نفيسا كما يبدو مادة ، بل إنه

لم يبد لى قط ذا صلاحية خاصة ، فهو عديم القيمة فى حد ذاته ، إذ لابد من استبداله لكى يتيسر الاستمتاع به . فالمرء مضطر إلى أن يشترى ، ويساوم ، ويتعرض للغش ، ويغبن ويبهظ ، ولا يخدم حق الخدمة .. وحين أنشد شيئا جيد الصنف ، أوقن من أننى لن أحصل بالمال إلا على صنف ردىء !.. فاذا ما دفعت نقودا من أجل بيضة طازجة ، وجدتها فاسدة .. أو من أجل ثمرة طيبة من الفاكهة ، ألفيتها فجة .. وقد أدفع من أجل فتاة ، فاذا بها مفسودة !.. وأنا مولع بالنبيذ الجيد ، ولكن أين أظفر به ؟ الدى تاجر الخمور ؟ مهما أفعل فانه لن يتحرج عن أن يسممنى ! ولو شئت أن أحظى بخدمة طيبة حقا ، فياللعناء وياللحيرة ! لا بد لى من أصدقاء ، ورسل ، ومن أن أمنح عمولات ، وأكتب ، وأروح وأجىء ، وأنتظر .. وغالبا ما أكون فى النهاية ضحية للغش !.. أى عناء ألقاه من مالى ! إن خوفى منه لأشد من شغفى بالخمر الجيدة !

كم من مرات يخطئها الحصر ، خرجت فيها ـ أثناء تعلمى الحرفة وبعد ذلك ـ وأنا أعتزم شراء بعض الحلوى .. فكنت أقبل على حانوت صانع الحلوى ، فأرى بعض النسوة عند طاولة البيع . وأخال أننى أبصرهن بالفعل وهن يتضاحكن من هذا النهم الصغير !.. فأذهب إلى الفاكهى ، وأرمق الكمثرى فيغوينى شذاها ، ويرمقنى شابان أو ثلاثة على مقربة .. وهذا رجل يعرفنى ، يقف أمام حانوته .. وأرى فتاة مقبلة من بعد ، أفتراها خادم الدار ؟ إن قصر نظرى يهيىء لى كافة الرؤى الوهمية ، فأخال المارة جميعا من المعارف ،

وهكذا أجد فى كل مكان من العراقيل ما يفزعنى ويصدنى .. وتتضاعف رغبتى بازدياد خجلى واستحيائى ، ثم أعود ـ فى النهاية ـ إلى البيت ، كالمغفل ، والشوق يضنينى ، وفى جيبى الوسيلة لإشباعه ولكنى لم أوت الجرأة على أن أبتاع شيئا ! ولقد أنساق إلى أكثر التفصيلات اجتلابا للملل إذا سمحت لنفسى ـ وأنا أصف كيف كانت نقودى تنفق ، عن طريقى أو عن طريق سواى ـ بأن أشرح الارتباك ، والاستحياء ، والإحجام ، والتملل ، والانزعاج ، التى كنت أمر بها دائما .. على أن القارىء المتتبع لمجرى حياتى ، لن يلبث ـ إذا ما عرف حقيقة طباعى وسجيتى ـ أن يفهم كل هذا دون أن أتجشم عناء روايته عليه !

ولو تسنى له فهم هذا ، فسيسهل عليه إدراك ظاهرة من أبرز ظواهر التناقض لدى : وهى اجتماع شح يكاد يكون خسيسا ، مع بغض شديد للنقود !.. فما النقود سوى قطعة من أثاث لا أجد فيها من الراحة سوى القليل ، حتى أنه لا يخطر ببالى قط أن أصبو إليها عندما لا تتوفر لى .. وحتى إذا ظفرت بها ، فانى أبقيها طويلا دون أن أنفقها ، عجزا منى عن أن أدرى كيف أستخدمها بطريقة تدخل السرور على نفسى . أما إذا سنحت لى فرصة ملائمة ومواتية ، فاننى أقبل على استخدام النقود حتى ليخلو كيسى منها قبل أن أفطن !.. وإلى جانب ذلك ، فلا داعى لأن يتوقع أحد أن يجد عندى تلك الخلة العجيبة التى تتوفر فى البخلاء : الانفاق ، لمجرد التظاهر بالانفاق ! بل أننى ـ على النقيض ـ أنفق فى السر من أجل

الاستمتاع ، وبدلا من ان افخر بالانفاق اخفيه ! ويبلغ من شدة شعورى بان لا نفع للمال لدى ، اننى اكاد اخجل إذ اقتنى اى قدر منه ، واكون اشد خجلا حين استخدمه !.. ولو قدر لى يوما من الدخل ما يكفى لان اعيش حياة مريحة ، فاننى اجزم باننى ما كنت لاكون بخيلا ، بل كنت انفقه عن آخره ، دون أن احاول زيادته . ولكن ظروفى غير المستقرة تلزمنى الحرص ، فانا أعبد الحرية ، وامقت الكبت والعناء ، وان اكون عالة على الغير ! وطالما بقى المال فى كيسى ، فانه يطمئننى إلى استقلالى ، ويعفينى مؤونة البحث عن اعمال لتملأ الكيس من جديد ، وهى ضرورة تبعث الجزع فى نفسى دائما .. ومن ثم فان الخوف من أن أرى ما لدى من المال قد استنزف ، يجعلنى اكتنزه فى حرص .. فالمال الذى يمتلكه الشخص هو اداة حريته ، اما حين نسعى إليه ملهوفين فيكون اداة العبودية .. ولهذا اتشبث بما لدى ، ولا ارغب فى مزيد !

ومن ثم فان عدم شغفى بالمال لم يكن سوى تقاعس وتبلد ، فان متعة الاقتناء لا تستحق عناء التحصيل .. وكذلك الحال بالنسبة لإسرافى ، فهو ليس اكثر من تقاعس وبلادة ، وعندما تحين فرصة الانفاق النافع ، فاننى لا احسن استغلالها .. فالمال اقل إغراء لى من الأشياء ، إذ ان ثمة وسيطا — على الدوام — بين المال وبين اقتناء الأشياء المنشودة ، فى حين انه لا يوجد اى وسيط بين الأشياء وبين الاستمتاع بها .. فاذا ما رايت الشئ فانه يستهوينى ، وما ان اتبين وسيلة الظفر به حتى يفقد إغراءه !.. ولهذا السبب اعتقدت ان ارتكب السرقات ، ولا ازال — حتى الآن — اختلس التوافه التى

تستهوينى ، والتى اوثر ان آخذها بهذه الطريقة على ان اطلبها .. ولكنى لا اذكر اننى — سواء فى طفولتى او فى كبرى — قد سلبت اى امرئ درهما واحدا ، اللهم إلا فى مناسبة واحدة — منذ خمس عشرة سنة — إذ سرقت سبعة « ليبرات » وعشر قطع من فئة « السو » . وهذا الحادث جدير بالذكر ، لانه يشتمل على خليط عجيب من النزق والقحة ، ما كنت لأصدقه بسهولة لو انه كان يتعلق بشخص سواى !

ولقد وقع هذا الحادث فى باريس ، إذ كنت اتمشى مع السيد « دى فرانسوى » فى حدائق (الباليه رويال) حوالى الساعة الخامسة . فاذا به يخرج ساعته ، فيستطلعها الوقت ، ثم يقول : « لنذهب إلى الأوبرا ! » . ووافقت ، فذهبنا . واستأجر السيد مقعدين فى « الصالة » ، واعطانى إحدى التذكرتين ، ثم مضى بالثانية يتقدمنى ، فتبعته . ودخل إلى « الصالة » ، فلما هممت بالدخول خلفه ، إذا بالناس يسدون الطريق . وتلفت فاذا كل فرد واقف ، فظننت ان من السهل ان اتوه وسط الزحام ، او ان اوهم السيد « دى فرانسوى » باننى ظللت ، على اية حال . ومن ثم خرجت فاسترجعت ثمن التذكرة ، وانصرفت بالنقود ، دون أن يخطر ببالى أن الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرد بلوغى الباب الخارجى ، وأن السيد « دى فرانسوى » قد تبين اننى لم اكن موجودا ! (١) .. وإذ لم يكن ثمة تصرف ينافى مسلكى العادى

(١) ذكرت جورج صاند فى كتابها : « تاريخ حياتى » ، أن السيد دى فرنسواى — وكان جدها — اعتاد أن يذكر دائما [illegible] هذه القصة .

مثل هذا التصرف فاننى اذكره لأبين ان هنـاك لحظات ينبغى الا يحكم فيها على الرجال باعمالهم ، لأنهم يكونون فى شبه ذهول أو شرود !.. ذلك لأننى لم أكن راغبا فى اختلاس النقود ذاتها ، وإنما اردت ان اسرق وجه استخدامها ، ولكن هـذا التصرف كان مشينا بقدر ما كان بعيدا عن السرقة !

* * *

ولن يقدر لى ان افرغ من كل هذه التفصيلات لو اننى المحت بكافة الدروب التى اتبعتها ـ اثناء تعلمى الحرفة ـ فى هبوطى من ذرى البطولة النبيلة ، إلى درك التفاهة ! ومـع ذلك ، فاننى لم استمرىء رذائل المركز الذى كنت فيه ، وإن مارستها. وسئمت اسباب التسلية التى كان زملائى يقبلون عليها ، حتى إذا اشتد تقييد حريتى فجعل العمل فى نظرى امرا لا يطاق ، سمئت كل شيء !.. وجدد هذا من شغفى بالقراءة ، بعد ان كنت قد فقدته زمنا . ولكن هذه القراءة ـ التى كنت اختلس لها فترة من وقت العمل ـ اصبحت عبيـا جديدا استوجب عقابى .. وإذا الميل إليها يتحول ـ بالقمع ـ إلى وجد لم يلبث ان اصبح جنونا !.. وكانت «لاتريبو» ـ وهى امراة اشتهرت باعارة الكتب ـ تمدنى بكتب كافة الوان الأدب ، وكانت كلها ـ الغث منها والنفيس ـ سواء عندى ، إذ لم يكن لى فى الأمر خيار ، فأخذت اقرأ كل شيء بنفس النهم : رحت اقـرأ وانـا امام طاولة العمل ، واقرأ وانا منطلق فى بعض المهام ، واقرأ بجوار صوان الملابس، وانسى نفسى ساعات طويلة حتى يدور راسى لفرط القراءة .. فما كنت املك سـوى ان اقرأ ! كان

معلمى يراقبنى ، ويباغتنى ، ويضربنى ، وينتزع الكتب منى .. وكم من مجلدات مزقت واحرقت وطوح بها من النافذة ! .. وكم من مؤلفات تركت ناقصة الأجـزاء ـ لهذا السبب ـ فى مكتبة « لاتريبو » !.. وكنت إذا عزت على النقـود ، اقـدم المراة اقمصـتى ، واربطة عنقى ، وملابسى .. كمـا كانت تستولى منى فى يوم الأحد من كل أسبوع على قطع « السو » الثلاث التى كنت اتقاضاها لمصروفى الخاص !

سيقال لى هنا إن النقود باتت من الضرورات لى . وهذا حق ، ولكنه لم ينطبق على إلا عندما حرمنى شغفى بالقراءة ، من كل نشاط . فان انصرافى بكل نفسى إلى هوايتى ، وعـدم اكتراثى بغير القراءة ، الهانى عن السرقة ! وهذه ميزة اخرى من الميزات البارزة فى شخصيتى ، ففى غمرة انغماسى فى اى مسلك فى الحيـاة ، يستطيع اى امر تافه أن يجتذبنى ، وان يحولنى ، وان يستأثر بانتباهى ، ثم يغدو شغفا . وإذ ذاك يصبح كل شيء منسيا ، فلا اعود افكر فى غير الشيء الجديد الذى يستحوذ على اهتمامى .. وهـكذا كان قلبى يخفق فى صـبر نافذ إذا ما احضرت كتابا جديدا ودسسته فى جيبى ، فلا اكاد اخلو إلى نفسى حتى اخرج الكتاب ، ولا اعود افكر فى التنقيب فى حجرة معلمى بالورشـة .. ولا اكاد اصدق أننى كنت اقدم على السرقة ، ولو كانت لى اهواء تكلفنى نفقـة ابهظ .. كنت فى اقتصارى على الحاضر ، لا اجد اتجاها إلى ان ادبر امر المستقبل بهذه الطريقـة ، فقد كانت « لاتريبو » تعطينى الكتب بالنسيئة (بالتقسيط) ، وكانت الدفعـات

صغيرة ، ولكنى كنت انسى كل شىء بمجرد ان اطمئن إلى وجود الكتاب فى جيبى . وكانت النقود التى تأتينى بطرق شريفة تذهب بنفس الأسلوب إلى يدى هذه المراة ! ولم يكن اهون على ـ عند ما تشتد فى الضغط على ـ من أن انزل عما امتلك . وكانت السرقة ـ قبل الحاجة إلى المسروق ـ تتطلب كثيرا من بعد النظر ، ومن ثم لم اكن اتعرض لاغراء يحملنى على السرقة لكى أدفع ما كانت المراة تطلبه !.. وكان من جراء المشاجرات ، والضرب ، والاطلاع خفية على كتب أسىء اختيارها ، أن صرت شرسا ، صموتا ، وشرد عقلى ، واصبحت أعيش منطويا !.. على انه إذا كان إدراكى لم يعصمنى من الكتب السخيفة والفاسدة ، فإن حظى الحسن صاننى من الكتب الفاحشة والنابية .. لا لأن « لاتريبو » ـ التى كانت امراة لينة الجانب ، من كل اعتبار ـ كانت تثير اى اعتراض دون إعارتى هذه الكتب ، وإنما لأنها كانت تذكرها لى فى لهجة مشوبة بالغموض ، لكى تضاعف من قيمتها لدى ، فاذا بهذا الغموض ، يحملنى على رفضها ، بدافع من الاستهجان والاستحياء .. وقد ساعدنى حظى على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع ، فانقضى اكثر من ثلاثين عاما قبل ان تقع عيناى على احد هذه الكتب الخطرة ، التى ما كانت اية سيدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة ، لأنها لا تقرأ إلا بيد واحدة فقط ! (١) .

---

(١) يقصد روسو الكتب المثيرة ، التى كان يبلغ من عنف اثارتها للقارىء أن تغريه على ممارسة العادات السيئة .

وفى اقل من عام ، كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من الكتب ، التى كانت لدى « لاتريبو » ، واصبح افتقارى إلى ما يشغلنى ـ خلال فراغى ـ امرا مضنيا . وكنت قد أبرأت نفسى من نزواتى الصبيانية النابية ، بفضل ولعى بالمطالعة . بل انى بفضل الكتب التى كنت اقرؤها ـ برغم أنها كانت سيئة الاختيار ، وكثيرا ما كانت رديئة ـ ملأت قلبى بمشاعر انبل من تلك التى كان محيط حياتى يوحى إلى بها . وإذ امتلأت اشمئزازا من كل شىء كان فى متناول يدى ، وشعورا بأن كل ما كان خليقا باغرائى قد اقصى عنى تماما ، لم أعد أرى ثمة ما يمكن ان يهفو إليه فؤادى . وكانت حواسى المهتاجة قد طال شوقها إلى متعة لم يكن فى وسعى أن ادرك كنهها ، ولو فى الخيال !.. كنت نائيا عن المتعة الواقعية ، وكأننى خال من الجنس .. وكنت ـ لاكتمال نموى وإرهاف مشاعرى ـ أفكر احيانا فى نزواتى ، ولكنى لم اكن ابصر مما وراءها اى شىء .. وفى هذه الحال العجيبة ، اقبل خيالى المضطرب على شاغل انقذنى من نفسى وهذا من حساسيتى الشهوية النامية !.. وكان هذا الشاغل هو تعليل نفسى بالحالات والمواقف التى استرعت انتباهى اثناء مطالعاتى . وبفضل تذكرها ، وتنويعها ، والجمع بينها ، وتصور انها تمت لى حقيقة ، اصبحت واحدا من الشخصيات التى كانت تملأ خيالى ، واصبحت ارى نفسى ـ دائما ـ فى اكثر هذه المواقف ملاءمة لذوقى .. واخيرا ، جعلتنى الحال الخيالية ـ التى وفقت إلى وضع نفسى فيها ـ انسى حالى الحقيقية التى لم اكن راضيا

عنها ! وقد أفضى بى هذا الولع بالموضوعات الخيالية ، والاستعداد الذى كنت اتوسل به إلى شغل نفسى بها ، إلى الاستمئزاز من كل شيء حولى ، وإلى اقرار ذلك الميل إلى الوحدة الذى لم يفارقنى بعد ذلك . وسنرى ـ اكثر من مرة ـ فى سياق الحديث ، الآثار العجيبة التى ترتبت على هذا السلوك الذى كان يبدو كئيبا ، ومنطويا ، ولكنه ـ فى الواقع ـ راجع إلى قلب مفرط العطف ، ومفرط الحب ، ومفرط الحنان ، اضطر إلى أن يغذى نفسه بالأوهام إذ عجز عن ان يجد فى الوجود اى قلب آخر يشبهه ! على اننى اكتفى ـ فى الوقت الحاضر ـ باننى حددت أصل ومبعث هواية خففت كل نزواتى ، وفرضت عليها من نفسها قيودا ، فجعلتنى على الدوام بطىء التصرف ، نظرا لفرط تأجج شهوتى !

* * *

وهكذا بلغت العام السادس عشر من عمرى ، وانا قلق ، غير راض عن نفسى ولا عن اى شيء ، خلو من شيء من الميول التى تتوفر فى مثل الحال التى كنت أعيش فيها .. خلو من ملاهى السن التى كنت اجتازها ، يضنينى اشتهاء الغاية التى كنت أجهل كنهها .. فكنت ابكى دون ما داع للدموع ، واتنهد دون ان ادرى لذلك سببا ! وقصارى القول ، كنت اداعب أطياف خيالى بحنان ، لاننى لم اكن ارى حولى شيئا يرجحها . وكان زملائى ـ الذين كانوا يتعلمون الحرفة معى ـ يغدون فى أيام الآحاد يبحثون عنى بعد الصلاة ، لأذهب فانشد بعض اللهو معهم . كنت اشعر باننى خليق بأن اغتبط لو استطعت

أن اهرب منهم ، ولكنى لم اكد اشترك فى ملاهيهم مرة ، حتى ازددت تحمسا وتماديت إلى ابعد مما كانوا يذهبون إليه !.. هكذا كان مسلكى دائما ، يصعب حملى على الشيء ، كما يصعب إيقافى عن المضى فيه إذا ما بدأت !.. فكنت ـ خلال نزهاتنا خارج المدينة ـ اذهب إلى ابعد مما يذهب إليه اى واحد منهم ، دون ما تفكير فى العودة ، ما لم يتذكرها لى الآخرون !.. ولقد تورطت فى هذا الصدد مرتين ، إذ أغلقت ابواب المدينة قبل أن أتمكن من العودة ! فكنت ـ فى اليوم التالى ـ أقابل من معلمى بما يمكن تصوره ! بل إننى أنذرت فى المرة الثانية بأن اقابل ـ إذا ما تكرر التأخر ـ استقبالا جعلنى أعقد العزم على ان لا اقدم على التعرض لهذا الخطر ثانية !.. ومع ذلك ، فقد قدر للمرة الثالثة أن تاتى ، برغم بشاعتها : فقد أفسد على حرصى ضابط لعين من الحرس ـ كان يدعى الكابتن مينوتولى ـ اعتاد دائما أن يغلق « البوابة » التى كان يحرسها قبل أن تغلق الأبواب الأخرى بنصف ساعة ! وكنت فى تلك المرة عائدا مع زميلين ، وقبل ان نبلغ المدينة بنصف فرسخ ، سمعت البوق الذى يستحث العائدين ، فضاعفت من خطاى .. وعدت اسمع البوق ، فهرعت بكل قواى .. ووصلت وانا مقطوع الأنفاس ، غارقا فى العرق ، وقد راح قلبى يخفق بعنف .. ورايت الجنود ـ من بعد ـ يتخذون مراكزهم ، فاندفعت نحو البوابة وانا أصرخ بصوت كاد يخنقه التهدج .. ولكن الفرصة كانت قد فاتت ، فما ان أصبحت على عشرين خطوة من مركز الحراسة الامامى ، حتى رفعت القنطرة الأولى ! وارتعدت

وأنا ارى طرفيها الرهيبين يرتفعان فى الهواء ، كنذير شؤم بغيض بالمصير الذى كان فى تلك اللحظة يفغر فاه ليبتلعنى !

وفى الفورة الأولى لأساى ، القيت بنفسى على الأرض المنحدرة ، ورحت أعضها . وبادر زميلاى لتوهما ــ وهما يضحكان من نحسهما ــ إلى تقرير ما ينبغى عليهما عمله . وقد حذوت حذوهما ، ولكن قرارى كان يختلف عن قرارهما . لقد أقسمت ــ فى تلك البقعة ــ الا اعود إلى معلمى قط ! فلما ولجا المدينة فى الصباح التالى ، بعد ان فتحت الأبواب ، ودعتهما إلى الأبد . ولم اسالهما سوى ان ينبئا ابن خالى « برنارد » بقرارى ، سرا ، وبالمكان الذى يستطيع ان يرانى فيه مرة أخرى !.. ولم اكن ــ منذ تتلمذت فى الحرفة ــ قد رايته الا لماما ، فقد ظللنا وقتا نلتقى فى يوم الأحد من كل اسبوع ، ولكن كلا منا اخذ يتجه رويدا إلى عادات غير عادات صاحبه ، فأخذت لقاءاتنا تقل باطراد . وأعتقد ان لأمه يدا فى هذا التحول ، فقد كان من أبناء الحى الراقى ، بينما كنت تلميذا فقيرا أتلقى أصول الصنعة . كنت من أبناء (سان جيرفيه) ــ حى الفقراء بالمدينة ــ فلم تعد ثمة مساواة بيننا ، برغم قرابتنا ، ومن ثم فقد كان من الحطة له ان يكون ذا شأن معى !.. ومع ذلك ، فان الصلات بيننا لم تنقطع تماما ، فان ابن خالى ــ بما أوتى من فطرة طيبة ــ كان يتبع فى بعض الأحيان ما كان يمليه عليه قلبه ، وليس ما كانت تمليه عليه امه !.. فلما انبىء بما عقدت عليه العزم ، اسرع إلى ، لا ليحاول ان يثنينى عنه او يشاطرنيه ، وإنما ليخفف

متاعب فرارى ببعض المنح البسيطة ، إذ كانت مواردى لا تساعدنى على الذهاب بعيدا . وكان بين الأشياء الأخرى التى وهبنيها ، سيف صغير استهوانى كثيرا ، وظللت احمله حتى بلغت (تورين) ، حيث اضطرتنى الضرورة إلى أن انزل عنه . اننى كلما فكرت ــ منذ ذلك الحين ــ فى التصرف الذى انتهجه ابن خالى نحوى فى تلك اللحظة الحرجة ، ازددت اقتناعا بانه إنما اتبع تعليمات أمه ، وربما ابيه ايضا . إذ انه من الأمور التى لا سبيل إلى تصديقها ، انه كان يقعد عن بذل اى مجهود لاستبقائى ، أو يحجم عن ان يتبعنى ، لو انه كان يتصرف من تلقاء نفسه .. ولكنه ــ على العكس ــ كان فى مسلكه اقرب إلى تشجيعى على أن أمضى فى خطتى ، منه إلى إثنائى عنها !.. وعندما تبين أننى كنت مصمما ، تركنى دون ان يذرف كثير دمع . ولم يقدر لنا ان نتبادل الرسائل او أن يرى احدنا الآخر ، منذ ذلك الحين ! وإنه لأمر يدعو للأسف ، إذ كانت شخصيته بطبيعتها طيبة ، وكنا قد خلقنا لكى يحب كل منا الآخر !

وقبل ان استغرق فى الحديث عن حظى وقدرى ، اسمحوا لى ان أحول عينى لحظة إلى الحظ الذى كان خليقا بأن ينتظرنى ــ بحكم طبيعة الأمور ــ لو أننى وقعت بين يدى معلم افضل من معلمى هذا .. فما كان ثمة ما هو انسب لميولى ، ولا ما هو اصلح لاسعادى ، من الحياة الهادئة ، المغمورة ، التى يحظى بها اى صاحب حرفة محترم ، لا سيما إذا كان من طبقة كطبقة الناقشين على المعادن فى (جنيف) .. إذ ان مثل هذا المركز

ـ الذى يدر من الكسب ما يكفى لتهيئة معاش مناسب ، ولكنه لا يكفى لتكوين ثروة ـ كان كفيلا بان يحد من طموحى ما تبقى لى من العمر ، وبان يفسح لى فراغا شريفا لكى ارعى ميولى المتواضعة ، وبأن يستبقينى فى المحيط المناسب لى ، دون أن يتيح لى أسباب تجاوزه !.. فقد كانت موارد خيالى من الخصب بحيث تخلع جمالا على كل المهن والأعمال وما يحيط بها ، ومن القوة بحيث تنقلنى ـ إن صح هذا التعبير ـ من حال إلى حال ، وفق ارادتى . لذلك لم يكن للمركز الذى اجد نفسى فيـه اى اعتبار مادى فى الواقع . وما كان اى مكان اوجد فيه ليبعد عن اولى قلاعى التى كنت اشيدها فى الهواء بمسافة تقعدنى عن ان الوذ بقلعتى دون ما عناء !.. وترتب على هذا وحده أن أبسط مهنة ، المهنة التى تنطوى على اقل عنـاء ، والتى تتيح اكبر قدر من الحرية الفكرية ، هى التى كانت تروق لى اكثـر من سواها .. وهكذا كانت مهنتى تماما !.. وكان من الممكن أن أقضى حياة هادئة وادعة ، كتلك التى تتطلبها ميولى ، فى أحضان عقيدتى ، ووطنى، وأسرتى ، واصدقائى .. وفى رتابة المهنة التى تلائم ذوقى ، وفى الرفقة المحببة إلى فؤادى .. كان من الممكن أن اكون مسيحيا طيبا ، ومواطنا طيبا ، وأبا طيبـا لأسرة ، وصديقا طيبا ، وعاملا طيبا ، ورجلا طيبـا فى كافة روابط الحياة .. وكان من الممكن أن احب مركزى فى الحياة ، بل ولعلنى كنت أجده .. وكان من الممكن بعد أن اقضى حياة بسيطة وخاملة مغمورة ، فى الواقع ـ أو فلأقل هادئة وقورا ـ

ان اموت بسلام ، فى أحضان أسرتى .. ومع أننى كنت خليقا بأن اغدو نسيا منسيا بعد قليـل ـ دون ما ريب ـ إلا أننى كنت خليقا إذ ذاك بأن اجـد من يحزن على ـ على الأقل ـ ما بقى على قيد الحياة واحد ممن يذكروننى !

اية صورة أوشك أن أرسمها ، بدلا من هذه ؟.. لنكف عن استباق شجون الحياة ، فسوف اشـغل قرائى بما هو فوق الكفاية من الأسى !

الكراسة الثانية

٤ ــ من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

بقدر ما بدت اللحظة ــ التى أوحى إلى فيها الخوف بفكرة الفرار ــ حزينة ، فان اللحظة التى اقدمت فيها على تنفيذ الفكرة بدت بهيجة .. فقد كنت أهجر بلدى ، واهلى ، وأسباب عيشى، ومواردى، وانا بعد صغيرا !.. كنت انصرف عن حرفة ــ وانا فى منتصف دراستها ــ دون ما معرفة كافية بها ، تمكننى من ان اكسب عيشى .. كنت أسلم نفسى لأهوال العوز ، دون اية وسيلة لإنقاذ نفسى منها !.. كنت أعرض نفسى ــ وانا بعد فى سن البراءة والضعف ــ لكل غوايات الرذيلة والقنوط .. كنت انشد ــ فى البعد ــ العذاب ، والخطأ ، والزلات ، والعبودية ، والموت تحت ربقة اشد طغيانا من تلك التى لم اطق احتمالها !.. هذا ما كنت أوشك أن افعل ، وهذا هو المستقبل المحتمل الذى كان يجب ان أقدره !.. فما أبعد هذا عن الخيال المزوق !.. كان الاستقلال الذى اعتقدت أننى اكتسبته ، هو الشعور الوحيد الذى اخذ يحركنى .. فقد اعتقدت ان بوسعى ــ وانا حر ، سيد نفسى ــ ان افعل كل شىء ، وان احقق كل شىء ، وليس على سوى أن ادفع نفسى فاذا بى ارقى واحلق فى الهواء !.. لقد دخلت الدنيا الواسعة وانا عامر القلب بالشعور بالأمان ، وبأن هذه الدنيا لن تلبث أن تفعم بصيت أعمالى ، وانني سأجد فى كل خطوة احتفالات ، وكنوزا ، ومغامرات ، واصدقاء على استعداد لأن يخدمونى ، وعشيقات تواقات إلى إرضائى !..

فليس على سوى أن اظهر ، فاشغل بال الدنيا بأسرها .. ومع ذلك فلم اكن راغبا فى الدنيا كلها ، إذ كان بوسعى أن استغنى عنها ، إلى حد ما !.. كانت الرفقة اللطيفة تكفينى ، دون ان اضنى نفسى ببقية الدنيا .. كنت فى تواضعى قد قصرت نفسى على مجال ضيق ، مختار ، بهيج ، يكون سلطانى عليه امرا محققا .. كان اقصى طموحى يتمثل فى نطاق غزو قلعة واحدة : فلو قدر لى أن اكون اثيرا لدى السيد والسيدة ، وحبيبا للابنة ، وصديقا للابن ، وحاميا للجيرة ، لقنعت .. فما كنت راغبا فى مزيد !

وفى ارتقاب هذا المستقبل المتواضع ، رحت اهيم حول المدينة لبضعة ايام ، متخذا مقامى لدى بعض فلاحين كنت اعرفهم . وقد استقبلونى فى كرم يفوق ما كان اى امرىء من سكان المدينة خليقا بان يبذل لى ، فقد رحبوا بى ، وآوونى ، وغذونى بكرم يفوق كل ما كنت استحق .. ولا سبيل إلى وصف عملهم بانه « احسان » ، إذ انهم لم يكونوا يخلعونه على بترفع او من .. وهكذا رحت اتنقل واهيم على وجهى ، حتى بلغت (كونفينيون) ، بمنطقة (سافوى) ، على بعد فرسخين من (جنيف) . وكان مطرانها يدعى السيد « دى بونفير » ، وقد استرعى انتباهى هذا الاسم الذائع فى تاريخ الجمهورية ، وكنت تواقا لأن اشهد سلالة « فرسان الملعقة » (١) .

---

(١) كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا دوق سافوى ، وكانوا يؤلفون

وسعيت إلى السيد « دى بونفير » ، فتلقانى فى رفق ، وتحدث عن زندقة (جنيف) ، وعن سلطان كنيسة الأم المقدسة ، ثم دعانى إلى العشاء . ولم اجد ما ارد به على حديث انتهى إلى هذه النتيجة ، بل اننى خرجت براى أوحى إلى بأن المطارنة الذين يحظون بمثل هذا العشاء ، لا يقلون صلاحا عن كهنتنا . وكنت ـ يقينا ـ اكثر معرفة من السيد « دى بونفير » ، ولكنى كنت لا اقل صلاحية كضيف عنى كمتبحر فى علوم اللاهوت ، كما ان نبيذ « فرانجى » الذى قدم على المائدة ، والذى لاح لى بديعا ، كان موفقا فى كسب كل حجة إلى صف المطران ، فقد كان خليقا بى ان استحيى من أن أوقف فم مثل هذا المضيف العجيب عن الكلام .. ومن ثم فقد رحت اسلم بحججه ، أو ـ على الأقل ـ احجم عن ان ابدى مقاومة صريحة . ولو ان احدا راى ما كنت ابدى من حذر ، لخالنى مخادعا . ولكن هذا غير صحيح ، فمن المحقق اننى إنما كنت أصدر فى تصرفى عن ملاطفة عامة ، إذ أن المجاملة ولين الجانب ليسا من الرذائل دائما ، بل انهما كثيرا ما يكونان من الفضائل . لا سيما لدى الشبان .. ذلك لأن الكرم الذى يعاملنا به اى شخص ، يقربه إلى قلوبنا ، فاذا ما جاريناه فى آرائه فلن يكون

=

عصبة فى جنيف ، فى عهد الاصلاح ، وقد أطلق عليهم لقب « فرسان الملعقة » ، لانهم كانوا يفخرون بانهم « اكلوا أعداءهم بالملعقة » !.. ومن ثم فقد كانوا يحملون ملعقة مدلاة من أشرطة حول أعناقهم . وكان يرأسهم فارس من آل « دى بونفير » .

ذلك عن تملق ، بغية استغلال كرمه ، وإنما هو تجنب لإغضابه ، او لمقابلة حسنته بسيئة .. إذ ما الصالح الذى كان السيد دى بونفير يبتغيه من وراء استقبالى ، او اكرامى ، او محاولة اقناعى ؟.. لا شيء سوى مصلحتى انا . هكذا انبأنى قلبى الشاب ، فهزنى عرفان الجميل ، وتوقير مثل هذا الكاهن الطيب . وكنت اشعر بتفوقى عليه فى المعرفة ، فلم اشأ أن اجازيه عن ضيافته بأن اذهله بهذا التفوق . ومن ثم لم يكن فى مسلكى شيء من النفاق ، فما فكرت قط فى ان اغير دينى ، بل إننى كنت ابعد ما اكون عن ان أروض نفسى سريعا على هذه الفكرة ، وما نظرت إليها إلا فى استنكار ساعد على ان يقصيها عنى امدا طويلا . إنما كانت كل رغبتى هى ان أتفادى اغضاب اولئك الذين كانوا يحسنون معاملتى سعيا منهم إلى تحويلى عن عقيدتى . كنت ابغى ان انمى حسن نواياهم ، وان ادع لهم الأمل فى النجاح ، وذلك بأن ابدى لهم اننى اقل مناعة مما كنت فى الواقع . وكان مسلكى فى ذلك يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة ، اللائى يعرفن كيف يثرن آمالا تفوق ما يعتزمن ان يحققنه احيانا فى سبيل بلوغ مآربهن ، دون ان يجدن بشيء ، أو يتقيدن بوعد !

كان العقل ، والشفقة ، ومراعاة النظام، تتطلب من الناس ان ينقذونى من الدمار الذى كنت أهرع لملاقاته ، وإعادتى إلى أسرتى ، بدلا من معاونتى على طيشى ! هذا ما كان كل إنسان صالح صادق التقوى خليقا بأن يفعله ، أو يحاول فعله . ولكن السيد « دى بونفير » وإن كان رجلا طيبا ، إلا انه لم يكن ـ

قطعا ــ بالرجل التقى .. بل إنه كان ــ على النقيض ــ
متعصبا ، لا يعرف عن التقوى سوى أنها عبادة الصور ،
وترديد التسابيح .. كان من ذلك النوع من المبشرين الذين
لا يملك الواحد منهم ان يفكر فى شىء لمصلحة عقيدته ، أفضل
من كتابة الاتهامات ضد قساوسة جنيف !.. وبدلا من ان
يردنى إلى موطنى ، استغل الرغبة التى كنت احس بها فى
الفرار من هذا الموطن ، وعمل على ان يجعل العودة متعذرة
على ، ولو شئتها !.. ومن المحتمل ان الطريق التى وجهنى
إليها كانت كفيلة بأن توردنى موارد التعاسة ، او ان تجعلنى
امعة لا وزن له .. ولكنه لم يكن يتطلع إلى ذلك او يحسب
حسابه ، فما كان يرى أمامه سوى نفس انقذت من الكفر
وردت إلى الكنيسة . وسواء اكنت شريفا أم وغدا ، فما قيمة
ذلك ما دمت أذهب إلى القداس ؟.. على ان المرء يجب
الا يعتقد أن مثل هذا التفكير مستغرب لدى الكاثوليك ، بل إنه
مألوف لدى كافة الأديان المتعصبة ، التى يعتبر الإيمان هو
الشىء الرئيسى فيها ، وليس الأعمال !

وقال لى السيد دى بونفير : « إن الله يدعوك ، فاذهب إلى
(انيسى) ، وهناك ستجد سيدة طيبة ، محسنة ، جعلها كرم
الملك فى مركز يمكنها من إنقاذ الأوراح من الخطأ الذى نجت هى
نفسها منه ! » . وكانت السيدة المقصودة هى « مدام دى
فاران » ، التى اعتنقت الكاثوليكية حديثا ، والتى اضطرها
القساوسة ــ فى الواقع ــ إلى ان تقتسم مع من كانوا يبيعون
عقيدتهم من الدهماء ، معاشا قدره الف فرنك كانت تتلقاه من
ملك سردينيا. وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيدة

طيبة محسنة ، فقد كنت جد تواق إلى ان احصل على ما يفى
بحاجاتى ، وليس إلى ان أحظى بصدقات !.. كما ان التفرغ
للدين لم يكن يستهوينى . ومع ذلك فقد حملت نفسى ــ فى
شىء من العناء ــ على ان اسعى إلى (انيسى) مدفوعا بالحاح
السيد دى بونفير ، وبضغط الجوع ، وبمتعة الرحيل فى سبيل
غاية محددة . وكان بوسعى ان ابلغ وجهتى فى يوم واحد ،
ولكننى استغرقت فى سفرى ثلاثة ايام ، إذ لم اكن فى عجلة من
امرى . ولم أجرؤ ــ فى تلك الاثناء ــ على ان الج قصرا ، او
اقرع بابا ، فقد كنت بطبعى شديد الخجل . ولكنى كنت اغنى
تحت النوافذ التى يراودنى الأمل فى ان يكون خلفها من
يسمعنى . وكنت أصدم عندما انهك رئتى بالجهد المتواصل ،
ثم لا ارى سيدات ولا عذارى ينجذبن إلى صوتى أو معانى
اغانى ، لا سيما وأننى كنت أعرف منظومات رائعة علمنيها
زملائى ، وكنت اغنيها فى إلقاء لا يقل عن معانيها روعة !

ووصلت اخيرا ، فرأيت « مدام دى فاران » . ولقد حددت
هذه الفترة من عمرى شخصيتى ، فلست اقوى على ان احمل
نفسى على المرور بها مرا سريعا .. كنت فى منتصف العام
السادس عشر من عمرى ، وكنت بديع التكوين ، دون أن اكون
ما يسمونه « فتى مليحا » .. كنت صغير القدم ، مستوى
الساق ، رضى الخلق ، ذا قسمات معبرة ، وفم صغير بديع ،
وشعر فاحم ، وحاجبين اسودين ، وعينين صغيرتين غائرتين
قليلا ، ولكنهما ــ مع ذلك ــ كانتا ترسلان بقوة تلك النار التى
كانت تتاجج فى دمى !.. على اننى ــ لسوء الحظ ــ لم اكن

أعرف شيئا عن ذلك ، فما خطر لى قط ـ خلال حياتى ـ ان افكر فى مظهرى الشخصى ، اللهم إلا بعد أن فات أوان الإفادة منه !.. وكان الجبن المألوف فى مثل سنى هذه يرتبط بوجل ناشىء عن شخصية جبلت على الحب ، فهى دائما فى هم من خشية الإساءة إلى احد . هذا إلى جانب اننى وإن أوتيت عقلا حسن التكوين ، نشىء على التسامح ، إلا اننى لم اكن قد رايت الدنيا ، وكانت تعوزنى آداب السلوك .. وبدلا من ان تسد معرفتى هذا النقص ، فانهـا لم تؤد إلا إلى مضاعفة خجلى وجبنى ، إذ اظهرتنى على مدى حاجتى الماسة إلى هذه الآداب!

ومن ثم ، فان خوفى من أن يخفق مظهرى ـ فى أول لقاء مع مدام دى فاران ـ فى ان يكسب عطفها ، دفعنى إلى تجشم متاعب اخرى . فنظمت رسالة بديعة ، فى أسلوب خطابى ، خلطت فيها عبارات منتقاة من الكتب ، بتعبيرات مكتسبة من الزملاء العمال ، وكشفت عن كل بلاغتى ، لكى اكسب رضاء السيدة . وارفقت برسالتى خطاب السيد دى بونفير ، ثم سعيت إلى المقابلة التى كنت ارهبهـا !.. ولم تكن مدام دى فاران فى البيت ، بل قيل لى انهـا بارحتـه لتوها إلى الكنيسة ، إذ كان اليوم يوم احد السعف من عـام ١٧٢٨ ، فهرعت فى اثرها ، ورأيتها ، فلحقت بهـا وخاطبتها . وخليق بى أن اذكر البقعة التى التقينا فيها ، فكم رويتهـا بدمعى وغطيتها بقبلاتى ، منذ ذلك الحين ! وكم اتمنى ان احيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب . كم أود أن اجتلب إليهـا تمجيد العالم وخشوعه .. وخليق بكل من يحب تكريم ذكريات

خلاص النفوس البشرية ، ألا يقترب منهـا إلا وهـو راكع على ركبتيه !

كانت تلك البقعة دربا يمتد خلف منزل السيدة ، ويصـل بين جدول ـ إلى اليمين ـ يفصل البيت عن الحديقة ، وسياج الفنـاء ـ إلى اليسـار ـ ويؤدى إلى باب خلفى لكنيسـة الفرنسيسكان(١). وفى اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتياز هذا الباب ، سمعت صوتى ، فالتفتت خلفها . وكم اذهلنى منظرها !.. كنت قد تمثلتهـا عجوزا ، عابسـة ، متعصبة فى تدينها ـ فما كانت السيدة التقيـة التى تعـرف السيد دى بونفير لتعدو هذه الصورة ، فى رأيى ! ـ بيد اننى رايت بدلا من هذه الصورة وجهـا يفيض بالسحر ، وعينين زرقـاوين جميلتين ـ مفعمتين رقة ـ وبشرة تبهر البصر ، ومعالم عنق فاتن .. لم يفلت شىء من النظرة السريعة التى القاها المريد الفتى ـ فقد غدوت منذ تلك اللحظة مريدا وتلميذا متعلقا بها ـ وقد داخلنى اقتناع بأن دينا يبشر به حواريون من قبيل هـذه السـيدة ، لابد وأن يقـود إلى الفردوس ! وتنـاولت منى المراة ، مبتسـمة ، الرسـالة التى قدمتها

---

(١) أصحاب الحبال : وهم أفراد طائفة دينية انشأها القديس فرانسيس الاسيسى فى سنة ١٢٢٣ . وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعة انشأها « دانتون » و « مارا » و « ديمولان » ـ زعماء الثورة الفرنسية ـ فى سنة ١٧٩٠ . وكانت تعقد اجتماعاتها فى دير الفرنسيسكان العتيق بباريس .

إليهـا بيد مرتجفة ، ففضتهـا ، والقت نظـرة على ما كتب السيد دى بونفير ، ثم ارتدت إلى ما كتبتـه أنـا فقرأته كله ، وهمت بأن تعيد قراءته لولا ان نبههـا خادمها إلى ان الوقت قد حان لتلج الكنيسة ، فقالت لى بلهجة هزت كيانى : « حسنا يا صغيرى .. إذن فانت تهيم فى البلاد ، فى مثل هذه السن ؟.. إنه لأمر يستحق الرثاء حقا ! » .. ولم تنتظر حتى أجيب ، بل اردفت : « اذهب فانتظرنى ، وسلهم أن يقدموا لك فطورا .. ولسوف آتى بعد الصلاة لاتحدث إليك » .

كانت « لويز اليـونور دى فاران » شابة تنتمى إلى آل « لاتوردى بيل » ، وهى أسرة عريقـة ونبيلـة من أسرات (فيفاى) إحدى مدن مقاطعة (فودن) . وكانت قد تزوجت وهى جد صغيرة من السـيد دى فاران ـ من آل لويس ـ وكان الابن الأكبر للسيد دى فيلاردان ، من (لوزان) . ولم يكن هـذا الزواج ـ الذى لم يعقب ولدا ـ زواجا هنيئا ، فلم تلبث السيدة دى فاران ـ تحت تأثير حزن عائلى ـ أن انتهزت فرصة وجود الملك فيكتـور اماديو فى (ايفيان) ، فعبرت البحيرة ، والقت بنفسها عند قدمى هذا الأمير .. ومن ثم هجرت زوجها وأسرتها وبلادها ، فى فورة حمقاء تشبه فورتى ! ـ وقد وجدت متسعا من الوقت بعد ذلك للندم ، كما فعلت أنا ـ وإذ كان الملك مشغوفا بأن يظهر بمظهر الكاثوليكى الغيور ، فانه اخذ السيدة تحت حمايته ، ووقف عليها معاشا



وفى اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتيـاز هـذا البـاب ، سـمعت صوتى ، فالتفتت خلفها

سنويا قدره ١٥٠٠ جنيه بييمونتى[١] .. وهو مبلغ كبير يعد إسرافا من أمير كان بطبعه غير ميال للسخاء .. على انه علم بعد ذلك بما قيل ـــ بسبب استقباله إياها ـــ من انه أحبها ؛ فما كان منه إلا أن ارسلها إلى (انيسى) فى حماية فصيلة من حرسه ، حيث نبذت العقيدة البروتستانتية فى دير (الزيارة) ، تحت إرشاد روحى من « ميشيل جابرييل دى برنيكس » ، الأسقف الأسمى لجنيف .

وكانت قد قضت ست سنوات فى (انيسى) عندما قدر لى أن أصل إليها ، وكانت وقتئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها ، إذ ولدت فى بداية القرن . ولقد كان جمالها من النـــوع الذى يبقى مع الزمن ، إذ انه يقتـــرن بالمحيـــا اكثر منـــه بالملامح والقسمات .. كما انه كان ـــ لديها ـــ فى باكورة تألقه . فكان لها طابع لطيف ، حنون ، وشكل رقيق ، وابتسامة ملائكية ، وفم يشبه فمى ، وشعر أشهب خفيف نادر الجمال ، ترسله فى إهمال كان يكسبها مظهرا اخاذا . وكانت صغيرة القد ، بل أنها كانت قصيرة ، وإن لم يكن هذا يعيبها . على انها أوتيت رأسا وصدرا ويدين وذراعين لا تملك العين ان تقع على أجمل منها .. ولقد كانت تربيتها جد عجيبة : كانت قد فقدت أمهـــا عند مولدها ـــ مثلى ـــ وتلقت العلم فى غير انتظام ، كلما عن

---

(١) نسبة الى ولاية (بييمونتى) ـــ وتكتب بالحروف اللاتينية (بييد مونت) ولكن التاء تغفل فى النطق ـــ وتقع على حدود فرنسا وسويسرا ، فى الشمال الغربى لإيطاليا .

لها أو صادفتها الفرصة .. فأخذت قدرا ضئيلا من مربيتها ، وقليلا من أبيها ، وقليـــلا من مدرسـيها ، وحظـــا وافرا من عاشقيها ، لا سيما من شخص منهم يدعى السيد «دى تافيل» ، كان رجل ذوق وعلم ، فكان يزين المرأة التى تتجه إليها عواطفه بروائع معرفته . ولكن تعدد أنواع المعرفة المتباينة ـــ بهـــذه الكثرة ـــ جعل كلا منها يعرقل الآخر ! ولما كانت السيدة قـــد واصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم ، فان إدراكها السليم ـــ بطبعه ـــ لم يصب أى تحسن . ومن ثم فانها ـــ برغم إلمامها بشىء من أصول الفلسفة وعلم الطبيعة ـــ ظلت تحتفظ بما كان لأبيها من ميل إلى الطب التجريبى[١] والكيمياء ، وكانت تحضر أنـــواع « الاكسـير » والأصـــباغ ، والبلاسم (المراهم) ، والمساحيق السامية[٢] . وكانت تزعم أنها تمتلك عقاقير سرية ! ولقد استغل مدعو الطب من الدجالين ضعفهـــا . فتسلطوا عليهـــا ، وأعنتوها ، وافلسوها .. وبين البواتق والعقاقير بددوا ذكاءها ، ومواهبها ، ومفاتنها التى كانت خليقة بأن تبهر بها أرقى مجتمع !.. ومع ذلك ، فبالرغم من أن الأوغاد الخبثاء اساءوا استغلال تربيتها التى لم تلق التوجيه الصالح ، لكى يطفئوا ضياء عقلها ، إلا ان قلبها السامى صمد للمحنة ، وظل دائما على سموه .. وما تغيرت شخصيتها الودودة اللطيفة ، ولا عطفها على التعساء ، ولا طيبتها التى لم يكن لها حـــد ،

---

(١) الطب التجريبى هنا يقصد به ذلك الطب الذى تكتسب معرفته بالممارسة والتجربة ، وهو ما يعرف لدى العامة بطب « البركة » .

(٢) المساحيق السامية مساحيق كانت تعزى اليها ميزات عالية .

ولا خلقها البشوش ، الصريح ، المستقيم .. بل إنها حين عدا عليها الكبر ، واحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الأنواع ، ظلت سجيتها الوادعة الجميلة ، محتفظة ـــ حتى نهاية عمرها ـــ بكل ما كان بها من بهجة فى اهنأ الأيام !

ولقد كانت أخطاؤها راجعة إلى معين لا ينضب من النشاط الذى كان فى حاجة مستمرة إلى شاغل . ولم تكن تبغى شيئا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء ، وإنما كانت تبغى مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها . فلقد خلقت لتسهم فى الشئون الهامة . ولو ان « مدام دى لونجفيل » كانت فى مكانها لكانت مجرد دساسة تنصرف إلى المؤامرات .. اما هى ، فلو أنها كانت فى مكان مدام دى لونجفيل لحكمت الدولة وساست أمورها ! ولكن قدر لمواهبها ان تتوفر فى غير المجال الصالح لها ، فاذا هذه المواهب التى كانت خليقة بأن تجلب عليها الشهرة لو انها كانت فى مركز أسمى ، تؤدى إلى دمارها وهى فى المركز الذى عاشت فيه !.. ذلك انها كانت ـــ فى كل ما يقع فى مجال طاقتها العقلية ـــ ترسم خطتها مكبرة فى راسها ، فترى غايتها مضخمة ، مما كان ينجم عنه استخدامها وسائل اكثر تناسبا مع آرائها منها مع قوتها .. ولقد اخفقت بفضل أخطاء غيرها . وعندما فشل مشروعها ، افلست ولما يكد سواها يخسر شيئا !.. على ان هذا الشغف بالأعمال التجارية ـــ الذى اضر بها ابلغ الضرر ـــ كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى فى عزلتها الرهبانية ، إذ حال بينها وبين البقاء فى هذه العزلة ما بقى من عمرها ، كما كانت تعتزم . فما كان

من المحتمل ان تليق حياة الراهبات المنتظمة المتقشفة ، ولا الثرثرة المنبعثة عن الخمول والكسل ، بعقل كان فى حركة مستمرة ، وكان يبتكر فى كل يوم نظما جديدة ، ويحتاج إلى الحرية ليكرس ذاته لهذه النظم !

وكان أسقف برنيكس الطيب يشبه «فرانسوا دى سال»(١) فى كثير من النواحى ، وإن لم يعد له مهارة .. كما ان مدام دى فاران ـــ التى كان يدعوها بابنته ـــ كانت تشبه « مدام دى شانتال »(٢) فى كثير من النواحى ، وكانت خليقة بان تشبهها ايضا فى اعتزالها الناس ، لولا ان حياة الدير الخاملة كانت بغيضة إليها . ولم يكن عن نقص فى حمية هذه السيدة الطيبة أن عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التى تتطلبها الرهبنة ، والتى كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثة عهد بالعقيدة ، تعيش تحت إرشاد أسقف .. فمهما يكن الباعث الذى اغراها على أن تبدل عقيدتها ، فانها كانت صادقة الإخلاص ـــ عن يقين ـــ للعقيدة الجديدة التى اعتنقتها . ومن المحتمل أن تكون قد ندمت على اقدامها على ذلك ، إلا ان من الاكيد انها لم ترغب قط فى النكوص، فهى لم تمت على مذهب الكثلكة فحسب ، بل انها برهنت خلال حياتها على انها كانت كاثوليكية صالحة . وإنى لأجرؤ ـــ وانا الذى يعتقد أنه قد

---

(١) أسقف جنيف (١٥٦٧ ـــ ١٦٢٢) .

(٢) سيدة امتازت بتقواها ، وهى التى أسست نظام راهبات «الزيارة» ، وقد اقر رهبنها البابا كلمينت لثالث عشر .

اطلع على سريرتها ــ على أن أؤكد أن عزوفها عن أن تبدو فى ثياب التقوى علانية إنما كان ناجما عن استبشاعها للتصنع . كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها أن تظهرها للملأ .. على أن هذا ليس بمجال الحديث عن مبادئها ، فلسوف تسنح لى فرص أخرى للخوض فيها .

وعلى الذين ينكرون تعاطف الأرواح أن يفسروا ــ إن استطاعوا ــ كيف أن مدام دى فاران أوحت إلى منذ اللقاء الأول ، بل منذ الكلمة الأولى ، والنظرة الأولى ، بثقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها ، فضلا عما أوحت إلى به من مشاعر الولاء والتعلق ، ولو سلمنا بأن أحاسيسى نحوها كانت حبا حقيقيا ــ وهو ما سيبدو موضع شك ، على الأقل ، لأولئك الذين يتتبعون تاريخ علاقتنا ــ فكيف تسنى أن يكون هذا الحب منذ بدايته مقترنا بمشاعر قل أن أوحى بها الهوى ــ وأعنى بذلك طمأنينة القلب ، والسكينة ، والسرور ، والثقة ، والاعتداد ؟ ــ كيف تسنى أننى عند ما سعيت لأول مرة إلى امرأة لطيفة ، مهذبة ، ذات جمال باهر .. إلى سيدة أرفع منى مقاما ــ وما كنت قد خاطبت يوما مثيلة لها ــ وكان مصيرى، بطريقة ما ، يتوقف عليها ، وفقا لمدى ما قد تستشعره من ميل للأخذ بيدى .. أقول : كيف تسنى ــ رغم كل هذا ــ أن أشعر لفورى بانطلاق، وبارتياح تام ، وكأننى كنت واثقا كل الثقة من أننى سأروق لها ؟.. كيفَ تسنى أننى لم أحس ــ ولو للحظة واحدة ــ بأية حيرة ، أو ارتباكٍ ، أو تحرج ؟.. لقد كنت بطبيعتى خجولا ،

سهل الاضطراب ، لا أعرف شيئا من الدنيا ، فكيف تسنى لى منذ اليوم الأول ، بل اللحظة الأولى ، أن أتخذ معها المسلك السهل ، واللغة الرقيقة ، واللهجة الأليفة التى سادت بيننا بعد ذلك بعشر سنوات ، عند ما جعل الود الوثيق هذه الأمور طبيعية ؟.. فهل من المحتمل أن يحب المرء بدون غيرة ــ ولست أقول بدون رغبات، فإن هذه كانت متوفرة لدى ! ــ أفلا يرغب المرء فى أن يعرف على الأقل ، من هدف عواطفه ، ما إذا كان حبه يقابل بحب مثله أم لا ؟.. الواقع أنه ما خطر لى فى حياتى أن أوجه إليها هذا السؤال ، ولا أن أسأل نفسى ما إذا كنت قد أحببتها !.. كما أنها لم تبد فضولا نحوى من هذا القبيل . كان ثمة شىء فذ فى مشاعرى نحو هذه المرأة الساحرة ، ولسوف يصادف القارىء ــ فى سياق حكايتى ــ عجائب غير مرتقبة !

كان الموضوع يتعلق بما سوف يصير إليه أمرى ، وقد استبقتنى السيدة للغداء كى نتحدث بشأن مستقبلى . وكانت تلك أول مرة فى حياتى تخلت عنى فيها شهيتى ، حتى لقد قالت وصيفة السيدة ــ التى قامت بخدمتنا على المائدة ــ إننى كنت أول قادم من سفر ، فى مثل سنى وطبقتى ، رأته فى مثل هذه الحال . ومع أن هذه الملاحظة لم تنل منى فى نظر سيدتها ، إلا أنها أصابت مرمى فى نفس طفيلى كبير كان يتناول الغداء معنا ، وكان قد التهم وحده ما يكفى ستة أفراد! أما أنا ، فقد كنت فى حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لى سبيلا إلى الأكل . كان قلبى يتغذى من شعور جديد على كل الجدة ، وقد ملأ كل كيانى ، ولم يدع بنفسى ميلا إلى أى شىء آخر !

ورغبت مدام دى فاران فى أن تعرف دقائق تاريخ حياتى القصيرة ، فاستعدت وانا ارويها كل ما فقدت خلال تتلمذى فى الحرفة من حماسة ومرح . وكنت كلما استثرت اهتمام تلك الروح السامية ، ازدادت هى إشفاقا على مما اعتزمت أن اعرض حياتى له . ولم تجرؤ على أن تنصحنى بالعودة إلى جنيف ، فقد كان ذلك — بالنسبة لموقفى — عملا ينطوى على خيانة للعقيدة الكاثوليكية ، كما أنها كانت تعرف تمام المعرفة كيف أنها كانت محوطة بالرقابة ، وكيف أن كلماتها كانت توزن بميزان دقيق . على انها حدثتنى بلهجة مؤثرة عن أسى أبى ، حتى لقد كان من السهل أن يرى المرء أنها كانت تحبذ عودتى كى أواسيه . ولم تكن تدرى كيف أنها كانت تترافع بقوة ضد نفسها ، دون ان تدرى . إذ اظننى قد قلت من قبل إن عقلى كان قد استقر على قرار ، فكنت كلما ازدادت كلمات السيدة ذلاقة واقناعا ، وكلما ازدادت تغلغلا فى فؤادى ، ازددت عجزا عن ان افكر فى الانفصال عنها ! كنت اشعر بأن العودة إلى جنيف بمثابة إقامة عوائق لا سبيل إلى تذليلها بينى وبين هذه السيدة ، ما لم اتشبث بهذه الخطوة التى اتخذتها . ومن ثم ظللت صامدا فى موقفى . وإذ رات مدام دى فاران ان جهودها غير مجدية ، لم تمعن فى الالحاح ، حتى تتفادى إحراج نفسها ، بيد أنها قالت لى وهى ترمقنى فى إشفاق : « أيها الصغير البائس ، يجب ان تذهب إلى حيث يدعوك الله ، ولكنك ستتذكر حديثى عندما تكبر ! » . . واعتقد انها لم تكن تتصور إذ ذاك مدى القسوة التى تقدر لهذه النبوءة أن تتحقق بها !

وكانت المشكلة عسيرة . وكيف كان بوسعى — وانا فى مثل تلك السن الصغيرة — أن أجد موردا للعيش بعيدا عن وطنى؟ . . كنت جد بعيد عن أن أتقن حرفتى وأنا لم أكد اتم نصف فترة التعلم والمران . . حتى لو أننى كنت أتقنها ، فقد كنت خليقا بأن اعجز عن كسب قوتى منها فى إقليم (سافوى) ، لأن الإقليم كان أفقر من أن يجد ما ينفقه على الفنون . . على أن الطفيلى الذى كان يلتهم الأكل ـ نيابة عن السيدة وعنى ـ وجد نفسه مضطرا إلى التوقف كى يريح فكيه ، فانتهز الفرصة وقدم اقتراحا قال إنه مستلهم من السماء ، وإن كان خليقا — إذا حكمنا عليه بنتائجه — بأن يكون مستلهما من مكان آخر مضاد للسماء . وكان الاقتراح يوحى بأن اذهب إلى (تورين) حيث أجد عونا روحيا وبدنيا فى دار للضيافة اقيمت للوعظ والتعليم الدينى ، إلى ان يتاح لى أن انضوى تحت لواء الكنيسة ، فاستطيع ان احصل على عمل بفضل اريحية المحسنين . واستطرد صاحبى قائلا : « أما نفقات رحلته ، فان سيادة الاسقف سيتكرم بلا شك بتوفيرها ، إذا اقترحت السيدة هذا العمل الخيرى عليه. ولا مراء كذلك فى ان السيدة « البارونة » وتابع قوله وهو ينحنى على طبقه : « وهى جد محسنة ، ستتوق هى الأخرى إلى المساهمة » . ووجدت فكرة الاحسان بهذا الشكل جد بغيضة ، فأثقل الألم قلبى ولم أنبس ببنت شفة . أما مدام دى فاران ، فقد اكتفت بأن قالت — دون أن تتحمس فى قبول الاقتراح — إن كل إنسان جدير بأن يصنع الخير بقدر ما فى وسعه ، وأنها على استعداد لأن تتحدث إلى الأسقف بهذا الصدد . ولكن صاحبنا اللعين ، الذى لم يكن له

فى الامر شـــأن يذكر ، والذى كان يخشى الا تتحدث السيدة إلى الأسقف بالطريقة التى كان يرجوها ، سارع إلى دعـــوة المحسنين ، وبذل جهده فى إقناع القساوسة ببراعة .. فلما رغبت مدام دى فاران ـــ التى كانت تخشى على من الرحلة ـــ فى الحديث إلى الأسقف عنها ، وجدت ان كل شىء قد دبر . واسلمها الرجل لفوره النقود التى خصصـــت لنفقات رحلتى المتواضعة ، فلم تجسر على الالحاح فى بقائى ، إذ كنت اقترب من السن التى لا يليق عندها بامراة فى عمر السيدة ان تعبر عن رغبتها فى استبقاء شاب معها !

واضطررت ـــ بعد إذ دبرت رحلتى بهـــذا الشكل ـــ إلى الانصياع ، بل اننى اقدمت على الرحلة دون إحجام . ومع ان (تورين) كانت ابعد من (جنيف) ـــ كما قدرت ـــ إلا انها ، كعاصمة للاقليم ، كانت اوثق اتصالا بانيسى من اية بلدة تابعة لعقيدة مختلفة ، وفى أرض اجنبيـــة . وإلى جانب اننى كنت مقدما على الرحيل إطاعة لمدام دى فاران ، فاننى اعتبرت نفسى باقيا تحت رعايتها ، فكان هذا اهم عنـــدى من ان أقيم على مقربة منها . ثم فكرة الانطلاق فى رحلة طويلة اثارت شغفى بالتجوال والترحال ، وهو شغف كان قد بدأ يعلن عن نفسه ، وبدا لى ان من التجارب البديعة ان اعبر الجبال ـــ وانا فى تلك السن ـــ وان ارفع نفسى عن كل رفاقى بقدر ارتفاع جبـــال (الالب) .. إن فى مشاهدة مختلف الأقطار لسحرا لا يكاد اى امرىء من أبناء (جنيف) يقوى على مقاومته . ومن ثم فقـــد قبلت الرحيل . وكان ذلك الطفيلى مزمعا ان يسافر مع زوجته

خلال يومين ، فعهدوا بى إلى رعايته ، كمـــا عهدوا بنقـــودى ـــ التى ضاعفتها مدام دى فاران ـــ إليه . على أنها منحتنى كذلك مبلغا بسيطا لمصروفى الخاص ، وزودتنى بنصحها .. وفى يوم الأربعاء من « اسبوع الآلام » ، بدانا سفرنا .

❊ ❊ ❊

وفى اليوم التالى لرحيلى ، وصل ابى إلى (انيسى) ـــ متعقبا اثرى ـ مع صديقه السيد ريفال ، وهو ساعاتى مثله ، موهوب بل مشحوذ الذكاء ، كان ينظم اشعارا تفوق اشعار «لاموت» ولم يكن يقل ابداعا للكلام عنه بالشعر ، فضـــلا عن انه كان طيبا فى كل ناحية . بيد أن ميله للأدب ـــ فى غير مجاله ـــ لم يجد عليـــه من الثمار ســـوى دفع احـــد ابنائه إلى اعتـــلاء المسرح !.. ولقد قابل السيدان ـــ ابى وصاحبه ـــ مدام دى فاران ، واكتفيـــا بان رثيـــا لحظى ، بدلا من ان يتبعـــانى ويستردانى ، وهو امر كان من اليسير عليهما اداؤه ، إذ انهما كانا يمتطيان جوادين ، فى حين اننى كنت اسير على قدمى ! ولقد حذا خالى « برنار » حذوهما ، فوصل إلى (كونفينيون) ، ثم ارتد إلى (جنيف) بعد أن سمع اننى كنت فى (انيسى) .. وكانما كان اهلى متحالفين مع نجمى المنحوس على ان يسلمونى إلى المصير الذى كان يرتقبنى . ولقد ضاع اخى بفضل إهمال شبيه بهـــذا ، وكان ضياعه شـــبه نهائى ، حتى ان احدا لم يعرف قط ما جرى له !

وما كان أبى رجلا شريفا فحسب ، وإنما كان ذا استقامة مشهود بها ، وقد أوتى نفسا من تلك النفوس القوية القادرة

على جليل الفضائل . وكان فضلا عن ذلك ابا صالحا ، لاسيما بالنسبة لى . فقد كان يحبنى ويخصنى بحنان فياض ، ولكنه كان يحب مسراته كذلك ، وقد اكتسب ـ مذ اصبحت اعيش بعيدا عنه ـ ميولا اخرى احالت عاطفته الأبوية فاترة بعض الشىء . وكان قد تزوج مرة اخرى فى (نيون) ، ومع ان زوجته لم تكن فى سن تمكنها من ان تمنحنى اخوة ، إلا انها كانت ذات اقارب واهل ، مما خلق لأبى أسرة جديدة ، واهدافا جديدة ، ووسطا جديدا ، فلم يعد يكثر من استعادة ذكراى .. وكان قد اكتهل ، وليس لديه ما يعيش عليه ، ولكنى واخى كنا قد ورثنا عن امنا ثروة بسيطة ، كان من حق ابى ان يحصل على ريعها فى غيابنا . ولم تواته هذه الفكرة مباشرة ، ولا هى حالت بينه وبين اداء واجبه ، ولكنها كانت تتغلغل خفية فى نفسه ، دون ان يفطن إليها ! وقد خففت ـ فى بعض الأحيان ـ من تحمسه الذى كان خليقا بأن يدفعه إلى الانطلاق فى تعقب اثرى ، كما حدث عقب رحيلى عن (انيسى) . وهذا ـ فيما اعتقد ـ هو السر فى انه ، وإن كان قد سعى إلى (انيسى) للبحث عنى فى الواقع ، فانه لم يتبعنى إلى (شامبيرى) ، حيث كان حريا بأن يعثر على ولابد. وكان هذا هو السر كذلك فى انه كان يستقبلنى عندما ازوره ـ كما صرت افعل كثيرا بعد فرارى ـ بعناقات الأب وقبلاته ، ولكن .. دون ان يبذل اى جهد صادق لاستبقائى معه !

على ان هذا التصرف من جانب ابى ـ الذى كنت اعرف حنانه واستقامته تمام المعرفة ـ قادنى إلى تأملات فى حالى ،

ساهمت بدرجة غير طفيفة فى استبقاء قلبى سليما . فمنها استنتجت الدرس الاخلاقى العظيم ، الذى قد يكون الدرس الأوحد ذا القيمة العملية : تفادى تلك المواقف التى تعترض الحياة ، والتى تدفع واجباتنا إلى التضارب مع مصالحنا ، والتى تبصرنا بما قد يكون لنا من نفع فى مصائب الغير .. فمن المؤكد ـ فى مثل هذه المواقف ـ انه مهما يكن حبنا الفضيلة صادقا ، فلابد من انه سيأخذ فى الضعف ، دون ان ننتبه إلى ذلك ـ إن عاجلا او آجلا ـ حتى يصبح ظالما ، شديدا فى تصرفاته ، وإن لم يكف عن ان يظل منصفا طيبا فى اعماق قلوبنا !

هذا المبدأ الذى انطبع فى قرارة فؤادى ، والذى هدانى ـ وإن جاءت هدايته متأخرة ـ فى كل مسلكى فى الواقع ، هو احد المبادىء التى جعلتنى ابدو مخلوقا شديد الغرابة والحماقة فى نظر العالم ، وفى نظر معارفى قبل سواهم ! ولقد عيب على اننى أحاول ان اظهر فذا ، مغايرا لكل من عداى ، والحقيقة هى اننى لم أجشم نفسى قط عناء التصرف على شاكلة غيرى من الناس ، أو على نقيضهم ، وإنما كنت أتوق مخلصا إلى ان افعل ما كنت اراه صوابا . فكنت ابتعد ـ بقدر ما فى وسعى ـ عن المواقف التى تجعل مصالحى متعارضة مع مصالح الغير ، والتى قد توحى إلى ـ من جراء ذلك ـ برغبة خفية فى إيذاء الغير ، ولو دون إرادة منى !.. ولقد اراد سيدى اللورد مارشال ان يثبت اسمى فى وصيته ـ منذ عامين ـ فعارضت ذلك بشدة ، وقلت له اننى لا ابغض

شيئا فى الدنيا ، قدر أن أعلم ان اسمى مثبت فى وصية أحد ، وفى وصيته هو بالذات . ولقد نزل أخيرا عن رغبته ، ولكنه أصر على أن يمنحنى معاشا مدى الحياة ، فلم أعارض . ولسوف يقال إننى كسبت بهذا التعديل ، وهو قول قد يكون صحيحا ، ولكن .. أواه ايها الاب وايها المحسن !.. إننى لأوقن بانه إذا قدر لى ــ لتعاستى ــ ان أعيش بعدك ، فاننى سأفقد بفقدانك كل شىء ، ولن اكسب شيئا !

هذه ــ فى رايى ــ هى الفلسفة الحقة ، بل الفلسفة الوحيدة التى تناسب القلب البشرى فى الواقع . وإنى لأزداد فى كل يوم تأثرا بمتانتها وثباتها ، حتى أننى عرضتها ــ تحت اضواء متعددة ــ فى كتاباتى الحديثة ، ولكن الجمهور سطحى الإدراك ، لا يعنى إلا بالقشور ، فلم يدر كيف يستوعبها . ولو قدر لى ان اعيش ، بعد أن افرغ من مهمتى الحاضرة ، حتى اضطلع بمهمة جديدة ، فاننى اعتزم ان أقدم ــ على غرار ما فعلت فى «اميل»(١) ـ مثالا جذابا رائعا لهذه الفلسفة ، يضطر القارىء إلى أن يعنى به . ولكن .. لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر ، فقد آن لنا أن نواصل الرحلة !

***

وجدت الرحلة ابدع مما توقعت ، ولم يكن مرافقى الطفيلى من السماجة بالقدر الذى كان يلوح عليه : كان رجلا

(١) يقصد بهذه الاشارة ما أورده فى الخطاب العشرين ، بالجزء الثالث من قصته الطويلة « هيلويز الجديدة » .

فى أواسط العمر ، له شعر أسود بدأ الشيب يدب فى حوافه ، وقد بدا كجندى من قاذفى القنابل ، وأوتى صوتا جهوريا .. وكان عارم البشاشة ، يغذ فى سيره ، ويسرف فى اكله ، ويمارس كافة أنواع الحرف ، دون أن يجيد شيئا منها . وأعتقد أنه كان يزمع إنشاء مصنع ما فى (انيسى) ، ولم تتخل مدام دى فاران عن تحبيذ فكرته ، وكان لابد له ــ كى يقدم على المحاولة ــ من الحصول على موافقة الوزير ، ولهذا كان فى طريقه إلى (تورين) ، مزودا بالمال . وكان صديقنا هذا ذا براعة فى الدس والتآمر ، حريصا دائما على ان يتقرب إلى رجال الدين ، وبينما كان يبدى تلهفا عظيما على اداء الخدمات لهم ، استطاع أن يقتبس عن مدرستهم أسلوبا وذلاقة ورعتين كان لا يفتأ يستغلهما مباهيا بأنه واعظ كبير .. بل إنه استطاع أن يحفظ آية من التوراة باللاتينية ، كان لا يكف عن ترديدها ألف مرة فى اليوم ، فيبدو وكأنه يعرف ألفا منها !.. ونادرا ما كان يعوزه المال إذا ما عرف ان لدى سواه نقودا .. كان بارعا اكثر منه أفاقا ، وكان عندما يردد « كابوشينياته »(١) بلهجة ضابط تدريب المجندين ، يشبه الراهب بطرس(٢) عندما كان يدعو إلى الحرب الصليبية ، ملقيا خطبه الدينية وهو ممسك بسيف !.. اما زوجته ــ السيدة سابران ــ

(١) خطب وعظات دينية غثة ، كتلك التى كان يلقيها الرهبان «الكابوشان» .

(٢) يعتبر بطرس الراهب أهم محرض على شن الحملة الصليبية الأولى ، وكان يطوف بقرى أوربا على ظهر بغلة ، ويخطب فى الناس ممسكا سيفا ، ويتخذ من الغيرة الدينية وسيلة لتحريك الأحقاد .

فكانت امراة طيبة ، اهدأ بالنهار منها بالليل . ولما كنت انام
فى حجرتها ، فان نومها الصاخب كثيرا ما كان يوقظنى ، وكان
خليقا بان يستبقينى ساهرا لو اننى علمت سببه ، ولكنى لم
اشعر باتفه ريب ، وقد ادى غبائى فى هذه الناحية إلى وقوع
عبء تعليمى على الطبيعة وحدها !

ومضيت فى رحلتى مع مرافقى التقى وزميلته الصاخبة ،
دون أن تعكر صفو سفرى اية بادرة . كنت أسعد ، بدنيا
وذهنيا ، مما كنت طيلة عمرى . كنت فتى قويا ، موفور
الصحة ، خلوا من الهم ، مفعما بالثقة فى نفسى وفى الغير . كنت
استمتع بتلك الفترة الغالية — برغم قصرها — من الحياة ..
اللحظة التى تنبسط فيها الحياة على سعتها ، فتضخم من
شعورنا بكل حواسنا واحاسيسنا ، وتجعل الطبيعة فى
ابصارنا ، إذ تبديها تحت سحر وجودنا !.. وكان تلقى البهيج
يخضع لهدف يقيد من حدته ، ويسكن من خيالى . كنت
انظر إلى نفسى كصنيعة وتلميذ وصديق ، بل وحبيب —
تقريبا — لمدام دى فاران . كانت الأمور المؤدبة التى حدثتنى
بها ، واللطف البسيط الذى خصتنى به ، والاهتمام الحنون
الذى لاح انها اولتنيه ، ، ونظراتها الودية التى بدت لى وكأنها
مليئة بالحب — إذ انها كانت تلهمنى هذا الشعور ! — كل هذه
الأمور شغلت افكارى خلال الرحلة ، واغرقتنى فى احلام لذيذة
لم يكن يعكرها اى خوف او شك بشأن مستقبلى . فقد رايت
انهم — إذ اوفدونى إلى تورين قد تكفلوا بأن يعولونى هناك ،
وان يحصلوا لى على مركز مناسب . لذلك شعرت باننى فى

غير حاجة إلى ان احمل هم نفسى بعد ذلك ، فقد حمله عنى
سواى . ومن ثم مضيت فى سفرى بخطى خفيفة بعد أن
تخلصت من هذا العبء . كان كل شىء يلوح لى وكأنه يعزز
سعادتى المبكرة . وكنت بين الجدران أصور لنفسى المآدب
والحفاوات الريفية .. وفى المروج أصور لنفسى الألعاب
الخشنة .. وعلى ضفاف الأنهار : السباحة والنزهات وصيد
السمك .. وفوق الشجر : الفواكه الشهية .. وتحت ظلالها :
الخلوات العاشقة .. وعلى الجبال : دلاء مترعة باللبن
والقشدة ، وخمول حبيب وسكينة وبساطة ، ومتعة الانطلاق
دون ما غاية !.. وقصارى القول انه لم يكن ثمة ما يصادف
بصرى دون ان يبعث فى فؤادى شيئا من الافتتان الممتع !..
كانت فخامة المناظر المحيطة بى ، وتنوعها ، وجمالها الحقيقى ،
تجعل تلك الفتنة أهلا للتدبر والتأمل . بل إن الغرور كان
يطالب لنفسه بنصيب فى ذلك ، فقد لاح لى شرفا يفوق
ما يؤهلنى له عمرى ان ازور إيطاليا — وانا لا ازال صغيرا —
وان أرى مثل هذا القدر من الدنيا ، وأن اقفو اثر « هانيبال »
عبر الجبال !.. وكنا — إلى جانب ذلك — كثيرا ما نقف
بالفنادق الريفية الجيدة . وكانت شهيتى متفتحة للأكل ، كما
كان إرضاؤها متوفرا بكثرة . والواقع اننى لم اجد داعيا لأن
أحرم نفسى شيئا ، لاسيما وان وجباتى لم تكن بالشىء الذى
يذكر إذا قورنت بوجبات السيد سابران !

ولست اذكر خلال حياتى كلها وقتا حظيت فيه بتحرر تام
من الهم والقلق كما تحررت فى الأيام السبعة او الثمانية التى

استغرقتهـا رحلتنـا ! فان مقدرة السـيدة سابران على السير ــ وهى المعدل الذى كنا مضطرين إلى ان ننظم خطانا وفقا له ــ جعلت الرحلة تجاوز نزهة طويلة على الأقدام ! ولقد خلفت لى ذكرى هذه المناسبة ميـلا شديدا إلى كل شىء كان مرتبطا بها لا سيما الجبال والسير على الأقدام . فما سبق لى ، فى الأيام السالفة من عمرى ، أن سافرت على قدمى .. فضلا عن أن سفرى هذا كان مقترنا باعظم المسرات ، ذلك لأن الواجبات والأعمال وكثرة الأمتعة ، اضطرتنى فيما بعد إلى أن اتخذ دور السيد الراقى ، وان استقل عربة فى أسفارى . كما أن الهموم والارتباكات والشواغل المضة لم تلبث أن تسربت إلى ، فغدا كل همى فى رحلاتى متجها إلى بلوغ غايتى ، بعد أن كنت لا اكترث بشىء سوى الاستمتاع بالسفر !.. ولقد قضيت وقتا طويلا احاول أن اعثر على رفيقين أوتيا مثل ميولى بحيث يقبلان أن ينفقـا خمسين « لوى »(١) من مالهمـا ، وعاما من وقتهما ، فى الترحال معى على الاقدام ، لنجوس خلال إيطاليا ، دون أن نصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا . ولقد بدا على الكثيرين الافتتان بالفكرة ، ولكنهم لم يكونوا يرونها ــ فى الواقع ــ اكثر من وهم يطيب الحديث عنه ، دون اى تفكير فى تنفيذه ! وإنى لأذكر أن « ديديرو » و « جريم » ــ اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة ــ قد تحمسا لهـا فى النهاية ، فخيل إلى أن الأمر قد استقر ، ولكنه انتهى إلى أن قمنا برحلة على الورق ، لم يجـد فيها « جريم » من السرور

(١) « اللوى » عملة فرنسية قديمة كانت تساوى عشرين فرنكا .

أكثر من أن يجعـل « ديديرو » يرتكب عـددا من الأخطـاء الإلحادية ، ثم يسلمنى إلى التحقيق بدلا منه ! (١) .

* * *

لم يخفف من أسفى لسرعة الوصول إلى (تورين) سوى سرورى برؤية مدينة كبيرة ، والأمل فى أن يقدر لى أن اقـوم بدور يليق بشخصى ، إذ كانت ابخرة الطموح قد بدأت تتصاعد فى مخى ، واصبحت أرى اننى قد سموت ــ إلى ما لا نهاية ــ فوق حالى السابقة أيام كنت أتتلمذ للحرفة .. وكنت ابعـد من ان أظن ــ مجرد ظن ــ أنه قد كتب لى أن أهوى ، فى أمد وجيز ، إلى ما دون تلك الحـال !.. على أن من واجبى أن اسأل القارىء الصفح ، أو أن أبرر له ــ قبـل أن امضى فى قصتى ــ تلك التفصيلات التافهـة التى خضتهـا ، أو التى سأخوضها فى سياق القصة ، والتى قد تبدو فى نظره عديمة القيمة .. فان المهمة التى آليتها على نفسى ــ إذ وعدت بأن اكشف نفسى للملأ على حقيقتها ، دون ما تحفظ ــ تتطلب عدم إبقاء شىء يتعلق بى فى طى الإبهام أو الخفاء ، وأن ادع نفسى تحت أبصار المـلأ باستمرار ، حتى يصحبونى فى كل هفوات قلبى ، وفى كل الأركان الخفية فى حياتى ، فلا اغيب عن أعينهم لحظة واحدة ، خشية أن يتساءلوا لو أنهم عثروا فى روايتى على أضأل ثغرة ، أو أتفه فراغ : « ما الذى كان يفعله خلال

(١) يقصد روسو أن الرحلة لم تخرج عن نطاق الورق والقلم والانطلاق فى الخيال ، بحيث غدت قصة وهمية .

ذلك ؟ » .. فلا يلبثون أن يتهمونى بأننى غير راغب فى أن أمضى بكل شيء . وأن ما أكتبه ليعرضنى لغضب الجنس البشرى بما فيه الكفاية ، دون ما حاجة لأن أعرض نفسى — بصمتى — لمزيد !

وكان مصروفى الخاص الضئيل قد نفد ، إذ كنت فى ثرثرتى قد تحدثت عنه ، فلم يتوان مرشداى عن استغلال عدم حرصى ، واستطاعت مدام سابران أن تحصل منى على كل ما كان معى .. حتى على قطعة صغيرة من شريط مكسو بالفضة كانت مدام دى فاران قد منحتنيها لأزين بها سيفى الصغير . وكانت حسرتى عليها أشد منها على أى شيء آخر . بل إن السيف ذاته كان خليقا بأن يبقى فى حوزتهما لو أننى تهاونت فى مقاومتى . ولقد تكفلا بنفقاتى — فى أثناء الرحلة — بأمانة ، ولكنهما لم يدعا لى فى الوقت ذاته شيئا .. فبلغت (تورين) بلا ثياب ولا مال ولا متاع ، وغدوت مضطرا إلى أن أدع لمواهبى وحدها شرف الحظ الذى كنت أرجو أن أحظى به !

وكنت مزودا ببعض خطابات قدمتها ، فسرعان ما اقتدت إلى نزل الوعاظ ، حيث بدأت أتعلم الدين الذى كان على أن أكسب به عيشى !.. ورأيت عند وصولى بابا ضخما ذا قضبان حديدية ، أغلق خلفى — وأحكم رتاجه — بمجرد أن اجتزته . وبدت لى هذه المقدمة منفرة أكثر منها مقبولة . وكانت قد بدأت تغذينى بالخواطر عندما اقتدت إلى غرفة رحبة الجوانب، كان كل أثاثها عبارة عن هيكل خشبى يعلوه صليب كبير — فى نهاية الحجرة — وقد قامت أمامه أربعة أو خمسة مقاعد صنعت

هى الأخرى من الخشب ، ولاحت كأنها مصقولة خصيصا ، فى حين أنها إنما كانت تلمع من كثرة الاستعمال والمسح والاحتكاك . وفى هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات ، كان ثمة أربعة أو خمسة من الأشرار الرهيبين .. أولئك كانوا رفاقا من الطلبة الذين لاحوا لى وكأنهم من الزبانية وليسوا من الطامعين فى شرف أن يصبحوا أبناء للرب . وكان اثنان من هؤلاء الأوغاد من « السلافيين » الذين يزعمون أنهم من اليهود أو المراكشيين ، وقد اعترفا لى بأنهما قضيا عمريهما فى التجوال فى ربوع أسبانيا وإيطاليا ، وأنهما كانا يعتنقان المسيحية من آن لآخر ويتقدمان كى يعمدا أينما كان يحلو لهما أن يقضيا بعض الوقت !

وما لبث أن فتح باب حديدى آخر ، فشطر شرفة رحبة تمتد بطول الفناء . وأقبلت خلال هذا الباب أخواتنا . كن من التلميذات اللائى قدر لهن — كما قدر لى — أن يولدن من جديد ، لا عن طريق التعميد ، وإنما عن طريق نبذ عقيدتهن السابقة . وكن حقا أعظم أفاقات وأبشع متشردات لطخن زمرة رعايا الرب . على أن واحدة منهن فقط لاحت لى جميلة وجذابة ، وكانت فى حوالى عمرى ، أو ربما كانت تكبرنى بعامين أو ثلاثة . وقد أوتيت عينين جريئتين أخذتا تلتقيان بعينى أحيانا ، فألهمنى هذا برغبة فى التعرف بها ، ولكنى وجدت خلال الشهرين اللذين قضيتهما فى النزل بعد وصولى — وكانت قد مكثت ثلاثة أشهر قبلهما — أن من المستحيل إطلاقا أن أتحدث إليها ، فقد كانت حارسة سجننا العجوز

مأمورة بأن تشتد فى رعايتها ، كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشر الدينى الذى كان يبذل مزيدا من الحماس والجهد لتحويلها عن عقيدتها . ولابد انها كانت مفرطة الغباء ، وإن لم تكن تبدو كذلك ، إذ أن تلقين العقيدة لم يكن يستغرق قط مثل هذا الوقت الطويل ، فقد كان رجل الدين يجدها دواما غير متأهبة لإعلان خروجها عن عقيدتها السابقة . على أنها مالبثت أن ملت عزلتها عن العالم ، فأعلنت عن رغبتها فى ترك النزل ، سواء صارت مسيحية او لم تصر . واضطروا إلى ان يكتفوا باعلان انضوائها للكثلكة ـ دون أن تعى تعاليمها ـ خشية أن يتولاها العناد فترفض !

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعا لتكريم الداخلة الجديدة فى حظيرة الدين . والقى علينا خطاب قصير ، وجه إلى فيه الحض على أن استجيب لفضل الله الذى أتيح لى ، بينما دعى الآخرون إلى أن يصلوا من أجلى ، وأن يشجعونى بأن يكونوا قدوة لى . وعادت عذارانا ـ بعد ذلك ـ إلى معزلهن ، وانفسح أمامى الوقت كى أفكر مذهولا فى موقفى على ضوء هوى قلبى . ثم اجتمعنا فى الصباح التالى مرة أخرى لنتلقى الدرس ، وإذ ذاك بدأت ـ للمرة الأولى ـ أفكر جديا فى الخطوة التى كنت مزمعا اتخاذها ، وفى الظروف التى قادتنى إلى ذلك !

ولقد قلت ـ ولا ازال اقول ، ولعلنى ساظل أردد وانا ازداد كل يوم اقتناعا ـ بأنه إذا كان ثمة طفل قد تلقى تربية معقولة سليمة ، فهذا الطفل هو انا ! فقد كنت انتمى إلى أسرة امتازت

باخلاقها عن عامة الناس ، فما تعلمت من أقاربى سوى دروس الحكمة ، وكنت دائما أرى أمام عينى أمثلة مشرفة . فلقد كان ابى ـ برغم ولعه باللهو ـ رجلا شديد الاستقامة ، ليس هذا فحسب ، بل أنه كان ايضا على قدر كبير من الشعور الدينى . كان رجلا ذا شهامة فى شئون الدنيا ، ومسيحيا فى قرارة فؤاده ، وقد بث فى قلبى منذ الصغر ما كان يخالجه من أحاسيس . وكذلك أفدت من عماتى الثلاث ، اللائى كن جميعا عاقلات فاضلات ، فقد كانت الكبريان منهن تقيتين ، أما الصغرى ـ وكانت فتاة فياضة الحسن والذكاء والذوق ـ فلعلها كانت اكثر منهما تقوى ، وإن لم تكن تبدى تقواها إلا لماما . ومن حضانة هذه الأسرة ، انتقلت إلى السيد لامبرسييه الذى كان واعظا ومن رجال الدين ، ومع ذلك فانه كان مؤمنا فى قرارة قلبه ويكاد يمارس دائما كل ما يعظ به ! ولقد عمل واخته ـ بالرفق والتعليم الحكيم المتئد ـ على تنمية ما وجدا فى فؤادى من مبادىء التقوى . ولقد استخدم هذان الشخصان الكريمان فى سبيل غايتهما هذه وسائل صادقة ، حكيمة ، معقولة ، دون أن يملا الوعظ والتعليم . وكنت دائما أتأثر بهذا الجهد منهما ، وأتخذ قرارات طيبة ، نادرا ما كنت اغفل تنفيذها عندما أذكرها . أما فى حالة عمتى برنار ، فان تقواها كانت منفرة لى بعض الشىء ، لأنها كانت تتخذ منها حرفة وصنعة. على اننى نادرا ما فكرت فيها اثناء مدة تدريبى الحرفى دون ان اغير هذا الرأى .. كذلك لم أتصل قط بأى شخص فى باكورة العمر يمكن ان يفسدنى ، ومع أننى غدوت شريدا ، إلا أننى لم اكن قط منحلا !

وكنت ، من جراء هذا ، اعرف من الدين كل ما يمكن لطفل فى سنى ان يعرفه . بل إننى كنت أعرف اكثر من ذلك ـ إذ لا جدوى من أن اكتم خواطرى ! ـ فان طفولتى لم تكن شبيهة بطفولتى أندادى ، بل إننى كنت دائما اشعر وافكر كما يشعر الرجل ويفكر ! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين إلا عندما كبرت ، ولكنى لم اكن فى طفولتى عاديا ! ولسوف يضحك القارىء إذ يجدنى اصف نفسى ـ متواضعا ـ كشخص ممتاز . فليكن ! ولكن ليتصور ـ إذا ما فرغ من الضحك ـ طفلا فى السادسة من عمره بلغ به الافتتان بالقصص الخيالية والاستساغة لها والتأثر بها ، درجة تجعله يذرف الدمع سخينا عليها !.. إذا استطاع القارىء أن يتصور هذا ، فسأشعر بأن غرورى كان سخفا ، وسأعترف بأننى مخطىء ! وإذا كنت أقول إننا جديرون بالا نحدث الأطفال عن الدين ـ إذا شئنا لهم ان يعتنقوا اى دين ـ بل إذا كنت اذهب إلى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله ، ولو وفقا لآرائنا فيه ، فانما انا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهدتى ، وليس من خبرتى الخاصة ، إذ أننى ادرك أن ليس بين النتائج التى تستمد من خبرتى ما يصلح لغيرى من الأطفال . وإلا فاصنعوا منهم جان جاك روسو كذلك الذى كنته فى السادسة من عمرى ، وتحدثوا إليهم عن الله إذا ما بلغوا السابعة ، وإذ ذاك اطمئنكم إلى انكم لن تتعرضوا لأية مجازفة !

وأعتقد ان من المسلم به ان التدين لدى الطفل ـ بل ولدى الرجل ـ يعنى اتباع الدين الذى ولد عليه . ولكن هذا الإيمان

قد يتضاءل احيانا ، ونادرا ما يقوى .. فالإيمان الأعمى من ثمار التربية . وإلى جانب هذا المبدأ العام الذى ربطنى بعقيدة آبائى الدينية ، فاننى أوتيت ذلك النفور الذى امتازت به قريتنا إزاء الكاثوليكية ، والذى كان يصورها على انها وثنية رهيبة ، ويلطخ قساوستها بأشد الألوان قتامة ! ولقد بلغ من شدة هذا الشعور فى نفسى ، اننى ـ فى البداية ـ لم اشهد قط جوف اية كنيسة ، ولا قابلت قسا فى زى الكهنوت ، ولا انصت اطلاقا إلى جرس جنائزى ، إلا وسرت فى جسدى قشعريرة خوف وفزع ، لم تلبث ان زايلتنى فى المدن ، ولكنها كانت كثيرا ما تعاودنى فى ابرشيات(١) الريف ، لأنها اكثر شبها بتلك التى واتانى فيها هذا الشعور فى البداية . ومن الصحيح ان هذا الأثر يتناقض ـ بشكل بارز ـ مع ذكريات العطف الذى كان قساوسة ضواحى جنيف مولعين باسباغه على اطفال المدينة . وبينما كان الجرس الذى يعلن الراحة الكبرى ـ الموت ـ يفزعنى ، كان جرس القداس وصلوات الغروب تذكرنى بالفطور ، واللقاء حول المائدة ، والزبد الطازجة ، والفاكهة ، والغذاء المخلوط باللبن !.. ولا يزال عشاء السيد بونفير الشهى يحدث فى نفسى اثرا عظيما !

* * *

على أننى اقصيت كل تلك الخواطر من ذهنى ، واقبلت ـ وانا أنظر إلى البابوية من ناحية علاقتها بالتسلية وطيب

(١) الدوائر التابعة للكنائس الريفية .

الحياة فقط – على ترويض نفسى على فكرة العيش فى غمرة الكثلكة ، بيد أن فكرة الانضواء نهائيا تحت لواء كنيسة روما كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالى إلا لحظة ، وكاحتمال للمستقبل البعيد . اما فى الفترة التى انا بصددها ، فلم يعد بوسعى أن أغرر بنفسى ، بل تبينت فى جزع نوع القبول الذى قطعته على نفسى ، وما يترتب عليه من نتائج لا محيد عنها .

ولم يكن لرهبان المستقبل المبتدئين ، الذين كانوا حولى ، حساب فى تعزيز شجاعتى ، ولا كان فى طوقى ان اخفى عن نفسى أن العمل المقدس الذى اعتزمت الاضطلاع به كان فى الحقيقة نوعا من السرقة ! ذلك لاننى شعرت ، برغم صغر سنى إذ ذاك ، بأنه أيا كان الدين الحق بين العقائد ، فاننى كنت مقدما على بيع عقيدتى .. واننى وإن كنت قد اخترت عقيدة طيبة ، إلا اننى كنت – فى قرارة فؤادى – اكذب على الروح القدس واستحق ازدراء البشر !.. ولقد كنت أزداد سخطا على نفسى كلما ازددت تفكيرا فى ذلك ، وكنت أزفر حسرة على المصير الذى ساقنى إلى هذه الطريق ، وكانما لم يكن المصير من صنعى انا ! وكانت تمر بى لحظات تشتد فيها هذه الخواطر ، إلى الدرجة التى كانت خليقة بأن تجعلنى أفر بكل تاكيد ، لو اننى كنت قد الفيت الباب مفتوحا لحظة ! ولكن هذا كان مستحيلا ، كما ان عزمى لم يكن بالقوة الكافية . فكم من رغبات خفية صارعتها لئلا تتغلب على .. ثم أن تصميمى الثابت على عدم العودة إلى جنيف ، والاستحياء ، وصعوبة اجتياز الجبال ثانية ، والحيرة التى انتابتنى إذ وجدت نفسى

نائيا عن بلدى ، بلا أصدقاء ولا موارد .. كل هذه المشاعر اجتمعت على ان تجعلنى أرى فى وخزات ضميرى ندما جد متأخر . لقد كنت أتعمد ان الوم نفسى على ما فعلت ، لكى اجد العذر فى إتيان ما أوشك ان أفعله ! وبينما كنت اضخم اخطاء الماضى ، رحت أعتبر اخطاء المستقبل نتائج محتومة لها .. فبدلا من ان أقول لنفسى « إنك لم تأت الفعل بعد ، وفى وسعك ان تظل بريئا ، إذا شئت » ، رحت أقول : « اندم على الجرم الذى ادانتك نفسك به ، وفرضت على نفسك ضرورة تنفيذه » ! .

اية قوة ذهنية خارقة كان لابد منها ، فى مثل سنى تلك ، لأذكر كل شىء وعدت به او رجوته إذ ذاك ، من اجل تحطيم الأغلال التى فرضتها على نفسى، ولكى أعلن فى جراة أننى كنت راغبا ، مهما يبلغ ما اتكبده ، فى ان أظل معتنقا دين آبائى !.. مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لامرىء فى سنى ، وما كان من المحتمل تماما أن تنجح ، إذ ان الأمور كانت قد تطورت إلى مدى لم يعد معه إخفاق هذه القوة امرا يدعو إلى الخجل .. وكانت تزداد تطورا كلما ازددت مقاومة ، حتى عز على ان اقرها !

وكانت السفسطة التى قضت على هى ذلك المنطق الفلسفى المألوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة إلى القوة بعد ان يكون اوان الانتفاع بهذه القوة قد فات . فالفضائل لا تغدو عسيرة المنال إلا بفضل اخطائنا ، ولو اننا استطعنا أن نتمسك دائما بالحكمة والروية ، لندرت حاجتنا إلى التحرى وراء الفضائل .

ولكن الميول المنحرفة التى يسهل قهرها تتعجل انحدارنا لأننا لا نقاومها . ونحن ننساق لغوايات طفيفـــة ، ازدراء منـــا لخطرها ، كما اننا نقع — دون ان نفطن — فى مآزق خطيرة كان من اليسير علينا ان نتوقاها ، ولكنا — متى وقعنا فيها — لا نستطيع ان ننتزع انفسنا منها دون جهـــد مستبسل يضنينا .. وفى النهاية نهوى إلى الدرك الأسفل ، ونحن نلوم الله ، ويساله كل منا فى عتاب : « لمـــاذا خلقتنى ضـــعيفا بهـــذا الشكل ؟ » .. ولكنا ـ على الرغم من انفســـنا ـــ نســـمع ضمائرنا تجيب بلسانه . « إنما خلقتك اضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة ، لأننى خلقتك اقوى من ان تسقط فيها » !

والواقع اننى لم اكن قد عقدت العزم تماما على أن أصبح كاثوليكيا ، ولكنى استغللت الفرصة ، وأنا أرى الوقت أمامى متسعا ، لكى أروض نفسى على هذه الفكرة تدريجيا . وكنت اتمنى فى الوقت ذاته ان تحدث ظـــروف غير منتظرة تنزعنى من هذا المازق . ولكى اكسب الوقت ، وقررت ان اتخذ خير ما كان فى طوقى من اســـاليب الدفاع ، ولكن غرورى سرعان ما أعفانى من التفكير فى قرارى هذا ، فما أن تبينت أننى كنت أحيانا احير أولئك الذين كانوا راغبين فى أن يعلمونى ، حتى وجدت فى هذا ما يكفى لأن أسعى إلى أن اضاعف من حيرتهم حتى أعجزهم جميعا ! بل اننى اخذت ابدى شوقا اهوج إلى تحقيق هذه الغاية ، وبينما كانوا يحاولون التأثير على ، رحت بدورى أحاول التأثير عليهم ! وكنت أوقن حقـــا بأن الأمر لن

يكبدنى أكثر من ان أوفق إلى اقناعهم ، فاذا هم ينقلبون إلى بروتستانتيين !.. وكان من جراء ذلك ، أنهم لم يجدوا فى من الانسياق لهم قدر ما كانوا يتوقعون ، سواء من حيث معرفتى أو من حيث استعدادى ورغبتى . والبروتستانت — عـــادة — أفضل تعليما من الكاثوليك . وهو امر طبيعى ، لأن عقيدة الأولين تدعو إلى النقاش ، فى حين ان عقيدة الآخرين تتطلب الانصياع . فالكاثوليكى مضـــطر إلى ان يعتنق الراى الذى يقدم إليـــه ، اما البروتستانتى فلا بد من ان يتعلم كيف يقرر بنفسه الراى الذى يعتنقه !.. وقد كان هذا أمرا معروفا ، ولكن احدا لم يكن يتوقع ان يثير فتى فى مثل ســـنى وموقفى مصاعب لأفراد ذوى خبرة وتجارب . فضلا عن أننى لم اكن قد تلقيت اول « مناولة » (١) ، ولا لقنت التعاليم الخاصة بها. وكان هذا أمرا معروفا كذلك ، ولكن الشىء الذى لم يعرفوه هو أننى تعلمت على يدى السيد لامبرسييه واختـــه ، وأننى — فضلا عن ذلك ـ كنت أختزن ثروة لا تروق لأولئك السادة ، من المعرفـــة بتـــاريخ الكنيسة والإمبراطورية . فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب أثنـــاء مقامى مع أبى . ثم نسيـــته

(١) فريضة « المناولة » أو فريضة « الاشتراك فى العشاء الربانى » هى من أهم الفرائض والأسرار المقدسة التى تركها المسيح لتلاميـــذه واتباعه ، لكى يذكروه بهـــا كلما مارسوها . وهى تقوم على تناول خبز مكسور ، رمزا الى جسد المسيح المصلوب ، وعلى تناول جرعة من عصير عنب مختمر ، رمزا لدم المسيح المسفوك على الصـــليب . وكل الكنائس المسيحية تمارس « المناولة » الى وقتنـــا الحاضر .

تقريبا بعد ذلك ، ولكنه اخذ يعود إلى ذاكرتى كلمـا اشتد وطيس الجدال !

وراس الاجتماع الأول ـ الذى ضمنا جميعا ـ قس كبير السن ، صغير الجسم ، على شىء من الوقار والمهابة . وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائى درسا فى الدين ، وليس مجالا للمناقشة . ومن ثم فقد شـغل القس بتعليمهم لا بمحـو اعتراضاتهم . على أن الوضع تغير فى حالة واحدة : فعندما حان دورى رحت أستوقف القس عند كل نقطة ، ولم اعفه من اية عقبة كان بوسعى أن القيهـا فى طريقه ، فأطال هذا من وقت الاجتماع وجعله مملا للحاضرين . واسهب قسى الشيخ فى الكلام ، وبدا انفعاله يزداد ، واخـذ يشرد عن موضوعه ، ويخرج من المأزق بادعاء انه لم يكن يجيد الفرنسية ! فلما كان اليوم التالى ، رؤى ان اعتراضاتى الرعناء قد تؤذى رفاقى ، فوضعت فى حجرة اخرى ، مع قس آخر كان اصـغر سنا من قس الأمس ، واكثر ذلاقة لسان ـ اعنى انه كان يجيد التلاعب بالعبارات ـ واعظم رضى عن نفسه مما يجوز لأى مدرس !.. على اننى لم أدع نفسى تنصـاع لمسلكه المتسلط ، وما ان اطمـأننت إلى ان بوسـعى ـ برغم كل شىء ـ ان احتفظ بموقفى ، حتى شرعت أجيبه فى ثقة وطيدة ، واضغط عليه من كل جانب بغاية جهدى !.. وخيل إليه ان بوسعه ان يحيرنى بذكر القديس اوغسطين ، والقديس جريجورى ، وغيرهما من الآباء الروحيين ، ولكنه لدهشته التى فاقت كل تصور ، وجد اننى اجيد الجدال بشأن الآباء جميعـا بإسـهاب لا يقل عن

إسهابه ، لا لأننى كنت قد قرات عنهم من قبل ـ كما قرا هو ـ وإنمـا لأننى كنت اتذكر فقـرات عديدة من كتـاب دينى عن مجاهدة النفس ، فما أن كان القس يذكر فقرة منـه دون ان يتوقف لمناقشتها ، حتى كنت أجيبه بفقرة اخرى من أقوال الأب نفسه الذى نقل عنه ، مما سبب له ارتباكا غير قليل ، فى كثير من الأحيـان ! ومع ذلك فقد انتهى الأمر إلى فوزه ، وذلك لسببين : أولهما انه كان الأقوى جانبا . ولما كنت اشعر باننى تحت رحمته ، فقد حكمت عن صواب ـ برغم صغر سنى ـ بأنه ليس من الصواب ان احرجه ، إذ ان هذا قد يدفعه إلى التطرف ، سيما بعد أن رايت بجلاء ان القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف على أو على تعليمى !.. والسبب الثانى هو أن القس الشاب كان متعلما ، فى حين اننى لم اكن متعلما ، الأمر الذى جعله يستخدم فى نقاشه أسلوبا عز على أن أجاريه فيه ، فكان إذا أحس بنفسه محرجا تحت ضـغط اعتراض غير ظـاهر ، يرجىء الاجتماع إلى اليوم التالى ، متعللا بأننى كنت اشرد عن الموضوع . وكان فى بعض الأحيان يأبى أن يصدق ما كنت اذكره من أقوال مقتبسة ، زاعما انها مصطنعة زائفة ، ثم يتحدانى ان ارشـده إلى مواقع هـذه المقتبسات من الكتب ، وهو مطمئن إلى انه لن يتعرض لكثير من الحرج ، لأننى برغم علمى المستعار لم اكن ذا خبرة كافيـة للبحث فى الكتب، ولم اكن من الدراية باللاتينية إلى الدرجة التى تمكننى من البحث عن فقرة فى مجلـد كبير ، مهما اكن متاكدا من وجودها فيه !.. وكنت من ناحيتى اذهب إلى الشـك فى

ان القس الشاب كان يعمد إلى عين ما اتهم به قساوستنا من خداع وعدم امانة ، وإلى افتراء الفقرات ليوسع لنفسه مخرجا من مأزق اكون قد أوقعته فيه !

* * *

وبينما كانت هذه المجالات العارضة حول التوافه مستمرة ، والوقت يمضى فى نقاش ، وتمتمة وصلوات ، دون ما عمل ، تعرضت لمغامرة صغيرة مستهجنة، اوشكت تماما أن تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لى ! ذلك انه ما من نفس خبيثة ، ولا قلب همجى ، إلا ولصاحبهما ميل ما . وقد ساورت احد الشقيين اللذين كانا يزعمان انهما مراكشيان عاطفة نحـوى ، فكان مشغوفا بمتابعتى ، لا يفتـا يكلمنى بلكنته الغريبة ، ويؤدى لى بعض الخدمات البسـيطة ، ويمنحنى فى بعض الأحيان شطرا من غذائه ، بل وكثيرا ما كان يقبلنى فى حـرارة كانت تغيظنى ! وعلى الرغم من الجزع الطبيعى الذى كان يتملكنى من وجهه الأسمر المشوه بندبة طويلة ، ومن ملامحه التى كانت تبدو اقرب إلى الشراسة منها إلى اللطف ، فاننى كنت أحتمل قبلاته ، قائلا لنفسى : « لقـد تملكت المسكين صداقة طاغية نحوى ، فمن الخطأ ان اصده ! » . .ولكنه اخذ ـ بالتدريج ـ يستبيح لنفسه حرية متزايدة معى ، وكان احيانا يعرض على اقتراحات غريبة ، جعلتنى اظنه مجنونا .. واراد فى إحدى الليالى أن يبيت معى ، فرفضت قائلا إن سريرى جد صغير ، وإذا به يلح على ان اصحبه إلى سريره ، ولكنى رفضت من جديد ، إذ كان الوغد جد قذر ، تفوح منه رائحة الطباق الذى كان يمضغه . بحيث كانت نفسى تغثى منه !

وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى كنا وحيدين فى قاعة الاجتماع ، فشرع يعانقنى ويقبلنى فى حركات عنيفة لم تلبث ان أثارت خوفى . وأخيرا ، شاء أن يستبيح لنفسه أبشع تحرر معى ، وامسك بيدى محاولا أن يحملنى على ان أستبيح نفس التحرر معه ! فأرسلت صرخة عالية ، وقفزت إلى الخلف مفلتا منه . وبدون ان ابدى غضبا او حنقا ـ إذ لم تكن لدى اتفه فكرة عما كان يسعى إليه ـ اعربت له عن دهشتى وازدرائى بشكل جعله يتركنى حيث كنت . ولكنى رايت ـ بينمـا كان ماضيا فى إتمام الحركات التى كان قد بداها ـ شـيئا ابيض لزجا ينبثق منه مندفعا فى اتجاه المدفاة ، ثم سقط على الأرض، فأثار مظهره معدتى ، واندفعت إلى الشرفة وانا اشد تاثرا ، واشد انزعاجا ، واشد خوفا مما كنت فى اى يوم فى حيـاتى ، حتى لقد شعرت اننى اوشك ان اقع مريضا !

ولم يكن بوسعى ان افقه ما اصـاب التعس ، بل اعتقدت انه أصيب بنوبة من الصرع ، او بنوع من الجنون أقسى من الصرع ! والحق اننى لا اعرف ما هو ابشع لدى اى شخص هادىء الأعصاب ، من رؤية مثل هذا المسلك المشين القذر ، ولا مثل تلك الملامح التى الهبتها الشهوة البهيمية !.. وما رايت قط رجلا آخر فى مثل هذه الحال ، ولكن إذا كنا نتعرض لهذا المشهد ونحن مع النساء ، فلابد ان نظراتهن تخضـع لسحر خاص ، يحميهن من أن يشمأززن منا !

وهرعت لأنبىء كل امـرىء بما جـرى لى ، ولكن المشرفة العجوز أمرتنى بأن اعقل لسانى ! على اننى رايت ان قصتى

قد أثرت عليها بدرجة كبيرة ، وسمعتها تتمتم: « ياله من كلب لعين !.. وحش كاسر ! » .. ولما كنت لم أدرك الحكمة فى ان أمسك لسانى ، فقد مضيت فى إخبار كل شخص بما حدث ، برغم أمرها ، فاذا بأحد المشرفين يفد فى ساعة مبكرة من اليوم التالى فيوجه إلى تقريعا مقذعا ، ويتهمنى بالاساءة إلى شرف دار دينية ، وباثارة ضجة حول حادث تافه !.. ونسج محاضرته بحيث شرح لى أشياء كثيرة كنت أجهلها ، ولكنه لم يكن يصدق أنه كان يعرفنى بها لأول مرة ، إذ انه كان مقتنعا بأننى ما دافعت عن نفسى إلا لأننى كنت غير راغب ، وليس لأننى لم أكن أفقه ما ابتغاه المراكشى منى !.. ثم انبأنى ـ برصانة ـ بأن ذلك العمل محرم ، وبأنه جد بعيد عن الأخلاق ، ولكن اشتهاءه ليس إهانة للشخص الذى يكون هدفا له ، ومن ثم لم يكن ثمة داع لأن اغضب من شخص اعتبرنى جديرا بالمحبة ! وأنبأنى بوضوح أنه ـ هو نفسه ـ قد تقبل فى صغره هذا الشرف حين عرض له ، وأنه عندما فوجىء به وهو فى حال لا تمكنه من المقاومة ، لم يجد الأمر مؤلما فى حد ذاته !.. وكان من عدم الحياء بحيث أنه راح يستعمل ألفاظا صريحة ، وأخذ ـ وهو يتصور أن مقاومتى كانت ناشئة عن خوف من الألم ـ يطمئننى إلى انه ليس ثمة داع للخوف ، وأنه ما كان لى أن أنزعج دون ما مبرر للانزعاج !

ورحت اصغى إلى ذلك التعس فى ذهول ضاعف منه انه لم يكن يروى أمرا يخصه ، وإنما بدا أنه كان ينصحنى بما فيه الخير لى . كان الموضوع يتراءى له بسيطا إلى الدرجة انه لم يحاول أن يتستر أو يتكتم ، بل أن حديثا انساب إلى أذنى طرف

ثالث تمثل فى رجل من رجال الكنيسة ، لاح انه لم ينزعج هو الآخر من الأمر ! واثرت على هذه الروح المتساهلة التى ابدت الأمر عاديا ، إلى درجة أننى اقتنعت بأنه ـ ولابد ـ عادة معترف بها فى العالم ، وإن لم تتح لى فرصة الإلمام بها قبل ذلك الحين !.. وكان من جراء ذلك أننى رحت أصغى بدون غضب، ولكن اصغائى لم يخل من الاشمئزاز . ولقد ظلت صورة ما حدث لى ـ وما رأيته بوجه خاص ـ منطبعة فى ذاكرتى إلى درجة أننى لا أزال أشعر بالتقزز كلما تمثلتها !.. وبدون أن أفطن ، امتد نفورى من الشىء إلى الشخص الذى كان يبرره ، إذ لم يكن بوسعى ان اتمالك نفسى إلى الدرجة التى تحول بينه وبين مشاهدة الأثر السىء لدرسه فى نفسى . ومن ثم رمانى بنظرة كانت بعيدة عن أى ود ! ومنذ ذلك الوقت لم يدخر وسعا فى أن يجعل إقامتى فى النزل مكروهة . ولقد وفق فى ذلك إلى درجة أننى لم أر سوى وسيلة واحدة للفرار ، فبادرت إلى اتخاذها ، بنفس التحمس الذى كنت أتذرع به حتى ذاك الحين لتفاديها !

ولقد أمدتنى هذه المغامرة بمناعة فى المستقبل ضد محاولات « فرسان الكم » ، فكانت رؤية أولئك المنتمين إلى مذهبهم تذكرنى بمنظر وحركات المراكشى الرهيب ، فتوحى إلى دائما بجزع يعز على إخفاؤه ! ومن ناحية أخرى، يبدو لى ان النساء ظفرن بكسب نسبى من جراء هذه المغامرة ، إذ تراءى لى أننى مدين لهن بالعواطف اللطيفة وبالمجاملة كتعويض لهن عما يلحقه بهن أبناء جنسى من إهانات .. وكانت أبشع مومس

تصبح فى نظرى أهلا للعبادة ، إذا ما تذكرت ذلك الاغريقى الزائف !.. اما هو ، فلم أدر ما قيل له ، ، ولم يظهر لى أن احدا ــ فيما عدا السيدة لورينزا ــ بدل من شعوره السابق نحوه ! على انه لم يعد يلاحقنى او يتحدث إلى . وبعد ثمانية ايام ، تم تعميده فى جلال عظيم ، وسربل بالبياض من رأسه إلى قدمه ، رمزا لطهر روحه التائبة ! وفى اليوم التالى غادر النزل ، فلم أره البتة منذ ذلك الحين . ثم حان دورى بعد شهر ، فقد كان لابد من هذه المدة لأتيح لمرشدى شرف الفوز بهداية « كافر » صعب المراس ، واضطررت إلى ان اجتاز امتحانا سئلت فيه عن جميع التعاليم ، حتى يتسنى لهم أن يزدهوا باستعراض علمى الجديد !

اما وقد تعلمت اخيرا ــ ما فيه الكفاية ــ وتم إعدادى بالدرجة التى ترضى أساتذتى ، فقد اقتدت فى موكب مهيب إلى كنيسة القديس يوحنا الكبرى ، لأعلن خروجى على عقيدتى امام الملأ ، ولأتلقى شهادات التعميد ــ وإن كنت لم اعمد فعلا ، إذ كنت معمدا منذ مولدى ــ ولكن مثل هذه الاحتفالات تنفع فى ايهام الناس بأن البروتستانتيين ليسوا من المسيحيين فى شىء !.. وارتديت يومذاك معطفا رمادى اللون ، مزدانا بضفادع بيضاء ، كان يستخدم فى مثل هذه المناسبات . وحف بى رجلان ــ من امام ومن خلف ــ يحملان وعاءين من من النحاس ، اخذا يضربان عليهما بمفتاحين . فكان كل امرىء يلقى فى هذين الوعاءين بما يتصدق به ، تبعا لتقواه ولمدى اهتمامه بالمؤمن الجديد . وقصارى القول أن شيئا من مظاهر

عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يدخر ، وذلك لإسباغ آيات الجلال على الحفلة فى نظر الناس ، وامعانا فى إذلال نفسى . ولم يكن ينقصنى سوى الرداء الأبيض ، الذى كان يليق بى ، والذى لم يسمح به لى كما سمح به للمراكشى ، لأننى لم أحظ بأن اكون يهوديا قبل انضمامى للكنيسة !

على أن هذا لم يكن كل ما فى الاحتفال ، إذ اضطررت بعد ذلك إلى أن اذهب إلى ديوان التحقيق ، لأتلقى قرار توبتى من جريمة الزندقة ، ودخولى إلى حظيرة الكنيسة فى احتفال كان الملك هنرى الرابع ممثلا فيه فى شخص سفيره ! ولم يكن فى مسلك قداسة الأب المحقق ، ولا فى مظهره ، ما يمحو الرعب الخفى الذى تملكنى وأنا ألج الدار . وبعد عدة أسئلة عن عقيدتى ، ومركزى ، وأسرتى ، سألنى فجأة عما إذا كانت أمى ملعونة ؟.. وحملنى الذعر على ان اكبت اول مظاهر الاستنكار ، واكتفيت بأن أجبت بأننى اجرؤ على أن ارجو الا تكون ملعونة ، وأن يكون الله قد أنار بصيرتها فى ساعتها الأخيرة . وصمت الراهب ، ولكنه كشر عن ابتسامة لم يبد لى أنها من أمارات الرضى فى شىء ! وعندما انتهى كل شىء ، وفى اللحظة التى توقعت فيها أن يمدونى بالمال الذى يلائم آمالى ، إذا بهم يشيعوننى إلى خارج الأبواب وفى يدى ما يزيد قليلا على عشرين فرنكا بالعملات الصغيرة .. وهى نتيجة الصدقات التى جمعت لى . وزودت بالنصح بأن أعيش مسيحيا صالحا ، وأن أظل صادق الولاء لشرف العقيدة .. ثم تمنوا لى حظا حسنا ، واغلقوا الباب دونى ، فلم أرهم بعد ذلك !

***

وهكذا تلاشت كل أمالى العظام فى لحظة ، وكانت النتيجة الوحيدة التى خرجت بها من الخطوة التى اتخذتها ، وهى الشعور بأننى كنت مرتدا عن دينى ، وغرا مغفلا ، فى آن واحد ! ومن اليسير تصور اية ثورة مفاجئة اصابت آرائى عندما رأيت نفسى مقذوفا من حالق احلام الثراء البراقة إلى البؤس المدقع! وبعد أن كنت ــ فى الصباح ــ اطيل التفكير فى انتقاء القصر الذى أقيم فيه ، الفيتنى فى المساء مضطرا إلى أن انام على قارعة الطريق !.. وقد يخطر بالبال اننى بدأت استسلم لشعور من القنوط ، زاده قسوة ما انتابنى من حسرة رحت معها الوم نفسى لأن نحسى إنما كان من صنع يدى . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إذ كنت قد مكثت سجينا ــ لأول مرة فى حياتى ــ أكثر من شهرين ، فكان أول ما انتابنى هو شعور بالفرح لاسترداد حريتى . ووجدتنى سيد نفسى وتصرفاتى من جديد ــ بعد فترة طويلة من الاستعباد ــ فى مدينة كبيرة ، وافرة الموارد ، غنية بذوى المكانة الذين لا يمكن أن اخفق فى أن احظى بضيافتهم ــ حين اصبح معروفا ــ لما كان لى من خلال طيبة ومواهب . وإلى جانب ذلك ، كان الوقت متسعا امامى ، وكانت الفرنكات العشرون القابعة فى جيبى تلوح لى كما لو كانت كنزا لا ينضب معينه ! كنت املك أن انفقها كما اشاء ، دون أن اقدم عنها حسابا لأحد . وكانت هذه هى المرة الأولى التى املك فيها مثل هذا المبلغ . ومن ثم فبدلا من أن تثبط عزيمتى ، أو ينساب دمعى ، اكتفيت بأن عدلت آمالى ، دون أن يفقد قلبى الطاهر شيئا من جراء هذا

ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائى عندما رأيت نفسى مقذوفا من حالق أحلام الثراء البراقة إلى البؤس المدقع !..

التعديل .. فما شعرت قط بمثل ما داخلنى إذ ذاك من طمأنينة وثقة ، إذ اعتقدت أن حظى بات أمرا مقررا ، ورأيت أن من البديع حقا الا يكون لأحد ـ سواى ـ فضل فى ذلك !

وكان اول ما فعلته هو أن سعيت لارضاء فضولى إلى الطواف بالمدينة ، ولو لأستمتع بملاذ الحرية !.. فذهبت لمشاهدة فرسان الحرس ، وهناك راقت لى الموسيقى العسكرية إلى درجة بعيدة . وتبعت المواكب ، فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التى كان يعزفها القساوسة . وسعيت لمشاهدة قصر الملك ، فاقتربت منه فى رهبة وخشوع ، حتى إذا رأيت غيرى يلجونه ، حذوت حذوهم ، فلم يستوقفنى احد ! ولعلى كنت مدينا بهذه الخطوة للفافة التى كنت أحملها تحت ابطى ـ وكيفما يكن الأمر ، فاننى بدأت اقيم وزنا كبيرا لنفسى عندما الفيتنى فى القصر . بل اننى بدأت اتمثل نفسى مقيما فيه بالفعل . وما لبثت فى النهاية أن سئمت الرواح والغدو ، وكنت جائعا ، والجو حارا ، فولجت حانوت لبان ، وابتعت قسطا من جبن « الجيونكا » (١) واللبن الرائب ، وشريحتين من الخبز البييمونتى البديع الذى افضله على ما عداه . وبخمس او ست قطع من فئة « السو » حظيت بوجبة من أشهى الوجبات التى تناولتها فى حياتى !

وكنت مضطرا إلى البحث عن مأوى . وكان من السهل أن

---

(١) جبن « الجيونكا » نوع من الجبن الطازج الذى ينقل الى السوق فى حصير .. كالجبن المعروف فى مصر باسم « القريش » .

أعثر على واحد ، إذ كنت قد ألممت من اللغة البييمونتية بقدر يمكننى من أن أجعل حديثى مفهوما . وكنت من الحكمة بحيث راعيت فى اختيارى ما يناسب مواردى وليس ما يلائم ذوقى . فقد انبئت بأن زوجة جندى فى شارع « دوبو » تأوى الخدم المتعطلين مقابل « سو » واحد فى الليلة . وكان لديها سرير خال ، فاستأجرته . وكانت المرأة شابة حديثة العهد بالزواج ، وإن كانت قد أنجبت خمسة اطفال او ستة من قبل !.. ونمنا جميعا فى غرفة واحدة : الأم ، والأطفال ، والنزلاء .. (وقد ظللنا على هذه الحال طيلة اقامتى عندها !) .. وفيما عدا ذلك كانت امرأة طيبة ، سريعة السباب كالحوذية ، تكشف دائما عن ثدييها ، وتدع شعرها مشعثا . على انها كانت شفوقة القلب ، بشوشا ، مالت إلى ، بل كانت ذات نفع لى !

وقضيت عدة ايام مسلما نفسى لمباهج الاستقلال والفضول وحدها ، فجست خلال المدينة وخارجها ، متفحصا كل مكان ، متأملا كل ما كان يبدو لى جديدا او غريبا . وهكذا كان الشأن بالنسبة لكل شىء ، لدى شاب غادر لفوره معتقله ، ولم يسبق له أن رأى عاصمة . وكنت ـ قبل كل شىء ـ اتردد بانتظام على القصر ، كما كنت حريصا على أن أحضر القداس الملكى فى كل صباح ، فقد رأيت أن من البديع أن اكون فى كنيسة واحدة مع الأمير وحاشيته ، ولكن شغفى بالموسيقى كان قد بدأ يغدو محسوسا ، وكان أكثر دفعا لى على الحضور المنتظم من الرواء الملكى الذى ما أن يرى بانتظام ، وبنفس الشكل ، حتى يفقد فتنته وطرافته .. وكانت لدى ملكة سردينيا فى

ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين فى أوروبا . وكان «سومى» و «ديجارادنه» و « بيسوتزى » هم بالتتابع نجومها اللامعين. وكان هـذا اكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صـوت اسوأ آلة موسيقية ، إذا كان العزف عليها سليما . وبجـانب ذلك ، كان الاعجاب الذى أحسست به نحو العظمة والفخفخة ـ اللتين بهرتا بصرى ـ إعجابا خاليا من التعقل ، ولا يستحق ان يغبطنى أحد عليه . وكان الشىء الوحيد الذى اثار اهتمامى فى كل رواء البلاط الملكى هو ان أرى ما إذا كانت ثمـة أميرة شابة ، جديرة بتكريمى، وبأن اتصل بها فى مغامرة غرامية؟! .. وكنت قد اوشكت ان ابدأ مغامرة من هذا النوع ، فى وسـط اقل رواء ، ولكنها مغامرة كنت خليقا بأن اجد فيها ـ لو اننى مضيت قدما ـ متعا تفوق متع الغرام بالأميرات الف مرة !

* * *

ومع اننى كنت أعيش بأقصى درجات التقتير ، إلا ان كيسى بدأ ينضب رويدا . ولم يكن اقتصادى فى النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بسـاطة فى الذوق لم يبدلها ـ إلى يومنا هذا ـ تعودى على ان اجلس إلى موائد علية القوم . فما عرفت ـ بل ولا ازال بعيدا عن أن أعرف ـ ما هو أبهج من الطعام الريفى . وفى وسـع اى امرىء أن يطمئن إلى إكرامه لى إذا هو قدم لى بعض منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر ، والجبن ، والخبز الأسمر ، وبعض النبيذ المقبـول .. إذ ان شهيتى تتكفل بما يبقى بعد ذلك . هذا فى الوقت الذى لا ارتاح فيه إلى وجود كبير للسقاة وعدد من الخدم حولى ، يحيطوننى

بتكلفهم المزعج ! وقد كنت فى ذلك العهـد أحظى بوجبـات تتكلف ستة أو سبعة « سو » ، وتفضل ما اعتدت بعد ذلك أن أحظى به لقاء ستة او سبعة فرنكات ! .. كنت معتدلا ، لأننى لم أتعرض لاغراء يبعدنى عن الاعتدال ، ومع ذلك فاننى اخطىء حين أقول إننى كنت معتدلا ، إذ أننى كنت أحظى فى الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكـنة . كانت الكمثرى ، والجيونكا ، وشرائح الخبز ، وبضعة أقداح من نبيذ «مونفيرا» الكثيف الذى يستطيع المرء أن يقطعه إلى شرائح ، تجعلنى أسعد اكول ! ومع ذلك ، فقد دنت نهاية فرنكاتى العشرين ، وكنت أزداد شعورا بهذا يوما بعد يوم ، ومع ما كانت تتسم به سنى من خلو البال، فان قلقى من المستقبل سرعان ما أصبح جزءا حقيقيا ! ولم يبق لى من كل القصور التى كنت اشيدها فى الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة للعيش، وهذا ما لم يكن سهلا ميسورا . وفكرت فى حرفتى القديمة ، ولكننى لم اكن أعـرف منهـا ما يكفينى لأن يغـرى اى معـلم على أن يستخدمنى ، فضـلا عن أنه لم يكن ثمة كثير من المعلمين فى (تورين) . وأخذت أتنقل من حانوت إلى آخـر ، عارضـا خدماتى لحفر الشعارات والرموز على الفضة ، راجيا ان اغرى بعض العملاء برخص أجرى ـ ريثما يتاح لى عمل أفضل ـ بل أننى تركت لهم تقدير الأجر . ومع ذلك فإن هـذا المشروع لم يسفر عن نجاح يذكر ، بل كنت أطرد عادة ، فكان العمل الذى اظفر به من القـلة بحيث أننى نادرا ما كسبت ما يكفى لثمن وجبتين او ثلاث ! على أننى لمحت ذات يوم ، وأنـا أسير فى (كونترادا نونا) فى ساعة مبكرة ، امرأة شابة بمحل ـ

خلال نافذة احد الحوانيت ـ موفورة اللطف ، جذابة المنظر
إلى درجة اننى ـ برغم حيائى من النساء ـ دخلت الحانوت دون
تردد ، ووضعت مواهبى المتواضعة رهن إشارتها ! ولم
تصدنى فى جفاء ، بل اجلستنى وسالتنى ان أروى لها سيرتى
القصيرة ، فلما فعلت أشفقت على ، وسألتنى أن لا ابتئس ،
لأن المسيحيين الصالحين ما كانو ليتخلوا عنى بالتأكيد . وبعد
ان ارسلت إلى صائغ يجاورها فى طلب الأدوات التى انبأتها
بانها تعوزنى ، ذهبت إلى المطبخ فأعدت لى بيديها فطورا .

ولاح لى أن البداية تبشر بالخير ، فلم تكذب النتيجة
حدسى ، إذ بدا على المراة انها رضيت عن العمل الذى انجزته ،
وكانت اكثر رضاء عن ثرثرتى المتواضعة ، عندما اطمأننت
قليلا إليها ، فقد كانت ذكية ، انيقة الملبس . وعلى الرغم من
مسلكها الرحيم المتلطف ، فان مظهرها اوحى لى بالهيبة
والوقار . على أن كرم حفاوتها ، وصوتها الشفوق ، واخلاقها
اللطيفة الدمثة ، لم تلبث ان سرت عنى كل تحفظ ، فتبينت
بدى توفيقى ، مما ضاعف من هذا التوفيق !.. وكانت المراة
إيطالية ، ذات إغراء ودلال إلى حد ما ، لكنها كانت فى الوقت
نفسه ذات حياء . وكنت من ناحيتى خجولا ، حتى انه كان
من العسير ان يؤدى الموقف إلى اى شىء ابعد مما جرى بيننا !
كما أن الوقت لم يتح لنا كى نمضى فى المغامرة . وإنى لأذكر
فى اقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التى قضيتها إلى
جوارها ، وبوسعى ان أقول إننى ـ فى بدايتها ـ تذوقت
احلى وانقى مباهج الحب !

وكانت تلك الإيطالية الحسناء سمراء البشرة ، بالغة الفتنة ،
يزيد من تأثير حسنها ما كان يحمله وجهها الجميل من مخايل
طيبة النفس . وكان اسمها مدام « بازيل » ، تركها زوجها ـ
الذى كان اكبر منها سنا ، وكان غيورا بعض الشىء ـ فى
رعاية كاتب(١) بدا ابغض من أن يكون ذا غواية او إغراء ،
ومع ذلك فانه لم يكن خلوا من خلال مميزة كان يبديها
مقترنة بطبعه السيىء الذى آثرنى به ، برغم اننى كنت مولعا
بأن أسمع عزفه على القيثارة التى كان يجيد استعمالها ..
وكان « اله الدمامة » الجديد يزمجر كلما رآنى الج المكان ،
ويعاملنى فى ازدراء اخذت مخدومته ترده إليه كاملا ! بل لقد
بدا لى أنها كانت تستعذب التلطف فى وجوده ، لكى تثير
غيظه ، وكان هذا النوع من الانتقام ـ برغم مجافاته لذوقى ـ
خليقا بأن يكون اكثر استساغة ، لو أنه كان فى خلوة . ولكنها
لم تدفع الأمور قط إلى هذا الحد ، او ـ بالاحرى ـ دفعتها ،
ولكن بشكل آخر ! وسواء كانت قد الفتنى جد صغير ، أو أنها
لم تكن تعرف كيف تقدم على المراودة ، او كانت تعتزم حتما
أن تظل عاقلة ، فانها أخذت تبدى فى ذلك الحين نوعا من
التحفظ لم يكن يصدنى عنها ، ولكنه كان يجعلنى اهابها دون
أن أدرى السر فى ذلك ! ومع اننى لم أحس نحوها بذلك
الاحترام الحقيقى ، العاطفى ، الذى احسست به نحو السيدة
دى فاران ، إلا اننى كنت أشد خجلا واقل ألفة مع مدام بازيل
منى مع السيدة المذكورة . كنت أجدنى محرجا ، مرتبكا ،

(١) « كاتب » هنا بمعنى موظف كتابى ، اى CLERK

لا أجرؤ على أن اتطلع إليها ، أو أتنفس بالقرب منها ، ومع ذلك فقد كنت أشد كرها للبعد عنها منى للموت . كنت التهم بعين نهمة كل ما أستطيع أن أتطلع إليه فيها دون أن يلمحنى أحد : الزهور التى تزين ثوبها ، وأطراف قدميها الرشيقتين ، ولمحة من ذراع بيضاء ، ملتفة ، كنت أراها بين قفازها وكمها .. وجزءا من صدرها كان يتجلى أحيانا بين طرف ثوبها والمنديل المحيط بعنقها . وكان كل شيء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى !.. وكانت عيناى تضطربان من النظر إلى ما كنت أراه ـ بل وما وراء ما كنت أراه ـ ويضيق صدرى ، فتزداد أنفاسى تهدجا فى كل لحظة ، حتى لا أكاد أقوى على التنفس ، بل يغدو كل ما أستطيعه هو أن أصعد زفرات متلاحقة غير محسوسة ، كانت شديدة الاحراج لى فى غمرة السكون الشامل الذى كثيرا ما كنا نلقى نفسينا فيه !.. على أن مدام بازيل لم تكن ـ لحسن الحظ ـ تلاحظ ذلك ، على ما كان يبدو لى ، لانهماكها فى عملها . ومع ذلك فإننى كنت أرى صدر ثوبها يخفق أحيانا ، وكأنها تشفق على. وكان هذا المنظر الخطر يفقدنى رشدى تماما ، حتى إذا أوشكت أن أطلق العنان لانفعالاتى ، قالت لى ـ بصوت هادىء ـ عبارة ما ، ترد إلى إدراكى فى الحال !

* * *

ولقد رأيتها عدة مرات فى هذه الحال ـ ونحن وحيدان ـ دون ما كلمة أو إشارة أو نظرة تحمل من المعانى أكثر مما ينبغى ، أو ما يوحى بأتفه تفاهم بيننا . وكان هذا الجو ـ

على ما فيه من تعذيب لى ـ جد مستعذب ، حتى أننى كنت لا أكاد لسذاجة قلبى أجد سببا لما كنت أحسن به من لوعة ! وكان يبدو أن هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هى الأخرى ، فإنها ـ على أية حال ـ كانت تتيح الفرص لها بكثرة !.. وإذا تساءلنا عن النفع الذى كان هذا المسلك يحققه لها ، أو لى ، فمن المؤكد أنه كان على الأقل مسلكا خاليا من أى ضرر !

.. إلى أن كان ذات يوم ، سئمت فيه المرأة الحديث السخيف الذى انطلق فيه الكاتب الدميم ، فصعدت إلى غرفتها . وأسرعت أنا أتم المهمة البسيطة التى كنت أؤديها فى الحجرة الخلفية بالحانوت ، ثم تبعتها . وكان باب حجرتها مواربا ، فدخلت دون أن يرانى أحد . وكانت عاكفة على التطريز بجوار إحدى النوافذ ، وظهرها نحو الباب ، فلم يكن بوسعها أن ترانى ، ولا أن تسمعنى ـ نظرا لجلبة العربات فى الطريق ـ وكانت تحرص دائما على أناقة ملبسها ، لكنها فى ذلك اليوم بالذات كانت قد افتنت فى زينة وجهها إلى درجة مغرية ! وكان وضعها بديعا ، إذ كان رأسها ـ فى انحناءته البسيطة ـ يكشف بياض عنقها .. وكان شعرها معقوصا إلى أعلى فى رشاقة ، وقد ازدان بالزهور . وبالاختصار ، كان يرين على قوامها بأسره سحر أخذت أطيل تأمله حتى أخرجنى عن تجلدى ، فإذا بى أجثو على ركبتى لدى الباب ، وأبسط ذراعى نحوها فى حركات ملتاعة ، وأنا واثق من أنها لم تكن تسمعنى ، ودون أن يخطر ببالى أن من المحتمل أن ترانى ..

بيد انه كانت ثمة مرآة على رف المدفـــأة وشت بى إليهـــا ! ولست ادرى اى اثر احدثتـــه نوبة جنـــونى فى نفســـها ، فانها لم تنظر نحوى ، ولم تنبس بكلمة وإنما لفتت راسها لفتة صغيرة ، وبحركة بسـيطة اشارت بأصابعها إلى الحصيرة التى كانت عند قدميها . وكانت اللحظة تتطلب ان ارتجف ، او اصرخ او ارمى بنفسى حيث اشارت ، ولكن من العسير ان يصدق احد اننى فى ذلك الموقف لم اجسر على ان احاول اكثر من الاستلقاء عند قدميها ، فلم انبس بكلمة واحدة ، ولا رفعت عينى إليها ، بل ولا مسستها فى محاولتى المضنية كى استند إلى ركبتيها لحظة .. ومع اننى عجزت عن الكلام او الحركة ، إلا اننى كنت بعيدا عن الهـــدوء والسكينة ، بل كان كل شىء يشى بانفعالى ، وفرحى ، وعرفانى ، ورغباتى الجامحة التى لم يكن لها هدف معين ، والتى كان يكبحها الخوف من استياء السيدة ، وهو أمر ما كان قلبى الشاب ليرتاح إليه !

وبدا انها لم تكن اقل تأثرا ولا اقل خجلا منى .. وازعجها ان ترانى هناك، وحيرها أن تكون قد اجتذبتنى إلى ذلك المكان، وبدأت تشعر بعواقب الإشارة التى صدرت عنها دون ان تفكر فيها التفكير الواجب !.. ولكنها لم تقربنى إليهـــا ، ولا هى صدتنى عنها ، فانها لم ترفع راسها عن الرقعة التى تطرزها، بل حاولت ان تتصرف كما لو لم تكن ترانى عند قدميها ! على ان كل ما اوتيت من غباء ما كان ليمنعنى من ان استنتج انهـــا كانت تشاطرنى ارتباكى ، وربما رغباتى ، وانها كانت تكبح عواطفها بنفس الحياء الذى كان يدفعنى إلى ان اكبح عواطفى، وإن لم يساعدنى ذلك على ان اتغلب على هذا الحياء !.. وإذ

كانت تكبرنى بخمس ســنوات او ست ، فقـــد رايت انهـــا كانت خليقة بأن تكون اكثر جراة ، وقلت لنفسى إنها إذا كانت لم تفعل ما يوقظ جراتى ، فلابد انها غير راغبـــة فى أن ابدى اية جراة من ناحيتى ! ولا ازال حتى اليـــوم ارى اننى كنت مصيبا ، وانها كانت ـــ بالتأكيد ـــ من الذكاء بحيث فطنت إلى ان ناشئا مثلى كان بحاجة لا إلى تشجيع فحسب ، وإنما إلى « تدريب » ايضا !

ولست أدرى كيف كان لينتهى هذا المشهد الحافل الصامت، ولا إلى اى وقت كنت سأظل دون حراك فى وضعى المستهجن المستعذب ، لولا اننا فوجئنـــا بما قطع علينـــا الموقف ! ففى اللحظة التى بلغ فيها انفعالى عنفوانه ، سمعت باب المطبخ ـــ الذى كان ملاصقا للحجرة التى كنا فيها ـــ يفتح ، فاستولى على مدام بازيل ذعر جائح تجلى فى كلماتها وإشاراتها وهى تقول : « انهض !.. ها هى ذى روزينا قادمة ! » . واسرعت بالنهوض ، ممسكا باليد التى بسطتها لى ، طابعا عليها قبلتين ملتهبتين ، شعرت عند ثانيتهما أن هذه اليد الفاتنة تضـــغط شفتى ضغطا خفيفا !. . ولست أغالى إذا قلت إننى لم استمتع فى حياتى بلحظة فى مثل حلاوة تلك اللحظة . وغير ان الفرصة التى فقدتها لم تسنح قط مرة اخـــرى ، وكف غرامنا الوليد عن النمو عند ذلك الحد ! ولعل هـــذا هو عين السبب فى ان صورة تلك المراة اللطيفة ظلت مطبوعة فى أعماق قلبى بهـــذا الشكل الفاتن ، بل إنها ازدادت جمالا بازدياد معرفتى بالدنيا والنساء . ولو انها كانت قـــد أوتيت [illegible] من

الخبرة ، لأقدمت على تصرف مخالف ، كى تشجع فتى مثل الذى كنته !.. ولكن ، لئن كان قلبها قد أوشك أن يضعف فى تلك اللحظة ، فانه كان فى الواقع مستقيما ، وما انساقت للميل الذى جرفها إلا على غير إرادة منها ، فكانت هذه ــ على ضوء كل المظاهر ــ أول خيانة تفكر فيها ، ولعلنى كنت خليقا بأن أجد فى مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت القاه فى مغالبة حيائى ! على اننى ، دون ان اذهب إلى ذلك المدى ، كنت اجد فى وجودها سعادة لا توصف ، وما عادل شيء من المشاعر التى يخلقها نيل النساء ، تلكما الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمى هذه المرأة دون ان اجسر على مجرد لمس ثوبها !.. لا ، ليست هناك متعة تعدل تلك التى تستطيع ان تتيحها امرأة فاضلة يحبها المرء !.. إن كل شيء يغدو جميلا فى صحبتها .. ولقد كانت إشارة من اصبع ، ويد التصقت خفيفا بفمى ، وهما كل النعم التى حظيت بهما من مدام بازيل ، ولا تزال ذكرى هذين الرمزين البسيطين تفتننى كلما فكرت فيهما !

وعبثا حاولت ــ فى اليومين التاليين ــ ان انتهز فرصة لخلوة أخرى ، فقد استحال على ان اجد هذه الفرصة ، ولم الاحظ أى حرص من جانب مدام بازيل على ان تتيحها . ومع ان مسلكها لم يصبح اقل فتورا عن ذى قبل ، إلا أنها صارت اكثر تحفظا من المعتاد ، واعتقد انها كانت تتفادى نظراتى خشية ان تعجز عن ان تسيطر على نفسها سيطرة كافية ! وغدا كاتبها اللعين اثقل ظلا من اى وقت مضى ، سيما وقد مضى يمزح ويداعبنى قائلا إننى خليق بان اجد حظا لدى

السيدات ! وكنت أرتجف كلما فكرت فى اننى ربما كنت قد ارتكبت حماقة . ولما كنت قبل ذلك أعتبر أن ثمة تفاهما بينى وبين مدام بازيل ، فقد رغبت الآن فى أن اتكتم الميل الذى لم يكن بحاجة إلى التكتم من قبل ، فجلعنى ذلك ازداد حذرا فى تحينى الفرص لإرضاء هذا الميل . ومن فرط حرصى على ان تكون هذه الفرص مأمونة ، تعذر على ان اعثر عليها إطلاقا !

وكانت هذه نزوة غرامية اخرى ، لم يقدر لى قط ان ابرأ منها ، وقد استطاعت باقترانها بحيائى الطبيعى ان تكذب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب !.. فقد كنت من الصدق فى حبى بدرجة أجرؤ معها على القول بانها لم تكن لتمكننى من أن أسعد بسهولة . فما كانت العواطف يوما أشد توثبا وأطهر طبيعة مما كانت لدى ، ولا كان الحب يوما ارق ، وأصدق ، وأبعد عن المصلحة مما كان عندى !.. كنت على استعداد لأن أضحى بسعادتى الف مرة من اجل سعادة المرأة التى أحبها . كانت سمعتها اعز لدى من حياتى ، وما كنت لأرجو البتة أن أعرض طمأنينتها لحظة واحدة لأى خطر ، فى مقابل كل المباهج والمتع ! وقد حملنى هذا الشعور على ان أسرف فى الحذر والتكتم والحيطة فى مغامراتى ، إلى الحد الذى لم يقدر عنده لأى منها أن تنجح !.. وما كانت حاجتى إلى أن أوفق مع النساء إلا ناجمة دائما عن حبى العارم لهن !

* * *

ولنعد الآن إلى ذلك الدميم ، عازف القيثارة : كان الغريب فى أمر هذا الغادر انه كلما ازداد ثقل ظل ، بدا أكثر لطفا

وإيناسا !.. وكانت مخدومته ـ منذ اليوم الأول الذى مالت فيه إلى ــ قد فكرت فى أن تجعلنى نافعا فى الحانوت . وكنت أجيد الحساب ، فاقترحت عليه أن يعلمنى كيف أمسك الدفاتر التجارية ، ولكن الجلف تلقى الاقتراح فى امتعاض ، لعل مبعثه أنه خشى أن يزحزح عن عمله ! ومن ثم فقد كان كل عملى ــ إلى جانب حفر المعادن ــ يقتصر على نسخ بضعة حسابات ومذكرات ، وتصحيح بعض الدفاتر ، وترجمة بضع رسائل تجارية من الإيطالية إلى الفرنسية . وفجاة ، عن لصاحبى أن يعود إلى الاقتراح الذى سبق له أن رفضه ، فتطوع لتعليمى القيد المزدوج[١] ، وقال إنه بات راغبا فى أن يجعلنى كفئا لأن أتقدم بخدماتى إلى السيد بازيل عند عودته . وكان فى صوته ومسلكه شىء من الزيف والحقد والسخرية ، لم يوح إلى بالطمأنينة ! ولم تنتظر مدام بازيل حتى أجيبه ، بل قالت له فى برود إننى شاكر له تطوعه ، وإنها تأمل أن يجازينى القدر فى النهاية عن طيب صفائى ، وإنه لأمر جدير بأعظم الرثاء لو أننى لم أغد ـ برغم كل مواهبى ـ أكثر من « كاتب » مثله !

وكانت السيدة قد أخبرتنى ، فى عدة مناسبات ، بأنها راغبة فى أن تقدمنى إلى شخص قد يستطيع أن يساعدنى. وكانت من الحكمة بحيث أدركت أن الوقت قد حان كى نفترق، إذ أن اعترافاتنا الصامتة بالحب وقعت فى يوم الخميس ، فلما

(١) طريقة قيد الحسابات التجارية ، بتسجيل كل عملية فى الجانب الدائن والجانب المدين : « منه » و « له » .

كان يوم الأحد التالى ، أقامت مأدبة عشاء كنت ممن حضروها. وكان بين الضيوف راهب من المذهب « اليعقوبى » ، حسن الطلعة ، قدمتنى إليه السيدة ، فعاملنى بحفاوة بالغة ، وهنأنى بانضوائى تحت لواء الكثلكة ، وحدثنى عن حياتى بطريقة نمت لى عن أن السيدة قد أفضت إليه بتفصيلاتها .. ثم نصحنى ــ وهو يربت على خدى بظهر يده فى ود ــ بأن أتصرف بما يليق بكرامتى ، وبأن أكون قوى الجلد وشجاعا ، وبأن أذهب لزيارته ليتاح لنا أن نتبسط فى الحديث معا . وأدركت من الاحترام الذى كان كل امرىء يبديه له ، أنه رجل ذو مكانة . كما أدركت من اللهجة الأبوية التى كان يوجه بها حديثه إلى مدام بازيل ، أنه الراهب الذى تفضى إليه باعترافاتها ! كذلك أذكر أن الألفة البالغة التى كان يبديها نحو تائبته[١] كانت مشوبة بمظاهر التقدير ، بل والاحترام ، الأمر الذى لم يدهشنى إذ ذاك قدر ما يدهشنى الآن . ولو أننى كنت أذكى مما كنت إذ ذاك ، لكنت خليقا بأن آتيه فخرا لمجرد التفكير فى أننى استطعت أن أمس أحاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذى كان يتلقى اعترافاتها !

ولم تتسع المائدة لنا جميعا ، فرؤى إضافة مائدة أخرى صغيرة ، كان من حظى أن جلست إليها ، مواجها للكاتب ..

(١) تقضى التقاليد الدينية لدى الكاثوليك بأن يعترف الشخص الى قس الكنيسة التى يتبعها ، فيعظه القس ويصلى من أجله ، ويكون اعترافه دليل التوبة ، فهو بهذا الوضع تائب .

ولم أخسر بهذا التنظيم شيئا من الرعاية أو التلطف ، فقد نقلت عدة صحاف من الطعام إلى المائدة الصغيرة ، لم يكن صاحبي هو المقصود بها بالتأكيد ! وكان كل شيء يسير كما ينبغي حتى ذلك الوقت ، فكانت السيدات جد طروبات ، والرجال مرهفي الانتباه . وكانت مدام بازيل تدعو إلى الأنخاب في مهابة فاتنة . وفي منتصف العشاء ، وقفت عربة بالباب ، وأقبل شخص يصعد السلم .. وكان القادم هو السيد بازيل . وإني لأتمثله الآن بنفس صورته حين دخل علينا ، مرتديا معطفا قرمزيا ذا أزرار مذهبة ، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم أن أنفر منه ! وكان طويلا ، مليحا ، حسن المظهر . وأقبل في جلبة ، شأن الرجل الذي يفاجيء ضيوفه ، برغم أن الحضور جميعا كانوا أصدقاء له . والقت زوجته ذراعيها حول عنقه ، وراحت تضغط يديه ، وتضفي عليه ألوان الغزل والملاطفة ؛ فتقبلها جميعا دون أن يلتفت ، وحيا الجماعة ، وجلس ليتناول الطعام .

ولم يكد الضيوف يشرعون في الحديث عن رحلته ، حتى وجه عينيه نحو المائدة الصغيرة ، وتساءل في صوت جاف عمن يكون الفتى اليافع الذي رآه جالسا إليها ، فروت له مدام بازيل كل شيء في بساطة ساذجة . فتساءل عما إذا كنت أقيم في الدار ، فأجيبت بالنفي ، وإذ ذاك قال بصوت أجش ! « ولم لا ؟ .. مادام يقضي سحابة النهار هنا ، فمن المستحسن أن يمكث خلال الليل » . وأمسك الراهب بزمام الحديث ، وبعد أن تحدث عن مدام بازيل بعبارات الإطراء المخلص الصادق ،

ذكر بضع كلمات في امتداحي ، وأضاف قائلا للزوج إن من الجدير به أن يتوق إلى المساهمة في العمل الخيري الذي أدته زوجته الصالحة ، بدلا من أن يلومها عليه ، فليس في هذا العمل ما يجاوز حدود الحكمة والكرامة . وأجاب السيد بازيل في لهجة غاضبة حاول إخفاءها بعض الشيء ، احتراما لوجود الراهب ، ولكنها كانت كافية لأن تجعلني أشعر بأنه تلقى أنباء عني ، وأن الكاتب قد دس لي لديه !

وما أن انتهت المأدبة ، حتى أقبل الكاتب مزهوا ، وقد أوفده مخدومه ليدعوني ـ بأمره ـ إلى أن أبارح البيت فورا ، فلا أضع فيه قدمي بعد ذلك ! وحشا رسالته بكل ما كان كفيلا بأن يجعلها قاسية مهينة . فانصرفت بدون أن أنبس بكلمة ، ولكن بقلب طعين ، لم تكن تعذبه فكرة مفارقة تلك المرأة اللطفية ، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجها المتوحش !.. ولا مراء في أنه كان على حق في رغبته أن لا تخونه زوجته ، ولكنها كانت ـ برغم ذكائها وحسن تربيتها ـ إيطالية الأصل ، أعني أنها كانت مفطورة على الحس المرهف وحب الثأر . ويلوح لي أنه كان مخطئا إذ عاملها بأكثر الطرق قابلية لأن تجلب عليه ما كان يخشاه من نحس !

هكذا كانت نتيجة مغامرتي الغرامية الأولى . ولم أغفل أن أمر بالشارع مرتين أو ثلاثا ، على أمل أن أرى ـ على الأقل ـ المرأة التي لم يكن قلبي يكف عن التحسر عليها . ولكني رأيت ـ بدلا منها ـ الزوج والكاتب المتربص الذي لم يكد يلمحني حتى أشار نحوي بالشريط الخشبي الذي يستخدم لقياس الياردة ، إشارة كانت تنطوي على أكثر من مجرد

التهديد ! وإذ تبينت ان الرقابة شديدة ، فترت عزيمتى ، ولم امر بالحانوت مرة اخرى . ولقد رغبت فى ان اسعى إلى الراهب الذى كانت مدام بازيل قد هدتنى إليه ، ولكنى لم أكن أعرف اسمه ، لسوء الحظ ، فطوفت عدة مرات بالدير آملا فى ان اصادفه . ولكن دون ما توفيق . واخيرا ، عدت احداث اخرى على ذكريات مدام بازيل البهيجة ، فلم ألبث ان نسيتها تماما بعد وقت قصير .. بل إننى ـ لسذاجتى وحداثتى ـ لم أعد أحس بميل إلى الجميلات !

على ان كرم مدام بازيل زود صوان ثيابى إلى حد ما ، وإن كانت قد راعت التواضع وبعد النظر الذى تتصف به المرأة العاقلة التى تفكر فى نظافة الملبس اكثر مما تفكر فى زينته ، مما نم عن انها كانت تبغى أن تصوننى من الهوان ، لا أن تزيننى . وكانت الثياب التى حملتها معى من جنيف لا تزال صالحة للارتداء ، ومن ثم فانها لم تضف إليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية . ولم تكن عندى قفازات ، ولكنها أبت ان تمنحنى شيئا منها ، برغم أننى كنت جد تواق لذلك ، فقد كانت قانعة بأن تجعلنى فى وضع يمكننى من ان احتفظ بنفسى نظيف الملبس والمظهر ، وهو أمر لم تكن بحاجة إلى أن توصينى بالاهتمام به ، عندما كنت معها !

وبعد ايام قلائل من طردى من الحانوت ، انباتنى صاحبة البيت الذى كنت اقيم فيه ـ وقد ذكرت انها مالت إلى ـ بأن من المحتمل ان تكون قد وجدت لى عملا ، فان سيدة ذات مكانة قد رغبت فى ان ترانى . وعند هذه الكلمات ، ظننت اننى أصبحت فعلا وسط مغامرات راقية ، إذ كان ذهنى يدور دائما

حول ذلك . على أن المغامرة فى هذه المرة لم تكن من البهاء كما صورتها لنفسى ، فقد ذهبت لمقابلة السيدة مع الخادم الذى حدثها عنى ، فسألتنى وامتحنتنى ، ولم اخيب رجاءها ، فالتحقت بخدمتها لفورى ، لا فى مركز مقرب لديها ، وإنما كخادم يرتدى الزى الخاص بخدمها ! وكان الفارق الوحيد بينى وبين هؤلاء أنهم كانوا يلبسون أنشوطات على اكتافهم(١)، اما انا فلم اكن افعل .. ولما كانت ثياب خدمها لا تزدان بشىء من الوشى ، فانها كانت تبدو كالأزياء العادية .. وهكذا كانت النهاية غير المرتقبة لآمالى العظام !

وكانت « الكونتة دى فيرسيللى » ـ التى التحقت إذ ذاك بخدمتها ـ ارملة بلا ولد ، وقد كان زوجها من ابناء (بييمونت) . وكنت دائما اخالها من إقليم (سافوا) ، فما كنت لأصدق أن بين أهل (بييمونت) من يجيد الفرنسية إلى درجة الكلام بلهجة خالية من أية لكنة . وكانت فى أواسط العمر ، ذات منظر ممتاز ، وقد أوتيت ذهنا مثقفا . وكانت مولعة بالادب الفرنسى الذى كانت على دراية واسعة به . كما كانت تكثر من الكتابة ، وبالفرنسية دائما . وكانت لرسائلها روح ، بل وروعة ، رسائل « مدام دى سيفينييه » ، حتى أن بعضها يخاله المرء من قلم هذه الأخيرة . وكان عملى الرئيسى من نوع لم أكن اكرهه ، إذ كنت اكتب لها ما تمليه على من هذه الرسائل ، فقد كانت مصابة بسرطان فى المعدة ، يكبدها آلاما عظيمة تجعل من المستحيل عليها ان تكتب بنفسها !

---

(١) جبال مجدولة (اسبلايت) أو شارات [illegible] السماء.

ولم تكن مدام دى فيرسيللى ذات ذكاء عظيم ، ولكنها أوتيت روحا قوية عالية . وكنت معها اثناء مرضها الأخير ، فشهدتها تتعذب وتموت دون أن تبدى بادرة من بوادر الضعف ، ولو لحظة واحدة ، دون أن تبذل اقل جهد فى السيطرة على نفسها ، أو تفعل شيئا لا يليق بامرأة ، بل ودون أن يخطر ببالها أن مسلكها كان مثالا للفلسفة ، وهى كلمة لم تكن قد أصبحت شائعة ، ولم تكن السيدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم .

وكانت قوة شخصيتها هذه ، تطغى فى بعض الأحيان حتى تصبح برودا !.. كانت تبدو لى دائما وكأنها لا تكن من المشاعر لسواها قدر ما تكن لنفسها . وعندما كانت تبدى كرما لأى تعس ، فانما كانت تصدر فى ذلك عن رغبة فى اتيان الخير والعمل الصالح ، اكثر منها عن شعور حقيقى بالصدقة . لقد خبرت هذا القصور فى شعورها ــ إلى حد ما ــ خلال الأشهر الثلاثة التى قضيتها معها . ولقد كان الأمر يبدو طبيعيا لو أنها قدرت شابا ذا مواهب ، كانت تراه أمامها باستمرار ، فاذا ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت فى أنه قد يصبح بعدها فى حاجة إلى المعونة والمساعدة .. ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك ، إما لأنها لم تعتبرنى أهلا لرعاية خاصة ، أو لأن الذين كانوا يحيطون بها لم يتيحوا لها أن تفكر فى سواهم !

على أننى أتذكر جيدا أنها أبدت بعض فضول إلى تعرف قصتى ، فكانت أحيانا توجه إلى أسئلة ، وتحب أن أريها الخطابات التى كنت اكتبها إلى مدام دى فاران ، وأصف لها مشاعرى . على أنها لم تسلك ـ بالتأكيد ـ الطريق الصحيحة

للتعرف على هذه المشاعر ، إذ أنها لم تبح لى قط بشىء من مشاعرها الخاصة ! وكان قلبى يحب أن يكشف عن دخيلته على شريطة أن يطمئن إلى أنه إنما يفضى بسريرته إلى قلب آخر . أما الأسئلة الباردة الجافة ، التى لا تنطوى على بادرة من رضاء أو لوم إزاء إجاباتى ، فلم تكن توحى إلى بشىء من الثقة . وعندما كنت لا أرى ما ينم عما إذا كان حديثى يرضيها أو يضايقها ، كنت أشعر دائما بجزع !.. على أننى لاحظت ، منذ ذلك الحين ، أن هذه الطريقة الجافة فى توجيه الأسئلة إلى الناس للتعرف على شخصيتهم ، حيلة كثيرا ما تعمد إليها النساء اللواتى يرغبن فى أن يبدون ذكيات بارعات . فهن يخلن أنهن بإخفاء مشاعرهن يكن أكثر توفيقا فى الكشف عن مشاعرك أنت ! ولكنهن يخفقن فى أن يرين أنهن بهذا العمل يجردنك من الجرأة على هذا الكشف !.. والرجل إذا ما سئل ، بادر إلى التحفظ من أجل ذلك السبب وحده ، وإذا اعتقد أن سائله إنما يريد أن يحمله على الكلام فحسب ، دون أى اهتمام حقيقى بأمره ، فانه إما أن يعمد إلى الكذب ، أو إلى حبس لسانه ، أو يضاعف من حيطته ، مفضلا أن يظن أنه أحمق عن أن يكون تسلية للفضول ! وقصارى القول ، إن المرء إذا رغب فى قراءة قلوب الآخرين ، فان من سوء السياسة أن يظهر أنه يخفى ما فى قلبه !

ولم يحدث لمدام دى فيرسيللى أن باحت لى قط بكلمة تعبر عن ود ، أو شفقة ، أو عطف . وإنما كانت توجه إلى أسئلة بلهجة باردة ، فأجيب عليها بتحفظ . ولا يروق إجاباتى كانت

تبدو لها تافهة مضجرة . وما لبثت فى النهـاية ان كفت عن
الأسئلة ، ولم تعد تكلمنى إلا لتصدر لى اوامرها ! كانت تحكم
على فى ضوء ما دفعتنى إليه بمسلكها ، وليس فى ضوء ما كنته
.. وما رأت فى قط سوى مجرد خادم ، فكانت تمنعنى من ان
ابدو فى غير شخصية الخادم !.. واعتقد اننى منذ ذلك الوقت
اعانى من خبث هوايـة التآمر فى الخفـاء التى تدفعنى إلى
الانحراف ، والتى اوحت إلى بنفور طبيعى جدا من الأوضاع
التى خلقت هذه الهواية . وكان وريث مدام دى فيرسيللى ــ
التى كانت بلا ولد ــ هو ابن اخيهـا الكونت « ديلا روك »
الذى كان مثابرا على التقرب إليها . وفضـلا عن ذلك ، فان
رؤساء خدمهـا ــ الذين رأوا نهايتهـا تدنو ــ لم يغفلـوا
مصالحهم ، ومن ثم فقد كان يحيط بهـا كثيرون ممن يظهرون
الوفاء لخدمتها ، فكان من العسير عليها ان تفكر فى شخصى .
وكان على رأس قصرها رجل ماهر يدعى السـيد لورنزى ،
استطاعت زوجته ـ التى كانت تفوقه ذكاء ـ أن تتملق مولاتها
وان تكسب رضاها إلى درجة انها صارت منها بمثابة الصديقة
اكثر منها الخادم الأجيرة . وقد استطاعت بذلك ان تظفر لابنة
اخيها بمنصب وصـيفة السيدة ! وكانت ابنـة الأخ مخلوقة
ماكرة ، تدعى الآنسة بونتال ، تجيد الظهـور بمظهر وصيفة
الشرف ، وبذلك وفقت إلى مساعدة عمتهـا فى التقـرب إلى
السيدة ، فلم تعد هـذه ترى إلا بعيون الاثنتين ، او تعمل إلا
بأيديهما ! ولم يكن لى حظ إرضاء هؤلاء الأشخاص الثلاثة ــ
السيد لورنزى وزوجته وابنة اخيها ــ فقد كنت اطيعهم ولكنى

لم اخدمهم ، إذ لم أفطن إلى أننى ــ بجانب خدمة مخدومتنـا
المشتركة ــ كنت مضطرا إلى أن اكون خادما لخدمهـا !..
فضلا عن أننى كنت من ذلك النوع من الخدم الذى يثير قلقهم ،
إذ رأوا بوضوح أننى كنت فى غير المكان الذى أستحقه ، فكانوا
يخشون أن ترى السيدة ذلك بدورها ، وأن تعمد ـ كى تضعنى
فى المركـز اللائق بى ــ إلى إجـراء قـد يقلل من حظهم من
مالها !.. ذلك أن أبناء هذه الطبقة هم فى العادة اشد جشعا
من أن يكونوا منصفين ، وتراهم ينظرون إلى أية منحة لسواهم
وكأنهـا حق استلب من مالهم الخاص ! ومن ثم فانهم تآمروا
على إقصائى عن بصر السيدة . ولمـا كان غرامهـا بكتابة
الرسائل قد صار بمثابة تسلية لها فى ضعفها الصحى ، فانهم
أوحوا إليها بما جعلها تكره هذه الهواية ، وصرفوها عن المضى
فيها مستعينين بنصح طبيبها ، وبالتثبيط من عزيمتها بزعم انها
عملية جد مرهقة لها !.. ثم صوروا لهـا اننى لم اكن افهم
واجبى ، وبذلك أقنعوها بأن تعين فى مكانى خادمين لئيمين ،
كى يحملا مقعدها ! وبإيجاز ، فانهم تعمدوا ــ ببراعة ــ ان
لا ألج غرفتها طوال ثمانية أيام ، هى الفترة التى كانت اثناءها
تعد وصيتها ! ومن الصحيح اننى بعد هذه المدة عدت ادخل
غرفتها كعهدى من قبل ، واخذت ابدى لها من الاهتمام فوق
ما كان يبديـه اى شخص سـواى ، إذ ان الآلام التى كانت
تعانيها المسكينة اخذت تمزق قلبى ، والجلد الذى كانت تتحملها
به أوحى إلى بأن اوقرها واعطف عليها إلى اقصى درجة ..
حتى انى كثيرا ما كنت اذرف دموع الأسى صادقة فى غرفتى ،
دون أن يرانى احد !

واخيرا فقدناها .. ورايتها تجود بآخر انفاسها . وكما عاشت حياة امراة موهوبة ذكية ، فانها ماتت ميتة الفلاسفة . وبوسعى ان اقول إنها الهمتنى تقديرا عاليا للعقيدة الكاثوليكية ، بفضل ما كانت تبديه من إقبال على اتباع تعاليمها ، دون إهمال أو تصنع . كانت فى الواقع ذات طبع حاد ، وقد أخذت تبدى ـ فى نهاية مرضها ـ نوعا من الانشراح الذى كان انتظامه يوحى بانه غير حقيقى ، فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة ، وسوى ثمرة من ثمار العقل . ومع انها لم تلزم فراشها إلا فى اليومين الأخرين ، إلا انها ظلت تتحدث فى هدوء مع كل أمرىء حتى النهاية . وأخيرا ، لم تعد تتكلم ، ولكنها فى نزعات الموت صاحت بصوت مرتفع : « حسنا !.. إن المراة التى تستطيع ان تطلق الغازات من أمعائها ، لا تموت » .. وتقلبت فى فراشها ، وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها !

.. ولقد تركت لصغار خدمها اجور عام كامل ، اما انا فلم اتلق شيئا ، لاننى لم اكن فى قائمتهم! على ان الكونت ديلا روك امر باعطائى ثلاثين ليرة(١) ، كما ترك لى السترة الجديدة التى كنت ارتديها ، والتى اراد السيد لورنزى ان ياخذها منى ! بل إن الكونت تكرم فوعد بأن يحاول إيجاد عمل لى ، واذن لى بان اذهب لأراه ، وقد ذهبت مرتين او ثلاثا ، دون ان أتمكن من

(١) الليرة : عملة قديمة كانت قيمتها تتباين بتباين الأزمان والأماكن ، وقد اطلق الاسم على « الفرنك » فى بعض الأوقات .

التحدث إليه . ولما كنت سريع القنوط ، فاننى لم اذهب بعد ذلك . ولسوف يتبدى ـ بعد قليل ـ اننى كنت مخطئا .

وليتنى كنت استطيع ان أنهى ، عند هذا القدر ، كل ما لدى من قول عن فترة إقامتى لدى مدام دى فيرسيللى !.. لكن الواقع أننى لم ابرح الدار كما دخلتها ، وإن ظلت حالى كما كانت . لقد حملت معى من الدار ذكريات باقية للجريمة ، وعبئا لا يطاق من الندم ، لا يزال يثقل ضميرى برغم مرور أربعين عاما ! وبدلا من ان تزداد مرارته ضعفا ووهنا ، إذا بها تقوى وتشتد كلما تقدمت بى السنون : فمنذا يصدق أن غلطة صبيانية تؤدى إلى مثل هذه التبعات القاسية ؟ التبعات التى كانت افدح مما يخطر بالبال ، والتى لا يجد قلبى عزاء من اجلها ؟.. ذلك اننى تسببت فى دمار فتاة لطيفة ، شريفة ، جديرة بالتقدير ـ بل كان من المؤكد انها تفوقنى جدارة ـ إذ دفعت بها إلى الخزى والتعاسة !

وإليك القصة : إن من الأمور التى لا مناص منها ، ان تغير نظام بيت من البيوت خليق بأن يحدث شيئا من الفوضى فى البيت ، فتضيع أشياء عديدة . ومع ذلك فان الخدم فى دار تلك السيدة كانوا من الأمانة ـ كما كان لورنزى من اليقظة ـ بحيث أن شيئا لم يفتقد من دار مدام دى فيرسيللى عندما أحصى ما كان فيها . ولكن حدث ان الآنسة « بونتال » فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الأحمر والفضى . ولقد كانت تحت يدى أشياء كثيرة تفوق تلك القطعة فى القيمة ، غير أن هذه وحدها هى التى اغرتنى ، فسرقتها ! ولما كنت لم اجشم نفسى عناء

إخفائها ، فانها سرعان ما وجدت .. وشاءوا ان يعرفوا كيف آلت إلى حوزتى ، فاذا بى ارتبك ، واتلعثم ، وإذا بوجهى يتضرج .. ثم قلت — فى النهاية — إن « ماريون » اعطتنيها !

وكانت « ماريون » شابة من (موريين) اتخذتها مدام دى فيرسيللى طاهية لها عندما كفت عن إقامة الولائم فسرحت طاهيتها واصبحت تكتفى بالحساء الجيد عن الأطعمة الشهية. ولم تكن « ماريون » هذه رشيقة فحسب ، بل كانت ذات لون حاضر ، لا يوجد إلا لدى أهل الجبال ، كما كانت تتصف — فوق كل شىء — بنوع من اللطف والتواضع ، يستحيل معه على من يراها أن لا يحبها !.. ثم انها كانت فتاة طيبة ، ورعة ، لا جدال فى أمانتها . لذلك دهش الجميع عندما ذكرت اسمها ! وكان كل منا موضع ثقة ، لذلك كان من المهم ان يتبينوا من منا اللص الحقيقى ؟ ومن ثم استدعيت ، واجتمع نفر من القوم ، بينهم الكونت ديلا روك . وعندما قدمت ، عرض عليها الشريط .. واتهمتها فى جراة ، فبهتت ، ولم تقو على ان تنبس ببنت شفة ، وإنما اكتفت بأن رمقتنى بنظرة كانت كفيلة بان تجرد إبليس ذاته من اسلحته ، ولكن قلبى البهيمى كان منيعا دونها ! واخيرا ، انكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة ، ولكن دون غضب ، وخاطبتنى فناشدتنى ان افكر ، والا اشوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بى اى اذى . ولكنى اصررت على قصتى ، فى قحة شيطانية ، واعلنت فى وجهها انها هى التى اعطتنى الشريط !.. فشرعت المسكينة تبكى ، ولم تقل سوى : « آه ! كنت اظنك رجلا طيبا يا روسو . إنك تشقيننى

كل الشقاء ، ولكنى لا أتمنى أن أكون فى موقفك ! » .. وكان هذا كل ما عندها لى ، فقد راحت تدافع عن نفسها فى بساطة وحزم ، دون أن تسمح لنفسها بأن توجه إلى اقل تأنيب او لوم ! وأدى هذا الاعتدال — بالقياس إلى لهجتى الجازمة — إلى ضررها ، فما كان من الطبيعى أن تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبى ، بوداعة ملائكية من جانبها ! ومع أن المسألة لم تسو نهائيا ، إلا أنه بدا أنهم جميعا مالوا إلى جانبى ، ولكنهم لم يضيعوا وقتهم فى التعمق فى المسألة ، فى غمرة الفوضى التى كانت تسود الدار ، واكتفى الكونت ديلا روك — وهو يفصلنا معا من الخدمة — بأن قال إن ضمير المذنب خليق بأن يثأر للبرىء !.. ولقد تحققت نبوءته ، بل إنها لتتحقق فى كل يوم !

ولست أدرى ما جرى لضحية اتهامى الزائف ، ولكن من غير المحتمل انها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك ، فقد حملت معها وصمة لطخت شرفها بقسوة من كل النواحى . لقد كانت السرقة طفيفة تافهة ، ولكنها كانت — برغم ذلك — سرقة ! ومما زاد الطين بلة أنها ارتكبت لاغواء شاب .. ثم إن الكذب والعناد لم يخلفا شيئا يرتجى من شخص اجتمعت فى نفسه كل هذه الرذائل ! بل إننى لا اظن ان التعاسة والنبذ هما اعظم الأخطار التى تسببت بفعلتى فى تعريض الفتاة لها ، فان المرء لا يستطيع ان يدرى مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة ، فتاة فى مثل سنها !.. اواه ! إذا كان شعورى بالندم لا يطاق ، لمجرد الاحتمال التى جعلتها

تعسة ، ففى وسع المرء أن يقدر ما يخالجنى من شعور إذ اتصور اننى قد اكون دفعت الفتاة إلى اسوأ من هذا المصير !

إن هذه الذكرى تقض راحتى وتمضنى فى بعض الأوقات ، إلى درجة تجعلنى اخال ـ فى ساعات السهاد ـ أن الفتاة المسكينة مقبلة لتلومنى على جرمى ، وكأننى ارتكبت هذا الجرم بالأمس القريب ! ويخف عذاب هذه الذكرى طالما كنت أعيش فى هدوء ودعة ، ولكنها فى غمرة الحياة الصاخبة تسلبنى لذة العزاء ، وتجعلنى احس بما اذكر اننى قلته فى أحد كتبى من ان « الندم يهجع عندما تكون حظوظنا فى ازدهار ، ويجعل عذابه محسوسا فى أوقات النوائب » ! . . ومع ذلك فاننى لم اقو البتة على أن احمل نفسى على ان افضفض عن صدرى ، بأن أعترف بالقصة لأحد من أصدقائى . . فان أوثق الود لم يصل بى يوما إلى هذا الحد مع اى امرىء ، حتى مع مدام دى فاران . كل ما استطعته هو ان اعترفت بان على أن الوم نفسى على عمل فظيع ، ولكنى لم افصح إطلاقا عن كنهه !. ولقد ظل هذا العبء يثقل ضميرى إلى اليوم ، دون ان تخف وطأته ، وإنى لأذهب إلى حد التأكيد بأن الرغبة فى الخلاص منه ـ إلى حد ما ـ ساهمت بدور كبير فى إقدامى على كتابة هذه « الاعترافات » !

لقد كنت صريحا أمينا فى الاعتراف الذى ذكرته ، ولسوف يتضح بالتأكيد اننى لم أحاول ان اخفف قتامة جرمى . ولكنى لا أحقق الهدف المرجو من هذا الكتاب إذا انا لم أعرض ـ فى الوقت ذاته ـ أعمق مشاعرى الدفينة ، وإذا انا ترددت فى

أن أبرز نفسى ، بحقائق محضة صادقة : فما كانت النية الخبيثة بمنأى عنى فى اية لحظة ، بقدر ما كانت فى تلك اللحظة القاسية . ولقد كان من الغريب ـ ولكن من الصحيح ايضا فى الوقت نفسه ـ أن صداقتى للفتاة التعسة كانت هى السبب فى أننى اتهمتها ! . . ذلك أنها كانت ماثلة فى خاطرى ، فلم ار بدا من أن القى اللوم على اول شخص قفز إلى فكرى ، فاتهمتها بفعل ما كنت أعتزم فعله . . اتهمتها بانها أعطتنى الشريط ، لأنى كنت أعتزم أن اعطيها إياه ! فلما رأيتها أمامى ـ بعد ذلك ـ تمزق قلبى ، لكن وجود كل ذلك العدد من الناس كان اقوى تأثيرا على نفسى من التوبة !. . وما كنت خائفا من العقاب ، وإنما كنت خائفا من العار ، فقد كنت ارهبه اكثر من الموت ، واكثر من الجريمة ، واكثر من اى شىء آخر فى الدنيا ! . . وكم كنت أغتبط لو أن الأرض انشقت فجأة فابتعلتنى وخنقتنى ! وهكذا تغلب الخوف الطاغى من العار على كل شىء ، فلم يزدنى إلا قحة . . إذ أن ازدياد إجرامى ، وازدياد نفورى من الاعتراف ، أديا إلى انعدام خوفى من الافتراء ، فما عدت أرى أمامى ـ إذ ذاك ـ سوى بشاعة الفضيحة ، وهتك سترى للملأ ، فى حضورى ، باعتبار أننى لص . . وكاذب . . ومفتر !. . ذلك ما كان الارتباك الشامل يجردنى من كل شعور سواه . ولو أنهم أتاحوا لى فرصة أسترد فيها رباطة جأشى ، لما كان ثمة ريب فى أننى كنت أعترف إذ ذاك بكل شىء !. . لو ان السيد ديلا روك انتحى بى جانبا ، وقال لى : « لا تفسد على هذه الفتاة المسكينة حياتها . . إذا كنت مذنبا فاعترف لى » ، لألقيت بنفسى فى الحال على قدميه .

إنى لموقن تماما من ذلك ! ولكنى حين افتقــدت التشجيع ، لم الق منهم سوى الارهاب !

ثم إن الانصاف يدعو إلى النظر بعين الاعتبار إلى سنى ، فقد كنت يومئذ أقرب إلى الطفولة منى إلى الرجولة . والجرائم الحقيقية تكون فى الصغر اكثر اتصافا بالإجرام منها فى الكبر ، اما الجرائم التى لا تعدو ان تكون نزوات مبعثها الضعف ، فلا تكون فى الواقع ناجمة — لدى الصغار — عن روح إجرامية . ومن ثم فان العمل الذى ارتكبته لم يكن — فى جوهره — اكثر من « مخالفة » !.. وهكذا فان ذكراها لا تكربنى لمــا فيها من شر ، بقدر ما تكربنى بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة . على انها احسنت فى الواقع ، إذ صانتنى بقية عمرى من كل عمل يميل إلى الإجرام .. واحسنت إلى بالأثر الرهيب الذى انطبع فى نفسى من جراء الذنب الوحيد الذى ارتكبته . وإنى لاومن بأن استبشاعى الكذب إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى ندمى على اننى استطعت ان اقدم على مثل تلك الأكذوبة المخزية!.. إنه جرم يمكن التكفير عنه ، بل إننى لأجرؤ على القول باننى قد كفرت عنه بكل الشقاء الذى طغى على السنوات الأخيرة من حياتى.. بأربعين عاما من الاســتقامة فى أوعــر الظــروف !.. وإن « ماريون » المسكينة لتجد فى الدنيا كثيرا من المنتقمين لها ، بل إنهم لمن الكثرة بحيث اننى — مهما يكن عظم ذنبى ضــدها — لم اعد اخاف ان اموت غير مستمتع بالغفران !

وهذا كل ما اود ان اقوله بهذا الصــدد ، فاســمحوا لى بالا اعود إلى الحديث قط فى هذا الموضوع !

الكراسة الثالثة

٥ — من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

وإذ تركت دار مدام دى فيرسيللى فى حال قريبــة من تلك التى كنت فيها حين دخلتها ، عدت إلى صاحبة النزل التى كنت اقيم عندها من قبل ، فقضيت معها خمسة أسابيع او ستة ، عادت خلالها الصحة والشباب والكسل إلى إشاعة الاضطراب فى طباعى ، فاصبحت قلقا ، شارد الفكر ، حالمــا .. صرت ابكى ، واتنهد ، واتوق إلى سعادة لم تكن لدى عنها اية فكرة ، ولكنى — مع ذلك — كنت اشعر باننى راغب فيها ! ولا سبيل إلى وصف هــذه الحــال ، بل إن الذين يستطيعون تصورها قليلون بين الناس ، يصبو معظمهم إلى حياة تجمع بين العذاب والعذوبة ، وتخلق الشعور باللذة فى عنفوان الشوق . وكان دمى الفائر يملأ مخى دائما بالنساء والفتيات . ولما كنت جاهلا بالعلاقات الجنسية ، فقد رحت استغل تلك الرؤى وفقــا لأفكارى المتخبطة ، دون ان ادرى طريقة اخرى للإفادة منها ! .. وقد استبقت هذه الأفكار مشاعرى فى حالة نشاط ممض ، دون ان ترشدنى — لحسن الحظ — إلى طريق الخلاص من هذه الحال .. ولقد كنت إذ ذاك على استعداد لأن أجود بكل حياتى مقابل العثور على « آنسة دى جوتون » اخرى ، ولو لربع ساعة ! ولكن الوقت الذى كان لهو الطفولة يتخذ فيــه هذا الاتجاه — باعتباره الاتجاه الطبيعى — كان قد ولى !.. كان الشعور بالعار — وهو رفيق الضمير السيىء — قد شرع

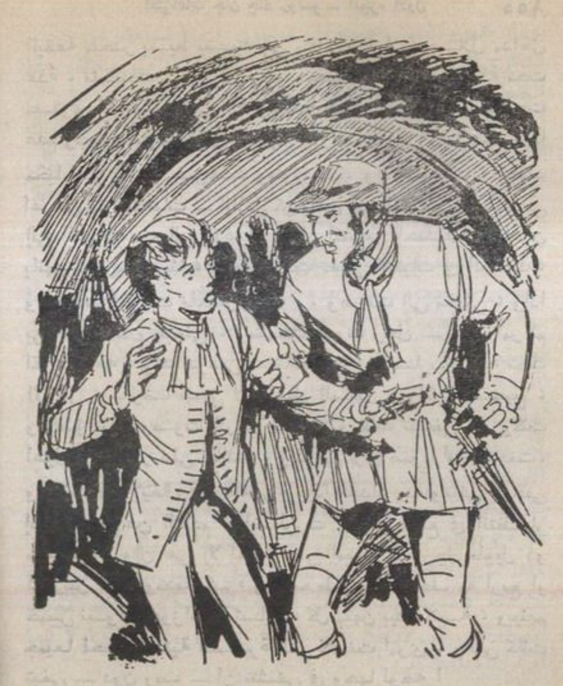
يزداد ظهورا كلما تقدمت بى السنون ، مما ضاعف من خجلى
الفطرى إلى الدرجة التى لم اعد عندها اقوى على مغالبة هذا
الخجل .. فما عدت اقوى إذ ذاك — ولا فيما بعد — على أن
احمل نفسى على محاولة غير بريئـــة ، اللهم إلا إذا كانت تلك
التى احاولها معها ، هى التى تضطرنى — بطريقة ما — إلى
الإقدام ، مهما اعرف انها متهتكة ، ومهما اشعر عن شبه يقين
بانها ستتلقى محاولتى بالقبول !

ولقد اشتد اضطرابى حتى اننى ، لعجـــزى عن إشـــباع
رغباتى ، أخذت استثير هذه الرغبات بأكثر التصرفات شذوذا
.. فكنت اهيم فى الأزقة المظلمة والدروب المستخفية ، حيث
يحتمل ان يتاح لى ان أعرض نفسى على النسوة بالشكل الذى
كنت أرجو ان اكون عليه معهن !.. على ان ما كن يرينه منى
لم يكن منكرا مستقبحا ، فما خطر ببالى قط مثل هذا ، وإنمـــا
كان ما يرينه سخفا ونزقـــا . ولا سبيل إلى وصـــف السرور
الأرعن الذى كنت استشعره من جراء عرضه عليهن !.. ولم
يكن باقيا امامى سوى خطـــوة ضرورية اخرى ، ثم اكتسب
خبرة واقعية بالمعاملة التى كنت أشتهيها . ولو اننى أوتيت
جلدا على الانتظار ، لما كان ثمة شك فى أن يمر بى شخص لديه
من الجراة ما يكفى لأن ينيلنى المتعة المنشودة !.. ولقد افضت
بى حماقتى إلى ورطة كانت خليقة بأن تكون مضحكة لولا أنها
لم تكن مما يلائمنى !

ففى ذات يوم ، اتخذت مكانى فى مؤخرة ساحة قصر ، كانت
بها بئر اعتادت بنات الدار ان ينتقلن منها المـــاء . وكان فى تلك

البقعة منحدر بسيط يقـــود إلى مخزن (كرار) خـــلال مداخل
عدة ، ففحصت — فى الظـــلام — هـــذه الدروب الممتدة تحت
مستوى الأرض ، حتى إذا وجدتها طويلة ومعتمة ، استنتجت
عدم وجود منفذ منها إلى الخارج ، وأن بوسعى ان أجـــد فيها
مخبأ أمينا إذا انا شوهدت وطوردت . وإذ اطمأننت ، اخذت
أعرض على الفتيات — اللاتى كن يفدن إلى البئر — منظرا أدعى
إلى الضحك منه إلى الاغواء فكان اكثرهن احتشاما يتظاهرن
بأنهن لم يرين شيئا ، بينما شرعت بعض الفتيات فى الضحك ،
واستاءت اخريات فأحدثن جلبة .. وهرعت إلى مخبئى ، وإذا
بى اشعر بمن يتبعنى ، وسمعت صوت رجل — وهو امر لم
أكن اتوقعه ، وقد أفزعنى — فاندفعت فى المسارب الممتدة تحت
الأرض ، معرضا نفسى لأن أضل السبيل ، ولكن الضجيج ،
والأصوات ، وصوت الرجل بالذات ، ظلت تتبعنى .. وكنت
أعول باستمرار على الظلمة ، وإذا بى ارى ضوءا ، فارتجفت،
وأمعنت فى الإيغال فى الظلام ، وإذا بجدار يستوقفنى ، حتى
إذا عجزت عن التقدم ، اضطررت إلى أن اقبع فى انتظـــار
مصيرى . وإن هى إلا لحظة حتى امسك بى رجل طويل ذو
شاربين كثين وقبعة كبيرة وسيف طـــويل ، تحف به اربع أو
خمس نسوة عجوزات ، تسلحت كل منهن بيد مكنسة ، وبينهم
جميعا لمحت الشقية الصغيرة التى كشفت أمرى ، والتى كانت
تبغى — دون ريب — أن تتشفى فى وجها لوجه !

وسألنى الرجل ذو السيف بخشونة ، وهو ممسك بذراعى ،
عما كنت افعل فى ذلك المكان . ومن اليسير تصور أننى لم اجد



وسألنى الرجل ذو السيف بخشونة ، وهو ممسك بذراعى عما كنت أفعل فى ذلك المكان ..

جوابا حاضرا ، على أننى ما لبثت أن تمالكت جأشى ، وفى غمرة اليأس الذى ألم بى فى تلك اللحظة الحرجة ، انتحلت عذرا خياليا لقى نجاحا ، فقد توسلت إلى الرجل فى لهجة ضارعة أن يرحم سنى وحالى ، وقلت إننى كنت شابا غريبا ، من أصل طيب ، وقد أصبت بلوثة ، واضطررت إلى الفرار من أهلى لأنهم أرادوا أن يحبسونى ، وأننى ضائع لا محالة إذا هو وشى بى .. أما إذا تركنى أنصرف ، فقد أستطيع يوما أن أجزيه لقاء كرمه . وعلى النقيض من كل ما توقعت ، أحدثت كلماتى ولهجتى أثرها ، فإذا بقلب الرجل الرهيب يلين ، وبعد أن وجه إلى توبيخا قصيرا ، تركنى أنصرف فى سلام ، دون أن يمضى فى سؤالى ! وأدركت من مسلك الفتاة والعجوزات ـ حين رأيننى أنصرف ـ أن الرجل الذى خفت منه كل ذلك الخوف ، كان عظيم النفع لى ، وأننى ما كنت لأفلت بهذه السهولة لو تركت للنسوة وحدهن ! فقد سمعتهن يتمتمن بحديث لم أكد ألقى إليه بالا ، فقد كنت أشعر ـ ما دام الرجل وسيفه لم يتدخلا فى الأمر ـ باعتداد ، ونشاط ، وقوة تمكننى من الإفلات منهن ومن هراواتهن !

وبعد أيام قلائل ، بينما كنت أسير فى إحدى الطرقات ، مع رئيس أحد الاديرة المجاورة ، كدت أصطدم بالرجل ذى السيف !.. وعرفنى الرجل ، فقال يقلدنى بلهجة ساخرة : « إننى أمير ، إننى أمير ، وإنى لجبان .. ولكن ، حذار من أن يعود صاحب السمو مرة أخرى ! » ولم يزد على ذلك ،

بينما نكست أنا راسى ومضيت فى طريقى دون أن اجسر على التطلع إليه ، وأنا أحمد له ــ فى قرارة قلبى ــ حكمته وتسامحه. وحدست أن العجوزات اللعينات قد عيرنه بسذاجته إذ صدق روايتى ! وكيفما كان الأمر ، فانه كان رجلا طيبا ، برغم أنه من (بييمونت) ، وما تذكرته قط إلا وشكرت له صنيعه، لأن قصتى كانت ساذجة ، وكان أى امرىء فى مكانه خليقا بأن يعيرنى بها ، ولو رغبة فى إثارة الضحك . ومع أن هذه المغامرة لم تنته إلى العواقب التى كنت اخشاها ، إلا أنها جعلتنى الزم الحذر وقتا طويلا !

وكانت إقامتى لدى «مدام دى فيرسيللى قد اكسبتنى بعض المعارف الذين وثقت صلاتى بهم أملا فى أن يستطيعوا لى نفعا. وكان بين الذين أخذت أزورهم منهم ، راهب من أبناء (سافوا) يدعى السيد «جايم» كان معلما لأبناء « الكونت دى ميللاريد » . وكان لا يزال شابا ، وقد اعتاد أن يختلط قليلا بالمجتمع ، ولكنه كان مفعما بالإدراك السليم ، والأمانة ، والذكاء ، كما كان من أشرف الرجال الذين عرفتهم . ولم يكن ذا نفع لى فى الغرض الذى حملنى على زيارته ، إذ لم يكن لديه أى اهتمام يدفعه إلى أن يبحث لى عن منصب . بيد أننى اكتسبت منه منافع أكثر قيمة من ذلك . إذ ظل نفعها يلازمنى طيلة حياتى .. اكتسبت منه دروسا فى الأخلاق القويمة ومبادىء الإدراك السليم . فلقد كنت ، فى ميولى وافكارى المتقلبة ، أسرف فى الارتفاع أو أسف

فى الانحدار .. فأنا إما « أخيل » أو « ثيرسايتز »[1] .. كنت بطلا فى بعض الأحيان ، وتافها ـ امعة ـ فى أحيان أخرى ، وقد آلى السيد «جايم» على نفسه أن يردنى إلى مكانى اللائق بى ، وأن يطلعنى على نفسى فى ألوانها الحقيقية ، دون ما إسراف أو تثبيط . كان يحدثنى عن مواهبى فيوليها ما كانت جديرة به من تقدير ، ولكنه كان يضيف إلى ذلك أنه كان يرى عقبات تنبعث منها وتحول بينى وبين الإفادة منها على خير وجوه الإفادة ، ومن ثم فانها خليقة بأن تكون أقل نفعا لى ، كسلم أرقى عليها إلى الثروة والحظ ، منها كأداة تغنينى عن هذا الحظ وهذه الثروة !.. وبسط الراهب أمامى صورة صادقة للحياة الإنسانية ، التى لم تكن لدى عنها سوى أفكار زائفة ، فأرانى كيف يستطيع الرجل العاقل أن يكافح من أجل السعادة ــ وسط تيارات القدر المعاكسة ــ وأن يدفع زورق حياته برغم الرياح المضادة ، لكى يصل إليها . وبين لى كيف أنه لا وجود للسعادة الحقة بدون الفطنة والدراية ، وأن هذه

---

(١) « اخيل » بطل اغريقى ، هو الشخصية الرئيسية فى « الياذة » هوميروس . وكان من أشجع وأجمل ابطال الاغريق ، وقد اشترك فى حرب طروادة . أما « ثيرسايتز » فكان أقبح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجدالا ، وقد قتله أخيل . والذى يقصده « روسو » من عبارته هنا انه كان لا يعرف اعتدالا فى تلك الفترة من حياته ، فهو اما مسرف فى الشجاعة ونبل النفس ، واما مسرف فى بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة فى الجدال عن حق أو عن باطل !

الفطنة أو الدراية تتعلق بكل ظروف الحيـــاة . وبدد محدثى إعجابى بالعظمة والأبهة الظـــاهرتين ، إذ اثبت لى أن أولئك الذين يتبوأون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا اوفر حكمة وعقلا من المحكومين .. كذلك أنبانى بشىء ، كثيرا ما تذكرته منذ ذلك الحين : لو أتيح لكل امرىء ان يطلع على قلوب غيره من البشر جميعا ، لاتضح أن عدد الراغبين فى الهبـوط يفوق عدد الراغبين فى الصعود فى هذه الحياة ! وهذا الخاطر ـ الذى يذهل صدقه العقل ، والذى لا ينطوى على مغالاة ـ ظل ذا نفع كبير لى خلال مجرد حياتى ، إذ ساعدنى على أن أعيش راضيا بمكانى فى الحياة ! .. لقد أطلعنى هـذا الراهب على أول الأفكار الصحيحة عما هو مشرف ، ممـا لم يتح لذكائى المتضخم أن يلم به إلا فى أكثر صوره مغالاة ومبالغة . فجعلنى أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرا ما يرى فى المجتمع .. وأن المرء إذ يحاول أن يسرف فى العلو ، يغدو معرضا لخطر السقوط .. وأن تعود أداء الواجبات الضـئيلة باستمرار ، وعلى خير وجه ، لا يتطلب مجهودا أقل من ذاك الذى تتطلبه أعمال البطولة ، ولكن المرء يكسب من الأولى تبجيلا وهنـاء يفوقان ما يكسبه من الأخيرة .. وأن استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته فى جميع الأوقات ، يفوق على طول الخط استمتاعه بإعجابهم فى مناسبات عابرة !

وفى سبيل تحديد واجبات الإنســان ، كان لابد من العودة إلى أصول تلك الواجبات .. كما أن الخطوة التى اتخذتها قبل ذلك مباشرة ، والتى كانت حالى الراهنة من نتائجها ، أفضت

بنا إلى الحديث فى الدين . ومن الممكن أن يتصور القارىء عند هذا الحد أن السيد جايم الفاضل ، هو ـ إلى حد كبير على الأقل ـ الأصل الذى قبست عنه شخصية « أسقف سافوا » (١)

ولم يكن يقتصـــد فى صراحته وانطـلاقه فى الحديث ، إلا فى نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون أكثر تحفظا فى كلامه . وفيما عدا ذلك ، كانت عظاته وأحاسيسه وآراؤه هى هى لا تتبدل ، وكان كل شىء ـ حتى نصحه لى بالعودة إلى أهلى ـ يتسم بما صورته به للرأى العام منذ ذلك الحين . لذلك ، فلا حاجة إلى التوسع فى سرد محادثاتنا ، إذ أن مادتها فى متناول كل امرىء ، وإنما أكتفى بأن أقول إن دروسه ـ التى لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره فى البداية ـ أصبحت من بذور الفضـيلة والدين التى لم تذو قط فى فؤادى ، والتى لم تحتج إلى أكثر من رعاية يد أخرى عزيزة حبيبة ، كى تثمر وتزدهر !

ومع أن تحولى إلى العقيدة الكاثوليكية لم يكن ـ فى ذلك الحين ـ تحولا كاملا ، إلا أن هذا لم يحرجنى فى شىء . وبدلا من أن أشعر بالملل من أحاديث السيد جايم ، وجدتنى أشغف بها لوضوحها وبساطتها ، ولذلك القدر من حرارة القلب التى كنت أحس أنها تزخر بها .. ولقد أوتيت طبعا ودودا ، وكان تعلقى بالناس دائما ، بسبب الخير الذى أدوه لى ، أقل من تعلقى بهم من جراء الخير الذى كانوا يرجونه لى . ونـادرا ما أخطأ شعورى تقدير هذا الأخير . وكذلك كنت صادق الميل

---

(١) أسقف سافوا هو أحد شخصيات كتاب روسو المعروف : « إميل » .

للسيد جايم ، فكنت فى الواقع تلميذه الثانى ، وكان لهذا الأمر ــ فى تلك الفترة ــ فائدة لا تقدر ، إذ حال بينى وبين الميل إلى الرذيلة التى كان تعطلى عن العمل يجتذبنى إليها !

وفى ذات يوم ، تلقيت استدعاء من الكونت ديلا روك ، وكان هذا آخر ما أتوقعه . فان الزيارات العديدة التى قمت بها دون أن أتمكن من الحديث إليه ايأستنى منه ، فكففت عن الذهاب إلى داره ، وظننت أنه نسينى ، أو أنه احتفظ بفكرة سيئة عنى . ولكنى كنت مخطئا ، فانه كان قد شهد ــ أكثر من مرة ــ السرور الذى كنت أؤدى به واجباتى لعمته .. بل إنه ذهب إلى حد أن حدثها عن هذا السرور ، كما أنه تكلم معى بشأنه فى وقت كنت قد نسيته فيه !.. ولقد تلقانى فى رفق ، وأنبأنى بأنه رأى أن يدبر لى بالفعل منصبا ـ بدلا من أن يمنينى بوعود لا تقترن بتنفيذ ــ وأنه قد وفق فى مسعاه ، وسيعيننى فى منصب يمكننى من أن أغدو إنسانا ذا قيمة ، وأن ما بقى بعد ذلك رهن باجتهادى . فان الأسرة التى سعى لى عندها كانت ذات نفوذ ومكانة ، ولن أحتاج إلى وساطة أخرى لديها. ثم أضاف أننى ــ وإن كنت سأعامل فى البداية كخادم ، كما كان شأنى من قبل ــ إلا أننى خليق بأن أطمئن إلى أنهم على أتم استعداد لأن لا يستبقونى فى هذا المركز إذا ما استطاع خلقى وسلوكى أن يحملاهم على أن يروا أننى أصلح لعمل أفضل . وخيبت خاتمة الحديث بقسوة ما أوحت إلى به بدايته من آمال مشرقة ، فقلت لنفسى : « ماذا ؟.. أظل خادما دائما ؟! » ، وخامرنى إحساس بسخط مرير ، لم تلبث الثقة

أن محته ، فقد شعرت بأننى أقل صلاحية لمثل هذا المركز من أن أخشى أن أظل فيه ! (١)

واصطحبنى محدثى إلى الكونت دى جوفون رئيس ركائب الملكة ، وكبير بيت «سولار» الباذخ ، فاذا الروح الشماء التى اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من أثر حفاوته. وسألنى فى اهتمام ، فأجبته فى إخلاص صادق . وقال للكونت ديلا روك أن لى ملامح تروق للعين ، وتبشر بالذكاء ، وأنه ـ فى الواقع ـ لا يرى أننى تنقصنى هذه الموهبة ، ولكنها ليست كل شىء ، ومن ثم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليه فى كافة النواحى الأخرى . ثم التفت نحوى وقال : « إن البداية شاقة فى كل الأمور تقريبا يا صغيرى ، على أن مشقتها لن تذهب ــ فى حالتك ــ إلى مدى بعيد . كن أريبا ، واسع إلى إرضاء كل واحد هنا ، وهذا كل ما عليك أن تفعله فى الوقت الحاضر . وفيما عدا هذا ، كن مقداما ، تجد رعاية ! » .. وذهب بعد ذلك مباشرة إلى المركيزة « دى بريى » ـ زوجة ابنه ـ فقدمنى إليها ، ثم قدمنى إلى الأب دى جوفون ، ابنه .. ولاحت لى هذه البداية مؤذنة بالخير ، فقد كنت من التجربة بحيث أدرك أن الخدم لا يلقون كل هذه الحفاوة . والواقع أننى لم أعامل كواحد من الخدم ، بل كنت أتناول وجباتى على مائدة وكيل

---

(١) يقصد أن قلة صلاحيته لمنصب الخادم كانت كفيلة بأن لا يتقن مهامه اتقانا يرضى مخدوميه ، وهذا يؤدى الى إحدى نتيجتين : اما أن يسرحوه ، واما أن يقدروا أن مواهبه تؤهله لمنصب أرقى .

اعمال الكونت ، ولم اكن أرتدى الزى المخصص للخدم .
وعندما ارادنى الكونت دى فافريا ـ وهو شاب احمق خاوى الرأس ـ على أن اركب فى مؤخرة عربته ، حرم جده ركوبى خلف عربة اى فرد ، او قيامى بخدمة احد خارج الدار ! على أننى كنت ـ فى الدار ـ اتكفل بالخدمة على المائدة ، وأمارس كافة واجبات الخدم تقريبا ، بيد أننى كنت اقوم بذلك متطوعا إلى حد كبير ، دون أن أكون ملحقا بخدمة فرد معين . وفيما عدا كتابة بعض الخطابات التى كانت تملى على ، وتسجيل بعض الحسابات للكونت دى فافريا ، فاننى كنت حر التصرف فى وقتى طيلة اليوم تقريبا . وكان هذا (الامتحان) الذى لم أفطن إليه ، عظيم الخطورة فى الحقيقة ، بل إنه كان بعيدا عن الرحمة ، لان هذا الفراغ الطويل كان خليقا بأن يقودنى إلى رذائل ما كان لى أن اقارفها . على أن هذا لم يحدث ، لحسن حظى ، إذ أن دروس السيد جايم كانت قد خلفت اثرا مطبوعا على قلبى ، وقد تولانى ميل إليها كان يدفعنى ـ فى بعض الأوقات ـ إلى أن اتسلل فاذهب للاصغاء إليها ثانية . واعتقد أن أولئك الذين كانوا يروننى ابارح الدار سرا ، لم تكن لتخطر ببالهم اقل فكرة عن المكان الذى كنت اذهب إليه . وما كان ثمة ما هو احكم من النصيحة التى أزجاها الراهب إلى بصدد مسلكى : فلقد بدأت عملى بداية تدعو إلى الاعجاب ، وابديت من الاجتهاد ، واليقظة والتحمس ، ما سحر كل امرىء . فنصحنى الراهب ـ عن فطنة ـ بأن اخفف من اندفاع الشباب ، خشية أن يخف من تلقاه نفسه تدريجا ، مما قد

يسترعى الانتباه . وقال : « إن القاعدة بأن يقاس تصرفك بالقدر الذى بدأت به ، فحاول أن تدبر أمرك بحيث يزداد جهدك بمضى الزمن ، ولكن حذار من ان يقل مجهودك يوما عنه فى اليوم الذى سبقه ! » .

وإذ لم يتجشم أحد عناء اكتشاف مواهبى المسكينة ، ولما لم اكن قد اعتبرت ذا مواهب سوى تلك التى اضفتها على الطبيعة ، لذلك لم يبد لى ان احدا قد فكر فى أن يفيد منى ، برغم ما كان السيد جوفون قد انبانى به . وما لبثت ان جدت أمور جعلتنى منسيا تقريبا .. وفى ذلك الحين كان « المركيز دى بريى » ، ابن « الكونت دى جوفون » ، سفيرا فى فيينا . وقد وقعت أحداث فى البلاط تركت آثارا محسوسة فى الأسرة ، فاذا بكل فرد يظل فى حالة انفعال لبضعة أسابيع ، مما لم يدع لأحد وقتا لأن يفكر فى شأنى . على أننى لم أكن قد خففت من حميتى فى العمل ـ حتى ذلك الحين ـ إلا قليلا . وكان ثمة أمر افادنى واضر بى فى آن واحد : أفادنى فى أنه حفظنى من المغريات الخارجية .. واضر بى فى انه جعلنى اقل انتباها إلى واجباتى بعض الشىء !

كانت الآنسة « دى بريى » شابة فى مثل سنى ، بديعة التكوين ، مليحة المنظر إلى حد كبير ، نضرة المحيا ، ذات شعر حالك السواد .. ومع أنها كانت سمراء ، إلا انها اوتيت مظهرا رقيقا تمتاز به الشقراوات عادة ، ولم يكن قلبى يقوى على مقاومته إطلاقا ! وكان الزى الذى ترتديه كعضو فى البلاط الملكى يلائم الشباب تماما ، ويبدى قوامها الجميل فى ابهى

مظاهره ، ويترك صدرها وكتفيها عارية ، ويجعل بشرتها اكثر فتنة ، نظرا للحداد الذى كانت تتسم به ثياب الحاشية فى ذلك الوقت . وقد يقال إنه ليس من شأن الخادم ان يلاحظ هـذه الأشياء ، وقد كنت مخطئا بلا ريب ، ولكنى لاحظتها جميعا مع ذلك ،و لم اكن الوحيد الذى لاحظها . فقد كان كبير الخدم، والوصفاء ، يتحدثون عنها على المائدة أحيانا ، فى لهجة خشنة كانت تؤذى شعورى بدرجة قاسية . ومع ذلك فإن عقلى لم يفقد اتزانه فيوقعنى فى الحب بكل سهولة ، بل أننى لم أنس نفسى ، ولم أنس مكانى ومركزى ، كما ان رغباتى لم تكن تلقى من الحرية أكثر مما ينبغى !.. وإنما كنت أحب ان ارى الآنسة دى بريى ، وأن اسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن ذكائها وحسن إدراكها وتواضعها . ولقد اقتصر طموحى على متعة القيام بخدمتها ، فلم اتجاوز حدودى . وكنت أنتهز الفرص دائما ـ عندما تجتمع الأسرة حول المائدة ـ لتعزيز هـذه الحدود ، فاذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة ، بادرت لفورى إلى شغل مكانه . وفيما عدا ذلك كنت اتخذ موقفى فى مواجهتها ، واحدق فى عينيها لأرى ما توشك ان تطلبه ، وارقب اللحظة المناسبة لابدال طبقها .. واى شىء كنت أحجم عن اتيانه لو أنها تنازلت فألقت على أمرا ، أو نظرت إلى ، أو وجهت إلى كلمة واحدة ؟!.. ولكن ، لا ! كان مقضيا على بالا اكون شيئا يذكر لديها ! بل إنها لم تكن تلاحظ وجودى ! ومع ذلك فقد حدث فى إحدى المناسبات أن وجه أخوها ـ الذى اعتاد أن يكلمنى احيانا وهو جالس إلى المائدة

ـ عبارة غير مهذبة إلى ، فرددت عليه بكلمات منتقاة ، دقيقة التعبير ، إلى درجة جعلت الآنسة تنتبه فتحول بصرها نحوى . ومع ان هـذه النظرة كانت خاطفة ، إلا انها سحرتنى !.. وفى اليوم التالى ، سنحت فرصة للفوز بنظرة ثانية ، فسارعت إلى استغلالها : فلقد اقيمت وليمة عشاء كبرى لمناسبة معينة ، فرأيت اثناءها ـ لأول مرة ـ ان رئيس الخدم كان يرتدى قبعته على رأسه ، وسيفه إلى جانبه ، مما ادهشنى ! وتحول الحديث مصادفة إلى العبارة التى كان بيت « سولار » يتخذها شعارا ، والتى كانت منقوشة على الرسم الذى تألف منه رمز الأسرة وهى عبارة :

Tel fiert qui ne tue pas .

ولما كان أهل (بييمونت) غير متفقهين فى اللغة الفرنسية ، فقد اشار واحد من الحضور إلى وجود غلطة هجائية فى الشعار ، واعلن انه يجب الا يكون ثمة (T) فى كلمة fiert . وهم كونت دى جوفون الشيخ بأن يجيب ، لولا أن لاحت منه نظرة نحوى ، فرآنى ابتسم دون ان أجسر على أن اقول شيئا ، فأمرنى بأن اتكلم . ومن ثم قلت إننى لا اعتقد ان حرف (T) لم يكن ضروريا ، إذ أن الكلمة من الفرنسية القديمة ، وليست مشتقة من ferus ، (ومعناها متكبر أو متوعد) ، وإنما كانت مشتقة من ferit ، ومعناها يضرب أو يجرح . ومن ثم فإن معنى الشعار ـ كما بدا لى ـ لم يكن : كم من رجال توعدوا ، وإنما .. كم من رجال ضربوا ولم يقتلوا !

والتفت أفراد الجمـاعة بأسرهم نحوى ، ثم التفتوا إلى انفسهم ،دون ان ينبسوا ببنت شفة . ابدا ما رايت فى حياتى مثل هذه الدهشة ! ولكن أكثـر ما استخف زهوى ، هو انى رايت من أسارير الآنسة« دى بريى » انها كانت جد مسرورة. وتنازلت هذه السيدة الشـابة المترفعة فرمتنى بنظـرة ثانية كانت مساوية ـ على الأقل ـ للأولى ، ثم ادارت عينيها نحو جدها . وبدا انها كانت تنتظر ، فى شىء من عـدم الصبر ، المجاملة التى كنت أستحقها ، والتى قدمهـا الجد إلى ـ فى الحق ـ كاملة وافية ، وفى مظهر من الرضى جعل الحضـور يسارعون جميعا إلى الانضمام إليه . وكانت اللحظة وجيزة ، ولكنها كانت من اعذب اللحظات من جميع الاعتبارات . كانت من تلك اللحظات التى لاتسنح إلا نادرا جدا ، والتى تضـع الأمور فى نصابهـا الطبيعى وتعوض إهانات القـدر ، وتثأر للكفاءة التى لم تكن تلقى تقديرا . وبعـد دقائق معـدودة ، سألتنى الآنسة دى بريى فى صوت واهن مستحى ـ وهى ترفع عينيها نحوى مرة أخرى ـ ان اناولها بعض الشراب . ولست بحاجة إلى ان اقول إننى لم ادعهـا تنتظر ، ولكنى ارتجفت بعنف وأنا أقترب منها ، حتى أننى أرقت بعض المـاء على طبقها ، بل وعليها . وسألنى شقيقها ـ فى غباء ـ عن السر فى ارتجاقى. ولم يفلح هذا السؤال فى ان يرد إلى جلدى ، بينما تضرج وجه الآنسـة دى بريى حتى طغى الاحمرار على بياض عينيها !

وعند هذا انتهت هذه المغامرة الغرامية التى يلاحظ منهـا

ـ كما كان الأمر فى حالة مدام بازيل وخلال بقية حياتى ـ أنى لم أكن سعيدا فى ختام غرامياتى ! .. وعبثا صرت أبدى اهتماما بالحجرة الملحقة بمخدع مدام دى بريى ـ الأم ـ فاننى لم احظ بأية بادرة أخرى تنم عن انتباه ابنتهـا إلى ! فقـد كانت تلج الحجرة وتغادرها دون أن تنظـر إلى .. كمـا أننى ـ من ناحيتى ـ كنت لا اكاد أجسر على أن اتجـه بعينى نحوها . بل لقد بلغ من غبائى وارتباكى اننى عنـدما وقع منها قفازها وهى تمر بى ذات يوم ، لم اجسر على مبارحة مكانى ، بدلا من ان أندفع لالتقاط هـذا القفاز الذى كنت اتمنى أن أكسـوه بقبلاتى ، وتركت وصيفا فضوليا ـ كنت على استعداد لأن أخنقه بكل سرور ـ يلتقطه !.. وممـا ضاعف انفعالى ، أن تبينت أننى لم احظ بارضاء مدام دى بريى ، فلم تقتصر على عدم إصدار أوامر إلى ، بل انها لم تعد تتقبل خدماتى البتة ، وسألتنى بلهجة فاترة إذ وجدتنى فى الحجرة الملحقة بمخدعها ـ فى مناسبتين ـ عما إذا كنت لا اجد عملا آخر يشغلنى ؟ ومن ثم اضطررت إلى تجنب هذه الحجرة . وقد تحسرت على ذلك فى البداية ، ولكن الشواغل تدخلت فسرعان ما كففت عن التفكير فيها !

وسرى عنى برود «مدام دى بريى» كرم حميها ، الذى انتبه أخيرا إلى وجودى : ففى ليلة المأدبة التى ذكرتها ، تبادل معى حديثا عقب العشاء لنصف ساعة . وبدا أن الحديث أرضاه ، فطربت لذلك . كان هذا الشيخ الطيب ارق قلبا من مدام دى فيرسيللى ـ وإن لم يكن موهوبا مثلها ـ وقد كنت معه أحسن حالا مما كنت معها ، وقد طلب إلى أن أكون [illegible] مخلصا للأب

دى جوفون ــ الذى كان يولينى بعض الاعتبار ــ عسى أن يفيدنى ذلك إذا أنا أحسنت استغلاله، فيساعدنى على اكتساب ما كان ينقصنى حتى يهيئنى لما كانوا يعتزمونه لى . ومن ثم أسرعت ــ فى الصباح التالى ــ إلى الراهب ، فلم يستقبلنى كخادم ، وإنما حملنى على الجلوس إلى جانب المدفأة ، واخذ يسألنى باعظم لطف ، فسرعان ما تبين أن تعلمى ــ الذى كنت قد بدأته فى كثير من الأمور ــ لم يكن مكتملا فى أى شىء . وحين وجد أننى كنت ـ بوجه خاص ـ على إلمام قليل باللغةاللاتينية ، تكفل بتلقينى مزيدا منها . واتفقنا على أن أذهب إليه فى كل صباح ، فبدأت من الصباح التالى مباشرة وهكذا كنت ــ باحدى تلك المصادفات الغريبة التى ستظهر كثيرا فى مجرى حياتى ـ فوق مكانتى وتحتها فى آن واحد ! كنت تلميذا ووصيفا فى بيت واحد ! وبينما ظللت خادما ، حظيت بمدرس كان نبل محتدة خليقا بأن يجعله استاذا لأبناء الملوك ، ولا أقل منهم !

كان الأب دى جوفون ابنا أصغر فى أسرته ، أعده اهله ليكون اسقفا ، ولهذا السبب فان دراساته لم تذهب إلى أبعد من القدر المعتاد لدى أبناء علية القوم . فقد أوفد إلى جامعة (سيينا) ، حيث مكث عدة سنوات ، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ ، ومن ثم فانه كان يؤدى فى (تورين) نفس الدور الذى كان يؤديه الأب دى دانجو(١) فى

(١) الأب دى دانجو كان من أعضاء المجمع اللغوى الفرنسى ــ الاكاديمى فرانسيز ــ فى منتصف القرن السابق على تلك الفترة ، وقد ألف رسائل فى قواعد اللغة الفرنسية .

باريس . وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت إلى دراسة الآداب، وهو أمر جد مألوف فى إيطاليا لدى أولئك الذين يتعلمون ليشغلوا مناصب دينية . وقد قرأ إنتاج الشعراء فى اهتمام ووعى ، وكتب أشعارا لاتينية وإيطالية مقبولة . وبايجاز ، كان لديه ذوق كاف لأن يشكل ذوقى ، ويدخل شيئا من التنظيم على الركام المهوشى الذى كان راسى محشوا به . على انه ــ اما لأن ثرثرتى أعطته فكرة زائفة عن درايتى ، أو لأنه لم يكن يطيق مبادىء اللاتينية المضجرة ــ قد جعلنى ابدأ بداية تفوق المستوى الذى كنت فيه بكثير ، وما أن جعلنى أترجم بضع أساطير عن « فيدروس » ، حتى زج بى فى أشعار «فيرجيل» التى لم أكد أفقه منها شيئا ! ولقد كان مقدورا على دائما ـ كما سيتجلى فيما بعد ــ أن أشرع فى تعلم اللاتينية من جديد ، أكثر من مرة ، دون أن أسير فى الشوط إلى غايته . على أننى ، فى هذه المرة ، اجتهدت فى حمية ، فأخذ الراهب يسبغ اهتمامه على فى عطف لا أستطيع ــ حتى اليوم ــ أن أذكره دون أن يخفق قلبى تأثرا !.. صرت أقضى شطرا كبيرا من فترة الصباح معه لأتلقى العلم ولأؤدى للسيد الخدمات . ولم تكن هذه الخدمات شخصية ، فما سمح لى البتة بأن أؤدى هذا النوع ، وإنما كنت اكتب ما يمليه على وانسخ ما يعهد به إلى ، فكانت واجباتى كسكرتير أكثر نفعا لى من دراساتى كتلميذ !.. فاننى ــ بهذه الطريقة ــ لم أتعلم الإيطالية فى أرقى أساليب بلاغتها فحسب ، وإنما اكتسبت ذوقا أدبيا ، واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التى كان من المستحيل

الحصول عليها من مكتبة « لاتريبو » ، والتى كانت عظيمة النفع لى فيما بعد ، عندما شرعت فى الاعتماد على نفسى فى التاليف !

تلك كانت الفترة الوحيدة فى حياتى التى كان من المعقول ان أطمع فيها فى النجاح ، دون ما مشروعات خيالية ! .. وأخذ الراهب ـ الذى كان جد راض عنى ـ يحدث كل شخص عن ذكائى . واولانى ابوه تقديرا خاصا ، حتى لقد ذكر لى الكونت دى فافريا انه تحدث عنى إلى الملك !.. حتى « مدام دى بريى » تخلت عن مسلكها المهين نحوى . وبإيجاز ، أصبحت ذا حظوة فى الدار ، مما اثار غيرة الخدم الآخرين ، الذين ادركوا ـ إذ رأونى أتشرف بتلقى الدروس على يدى ابن مولاهم ـ انه لم يعد مقدرا لى أن ابقى واحدا منهم !

وبقدر ما أمكننى ان احدس عن وجهات النظر التى كانت تعالج أمرى ـ من بضع كلمات كانت تلقى إلى فى عجلة ، ولم افكر فيها مليا إلا فيما بعد ـ يبدو لى ان آل « سولار » كانوا تواقين إلى مناصب السفارات ، وربما إلى المناصب الوزارية فى المستقبل ، ومن ثم فقد كانوا على استعداد لأن يتولوا ـ بكل سرور ـ تعليم شخص موهوب ، جدير بالثقة ، يصبح فيما بعد ـ لاعتماده المطلق على أسرتهم فى معاشه ـ مستودع ثقتها ، ويستطيع أن يخدمها باخلاص . وكان هذا المشروع من الكونت دى جوفون مشروعا نبيلا حكيما كريما ، جديرا حقا بأن يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر . وغنى عن الذكر اننى ـ إذ ذاك ـ لم استطع أن أحيط بكل نطاقه ، فقد

كان فوق مستوى إدراكى ، كما أنه كان يتطلب فترة طويلة من التبعية والانصياع . وكان طموحى الأرعن لا يرى الحظ الحسن إلا فى وسط المغامرات ! ولما لم يكن لأية امراة شأن بهذا المشروع ، فقد بدت لى هذه الوسيلة من وسائل النجاح بطيئة ومضنية ، وكئيبة .. فى حين أنه كان خليقا بى أن اعتبرها آمن وأشرف من أية وسيلة أخرى ، لنفس السبب الذى ذكرته ، عن عدم تدخل النساء فيها ، فان ذلك النوع من الجدارة الذى تقبل النساء على بسط حمايتهن عليه ، لا يتسم بالطابع الشريف الرفيع الذى يتسم به النوع الذى كان مفترضا اننى أمتلكه !

ومضى كل شيء على أبدع حال ، فاكتسبت احترام الجميع أو بالأخرى انتزعته تقريبا ! وانقضت فترة الاختبار ، وأصبحت مرموقا فى الدار ـ بوجه عام ـ كشاب يبشر مستقبله بخير عظيم . ولئن كان قد قدر له الا يشغل المركز الجدير به ، فان كل امرىء كان يتوقع أن يرقى إلى هذا المركز . بيد أن مكانى لم يكن ذاك الذى قدره لى الجميع ، وقد كتب على أن لا أبلغه إلا عن طريق جد وعرة .. وهذا يفضى بى إلى خلة من تلك الخلال الشخصية التى امتزت بها ، والتى لا أحتاج إلى أكثر من أن أبسطها للقارىء دون مزيد من الإسهاب .

ذلك انه بالرغم من أن (تورين) كانت تضم كثيرين سواى ممن اعتنقوا الكثلكة حديثا ، إلا اننى لم أكن اميل إليهم ، ولم أسع قط إلى لقاء أحد منهم . على أننى كنت قد عرفت ـ فيمن تعرفت إليهم ـ شخصا من أهل (جنيفا) يدعى السيد

« موسار » ، ويلقب بـ « ذى الفم الأعوج » ، وكان من رسامى التحف الدقيقة ، وذا صلة بى . وقد تبين أننى كنت أقيم لدى الكونت دى جوفون ، فجاء ليرانى مع شخص آخر من (جنيف) يدعى «باكل» ، كنت زميلا له حين كنت أتدرب على الحرفة .

وكان « باكل » هــذا مسليا ، شديد المرح ، راوية للفكاهات والنوادر التى كانت تبدو مستملحة لمن فى مثل سنه . ومن ثم ، فان لكم أن تتصـوروا كيف افتتنت فجاة بالسـيد باكل إلى درجة لم أعد معها اقوى على أن افارقه !.. وكان قد اعتزم الرحيل عائدا إلى (جنيف) بعد وقت قصير ، فيا للخســارة التى خيل إلى اننى سامنى بها !.. وإذ تبينت مداها ، رايت أن افيد إلى اقصى حد ــ على الأقل ــ من الوقت الباقى قبل رحيله ، فلم اكن افارق جواره اطلاقا ، أو بالأحرى انه هو الذى لم يكن يفارقنى ، لأننى ـ فى البداية ـ لم ابلغ من الطيش الحد الذى كان يجعلنى أقضى اليوم كله معه خارج القصر دون إذن . على أنهم سرعان ما تبينوا انه كان يشغل كل وقتى : فحرموا عليــه ولوج الدار ، مما اثار حنقى فنسيت كل شىء عدا صديقى باكل ، ولم أعد اقترب من الراهب أو الكونت ، ولم أعد اشاهد فى الدار ! بل إننى لم اكترث للوم والتانيب ، فانذرت بالطرد .. وكان فى ذلك دمارى ، إذ اغرانى بأن من الممكن الا يرحل « باكل » دون رفيق ! ومنــذ تلك اللحظة لم اعد أرى مسرة ، ولا مصيرا ، ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة ! ومما ضاعف هناءتى المرتقبة ، أن مدام دى فاران لاحت لى فى نهايتها ، ولكن .. على بعد سحيق ، إذ لم يكن

ليخطر ببالى قط أن أعود إلى جنيف بالذات !.. وأخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تمر امام ناظرى فى تتابع لا نهاية له ، وقد تجددت مفاتنها !.. وبدا أن هــذه الرحلة قد ابتلعت كل حياتى ، فرحت أتذكر فى ابتهــاج كيف سحرتنى هذه الرحلة وانا قادم إلى (تورين) ، فما بالك إذا ما استمتعت ــ إلى جانب كل ســحر الاســتقلال ــ ببهجة جديدة ، تتمثل فى صحبة صديق فى مثل سنى وميولى ، أوتى روحا طروبا .. لا سيما وانه لن تكون ثمة قيود ، ولا واجبات ، ولا رقابة ، ولا اضطرار إلى الذهاب او البقاء فى اى مكان ، ما لم يرق لنا ذلك !.. وخيل إلى ان المرء يكون أحمق ولا ريب إذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من اجل خطط طموحه ، بطيئة ، شاقة ، غير مؤكدة التحقق !.. خطط لم تكن ــ حتى إذا سلمنا بانهــا قد تتحقق يومــا ما ، وبرغم كل اشراقهــا ووميضها ــ لتعادل ربع ســاعة من السرور الحقيقى ومن حرية الشباب !

وإذ تملكتنى هــذه الفكرة الحكيمة ! اقبلت على التصرف بطريقة افلحت فى حمل القوم على فصلى من خدمتهم ، وإن كان هذا لم يتم فى الواقع دون كثير من العنــاء . وهــكذا ، ذات مساء ، أسلمنى رئيس الخدم عند عودتى إلى الدار امرا من الكونت بفصلى ، وكان هذا هو عين ما رجوت !.. غير اننى كنت ــ بالرغم من نفسى ــ أدرك جموح مسلكى ، وقد اضفت إليه جورا وعقوقا حين خيل إلى اننى بحمل القوم على طردى أستطيع أن القى اللوم على سواى ، [illegible] نفسى و[illegible]

مصيرى ، وكأننى كنت مضطرا ـ بالرغم منى ـ إلى انتهاج المسلك الذى كنت فى الواقع المسئول الوحيد عنه !

وقبل أن أرحل فى الصباح التالى ، أرسل « الكونت دى فافريا » يدعونى لمقابلته . ولما كانوا يرون اننى فقدت كل تعقل ، واننى قد لا البى الدعوة ، فقد ذكر لى رئيس الخدم أنه سيعطينى بعد تلك المقابلة مبلغا من المال خصص لى ، برغم اننى كنت لا استحقه بالتأكيد ، وذلك لانهم لم يكونوا قد قرروا لى اجرا ، نظرا لانهم لم يكونوا يعتزمون استبقائى فى منصب الخادم !

ومع ما كان عليه الكونت دى فافريا من صغر السن وضآلة التفكير ، فانه تحدث إلى فى هذه المناسبة بما ينم عن وعى وعطف ، بل إننى لأكاد أقول إنه تحدث بحنان بالغ ، وإخلاص صادق ، وفى تلطف يهفو بالقلب ، فأطلعنى على عطف عمه الراهب على ، وعلى نوايا جده بشأنى . واخيرا .. وبعد أن عرض على بأوضح ما كان فى وسعه ، كل الميزات التى كنت أضحى بها لأندفع نحو هلاكى ، عرض أن يتوسط لى فى البقاء على شريطة أن اتخلى عن ذلك الشاب الشقى الذى أفسدنى. وكان من الجلى أنه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه ، فقد كنت ـ برغم حماقتى العمياء ـ شديد الشعور بكل ما كان مخدومى الشيخ يكنه لى من إشفاق ، وقد تأثرت به ، ولكن رحلتى الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالى ، فلم يكن فى وسع أية مغريات أن تمحوها ! كنت قد فقدت رشدى تماما ، فاشتد عنادى وصلابة رأيى ، وتذرعت بكرامتى ،

وأجبت ـ فى صلف ـ باننى قد تلقيت أمر فصلى من الخدمة ، واننى تقبلته ، وان أوان سحبه قد فات ، واننى قد عقدت العزم على الا أسمح لنفسى بأن أطرد مرتين من بيت واحد ، مهما تكن العواقب !. وإذ ذاك رمانى الشاب بما استحق من القاب ، وقد ثار عن حق ، وامسك بكتفى فألقى بى خارج غرفته واوصد الباب خلفى !.. فانطلقت مزهوا وكأننى أحرزت نصرا باهرا ! وخوفا من أن اضطر إلى احتمال صراع ثان ، تركت للخسة أن تحملنى على الرحيل بدون أن اشكر للراهب كرمه !

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنونى يسوقنى إليه فى تلك اللحظة ، يجدر بالمرء أن يعرف إلى اية درجة يثور فؤادى بسبب التفاهات البسيطة ، وبأى عنف يندفع وراء الشىء الذى يستهويه ، مهما يكن هذا الشىء خلوا من اية قيمة !.. ذلك أن اغرب الخطط ، وأكثرها طيشا صبيانيا ، واشدها حماقة ، تتمشى مع الفكرة التى تحلو وتعززها ، حتى اقتنع بحكمة الإقبال على تنفيذها !.. افهناك من يصدق أن إنسانا ما ـ لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره ـ يستطيع أن يشيد آماله فى العيش ، ما بقى من عمره ، على زجاجة فارغة ؟.. إذن فاسمعوا : كان الأب دى جوفون قد أهدانى ـ قبل ذلك باسابيع قلائل ـ نافورة صغيرة من نافورات هيرو(١) ، اغتبطت بها . وإذ كنا لا نكف عن اللعب بهذه

---

(١) نافورات صغيرة الحجم ، كاللعب ، اخترعها مهندس من أبناء الاسكندرية يدعى « هيرو » .



النافورة ، اثنـاء حديثنا عن رحلتنـا خطر لباكل العاقل ، ولى ، أن فى وسع النافورة أن تنفعنا فى إطالة الرحلة ، فاى شىء فى الدنيا اغرب وادعى لإثارة الفضـول من نافـورة هيرو ؟.. وكانت هذه الفكرة هى الأساس الذى بنينا عليـه صرح خطتنا المقبلة ، فلم يبق علينا سوى أن نجمع فلاحى كل قرية حول نافورتنا ، فينهال علينا الطعام وكل المشتهيات فى وفرة عارمة – فقد كنا نوقن بأن المؤن لا تكلف منتجيها شيئا ، وأن عدم تزويدهم المرتحلين بها ليس سوى شر من ناحيتهم ! – ومن ثم رحنا نتوقع ان نجد اعراسا ومهرجانات فى كل مكان مما يمكننا – دون أن ننفق شـيئا اللهم إلا انفاسنا ومياه نافورتنا – من ان نكسب نفقات رحلتنا خـلال (بييمونت) و (سافوا) وفرنسا .. بل العالم كله فى الواقع !.. وعلى اثر ذلك اخذنا نرسم خططا لا حصر لها لرحلتنا ، ثم راينا ان نتجه اولا نحو الشمال ، للاستمتاع بعبور الالب !

٦ – من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وهكذا كانت الخطـة التى شرعت فيها ، هاجرا – دون ما ندم – راعى ، واستاذى ، ودراساتى ، وآمالى ومستقبلا كان شـبه مؤكد ، لأبدا حيـاة التشرد المنتظم !.. وودعت العاصمة (١) ، والقصر الملكى ، والطموح ، والزهو ، والحب ، والنساء الحسان ، وكل المغامرات المثيرة ، التى حملنى الأمل فى

(١) كانت (تورين) يومئذ عاصمة امارة (بييمونت) .

العثور عليها إلى (تورين) قبل ذلك بعـام .. وانطلقت مع نافـورتى وصـديقى « باكل » ، بكيس خفيف ، ولكن بقلب ملىء بالغبطة ، وبال لا يفكر فى شىء سوى استمرار سعادة التجوال التى قصرت عليها بغتة مشروعاتى البراقة . ولقد جعلت هـذه الرحلة الشـاذة ملائمـة بالقـدر الذى كنت اتوقعـه ، وإن لم يكن ذلك بنفس الطريقـة التى اردتهـا تماما ، ذلك لأنه بالرغم من أن نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات الفنادق الريفية وخدمهن لبضع لحظات ، إلا انا كنا نضطر – مع ذلك – إلى أن ندفع نفقـات إقامتنـا إذا ما هممنـا باستئناف الرحيل . بيد ان هذا لم يزعجنا إلا قليلا ، ولم نفكر فى استغلال النافورة كمورد جدى للدخل ، إلا عنـدما بدأت نقودنا تنفد . على ان ثمة حادثا اعفانا من العناء ، فقد انكسرت النافورة ونحن على مقربة من (برامان) ، والواقع ان الوقت كان قد حان ، إذ كنا قد شعرنا – دون ان نجرؤ على المصارحة – بأن التعب قد بدأ يدب فينا . وقد جعلنا هذا النحس أكثر ابتهاجا من ذى قبل ، فضحكنا كثيرا من غبائنـا ، إذ نسينا أن ثيابنا وأحذيتنا لن تلبث أن تبلى ، وإذ اعتقدنا أن بوسعنا أن نبتاع جديدا غيرها بعرض نافورتنا على الانظار !.. وهكذا تابعنا رحلتنا ونحن فى مثل ما بدأناها فيه من حبور ، وإن يممنا – فى اتجاه مباشر اكثر من ذى قبل – شطر الغاية التى كانت مواردنا المطردة النضوب تحتم علينا بلوغها .

وفى (شامبيرى) بدأت أطيل التفكير ، لا بسبب الطيش الذى أقدمت عليه – فليس من إنسان أقدر منى على تعزية نفسـه

سريعا ، وبشكل كامل ، فيما يتعلق بالماضى — وإنما بسبب الاستقبال الذى كان يرتقبنى لدى مدام دى فاران ، فقد كنت أتطلع إلى منزلها كما لو كان منزلى الخاص . وكنت قد كتبت إليها أنبئها بالتحاقى بالخدمة فى دار الكونت دى جوفون ، وقد عرفت مركزى هناك ، وعندما ، هنأتنى أزجت إلى بعض النصائح الجليلة فيما يتعلق بالسلوك الذى يجب أن أنتهجه جزاء الكرم الذى أبدى نحوى . ولقد اعتبرت السيدة أن مستقبلى بات مضمونا ، اللهم إلا إذا أفسدته أنا بخطأ منى .. ترى ما الذى ستقوله حين ترانى عند وصولى !.. أبدا لم يخطر ببالى احتمال أنها قد توصد الباب دونى ، ولكنى كنت أرهب الحزن الذى كنت موشكا على أن أسببه لها ، وكنت فى خوف من تأنيباتها ، التى كانت أقسى على نفسى من أعظم شقاء ! فاعتزمت أن أتحمل كل هذا فى صمت ، وأن أبذل كل ما فى وسعى لأهدىء من أساها ، فما كنت أرى لى فى الحياة ملاذا سواها ، وكان احتمال العيش فى خزى منها أمرا مستحيلا !

على أن الشطر الأكبر من قلقى كان بسبب زميلى فى السفر ، فما كنت راغبا فى أن أثقل كاهلها به إلى جانبى ، كما كنت أخشى ألا يسهل على التخلص منه ! وقد هيأته للفراق بأن أخذت أعامله — فى اليوم الأخير — بشىء من الفتور ، ففهم الوغد أمرى — فقد كان طائشا أكثر منه غبيا ! — وقد ظننت أن تقلبى سيخز قلبه ، فاذا بى مخطىء ، إذ كان اللعين لا يسمح لشىء بأن يتغلغل إلى قلبه .. فما أن أرسينا أقدامنا

على أرض (أنيسى) ، حتى قال لى : « ها أنتذا فى بلدك » ، وعانقنى مودعا ، ثم نكص على قدميه ، واختفى .. فلم أسمع عنه بعد ذلك البتة ! وقد دام تعارفنا وصداقتنا ستة أشهر فى مجموعهما ، ولكن تبعاتهما ستبقى ما حييت !

* * *

ولشد ما يخفق قلبى وأنا أقترب من دارها ! .. لقد أخذت ساقاى ترتجفان تحتى ، ورانت غشاوة على عينى ، فلم أر شيئا ، ولا سمعت شيئا ، وما كان بوسعى أن أعرف شخصا ! .. واضطررت إلى أن أتوقف عدة مرات لأتمالك أنفاسى وأسيطر على نفسى . أفكان الخوف من ألا أحظى بالمعونة التى كنت بحاجة إليها هو الذى أزعجنى بهذا القدر ؟.. وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع فى شخص فى مثل سنى ؟.. لا ! هذا ما أعلنه فى صدق وكبرياء ، فما استطاع الاهتمام بالنفس ولا استطاعت الحاجة قط — فى أية لحظة من حياتى — أن يفتحا قلبى أو يغلقاه !.. ففى مجرى حياتى — غير المستقيم ، والذى تقترن ذكراه بكثرة تعرجاته وانحناءاته ، وبكثرة ما كنت خلاله بلا مأوى ولا خبز — ظللت دائما أنظر إلى الثراء والفقر نظرة سواء ! ولقد كان بوسعى فى أوقات الحاجة أن أتسول أو أسرق — كما يفعل أى امرىء آخر — ولكنى لم أكرب نفسى قط من جراء انحدارى إلى هذا الدرك . وأعتقد أن قليلين هم الذين صعدوا من الزفرات قدر ما صعدت ، وذرفوا من الدموع فى حياتهم مقدار ما ذرفت ، ولكن الفقر أو خوف الانحطاط إليه لم يقويا قط على أن

أنفث زفرة ، أو أذرف دمعة ! .. إن نفسى — التى خلقت فى حصانة ضد الحظ ، فهى لا تتأثر به ـ لم تعرف قط استكانة إلى نعمة .. وعندما لا أفتقر إلى شىء يمكن أن تمس إليه الحاجة ، فذاك هو الوقت الذى اشعر فيه بأننى أشقى المخلوقات ! .

❊ ❊ ❊

ما أن مثلت أمام مدام دى فاران ، حتى طمأننى مسلكها ! وقد ارتجفت لأول نبرة من صوتها ، وارتميت على قدميها . وفى اختلاجات تنم عن اقوى غبطة جياشة ، الصقت شفتى بيدها ! ولست أدرى هل كانت قد سمعت اى نبأ عنى ، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة او استياء ، بل قالت فى صوت حنون : « يا صغيرى المسكين ! أهذا انت مرة أخرى ؟ كنت أعرف أنك أصغر من أن تقوم بهذه الرحلة . اننى مغتبطة على اية حال لأنها لم تنته إلى ما كنت أخشاه ! » .. ثم حملتنى على أن أروى لها قصتى ، التى لم تكن طويلة ، والتى رويتها بأمانة ، وإنْ كتمت بعض تفصيلات قليلة ، دون أن أتستر على نفسى أو أستميح لها الاعذار !

وكان تدبير المكان الذى أنام فيه مشكلة ، فاستشارت وصيفتها . ولم اجسر على ان أنبس ببنت شفة خلال الحديث، ولكنى لم أكد أسمع أن بوسعى أن أنام فى الدار ، حتى كدت أعجز عن تمالك نفسى !.. ورأيت متاعى القليل يحمل إلى الغرفة التى عينت لى ، بمثل المشاعر التى رأى بها «سان برو»

محفته تنقل إلى مأوى عربات مدام « دى ولمار »(١) . ومما ضاعف اغتباطى أننى علمت أن هذه الخطوة لم تكن أمرا عابرا ، ففى اللحظة التى كان يبدو على فيها اننى افكر فى شىء آخر ، سمعت السيدة تقول : « دعيهم يقولون ما يشاءون » ، فقد عقدت العزم — مذ ردته العناية الالهية إلى — على أن لا أفارقه ! » .

وهكذا استقر بى المقام أخيرا فى دراها . على أن هذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذى اتخذه بداية لتاريخ الأيام السعيدة فى حياتى ، ولكنه ساعد على تعبيد الطريق إلى ذلك اليوم . فبالرغم من أن هذا الشعور المرهف فى القلب — الذى يجعلنا نغتبط بأنفسنا غبطة صادقة — هو من صنع الطبيعة ، وربما كان من نتاج نظامها ، فانه يتطلب مواقف معينة تنميه. وبدون الأسباب التى تحدث هذه التنمية ، فان الرجل الذى ولد بحساسية قوية قد لا يشعر أو يحس بشىء ، وربما مات دون أن يعرف قط حقيقة نفسه !.. ولقد كان هذا هو الشأن معى — أو ما يقرب منه — حتى ذلك الحين . وربما كنت مسوقا إلى أن أبقى كذلك دائما ، لو لم يقدر لى أن أعرف مدام دى فاران، أو لو أننى — بعد أن عرفتها — لم أقم معها وقتا كافيا لأن أستمرىء حلاوة المشاعر الرقيقة الحانية التى الهمتنيها . بل إننى لأجرؤ على القول بأن ذاك الذى لا يشعر بغير الحب

---

(١) «سان برو» و « مدام دى ولمار » من شخصيات قصة روسو الطويلة : « هيلويز الجديدة » .

وحده ، لا يحس بأحلى ما فى الحياة . فأنا اعرف شعورا آخر ربما كان أقل سورة وحرارة ، ولكنه أكثر من الحب متعة الف مرة !.. وهو قد يقترن أحيانا بالحب ، ولكنه كثيرا ما يكون منفصلا عنه . وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة ، وإنما هو اشد منها عنفا فى غوايته ، واكثر حنانا فى رقته . ولست أعتقد أن من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك .. وعلى كل حال ، فاننى عرفت الصداقة كما لم يعرفها اى رجل آخر ، ومع ذلك فاننى لم احس بهذا الشعور فى حضور أى شخص من أصدقائى. وهو شعور غامض خفى إلى حد ما ، ولكنه لا يلبث أن يتضح فيما بعد ، وفيما ينجم عنه ـ فالواقع أنه ليس من سبيل إلى وصف المشاعر بدرجة مرضية ، إلا عن طريق آثارها ونتائجها !

كانت مدام دى فاران تقيم فى بيت عتيق ، بالغ الاتساع بحيث يحتوى على غرفة بديعة تزيد عن حاجة السيدة ، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس . وفى هذه الحجرة انزلتنى . وكانت تفضى إلى الدرب الذى سبق أن تكلمت عنه ، والذى تم فيه اول لقاء بيننا . وعلى ضفة الجدول المقابلة ، كانت البساتين والريف تبدو للعين . ولم يكن هذا المنظر قليل الشأن بالنسبة للشاب الذى شغل الحجرة ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى ـ منذ كنت اقيم فى (بوسى) ـ التى رأيت فيها أية خضرة أمام نافذتى ! كنت دائما محوطا بالجدران ، وليس امام عينى سوى سقوف الدور ، أو سمرة الطرقات الكالحة .. فبأى طرب شعرت بسحر التجديد الذى عزز ميلى إلى المشاعر الرقيقة

الحانية !.. لقد اعتبرت هذا المنظر الفاتن كلون آخر من الوان كرم ربة نعمتى العزيزة ، ولاح لى أنها هى التى وضعت كل شيء هناك ، خصيصا من اجلى ، فغرست نفسى هناك إلى جوارها ، وقد امتلأت بهناءة وادعة .. وصرت ارى راعيتى فى كل مكان ، وسط الزهور والخضرة . كانت مفاتنها تمتزج بمفاتن الربيع أمام عينى بطريقة لا يلم بها ادراكى !.. وانتفخ قلبى ـ الذى كان مكبوتا حتى ذلك الحين ـ وامتد فى هذا الفضاء غير المحدود ، وأصبحت زفراتى تجد متنفسا طليقا وسط البساتين !

ولم اجد لدى مدام دى فاران الأبهة التى رأيتها فى (تورين) ، ولكنى وجدت نظافة ، واناقة ، وخيرا فياضا ، لا تقترن بها الغطرسة والكبرياء قط !.. كانت تمتلك أطباقا قليلة العدد ، فلا صينى ولا خزف ، ولا لحوم فى مخزن المئونة ، ولا خمور اجنبية فى أقبية القصر ! .. ولكن المطبخ وقبو الدار كانا مزودين بما يكفى اى امرىء ، وكانت السيدة تقدم فى الأقداح الدلفية(١) قهوة رائعة . وكان كل من يزورها يدعى إلى العشاء على مائدتها . وما من عامل ، أو رسول ، أو عابر طريق مر بالدار دون أن يأكل ويشرب. وكان خدمها يتألفون من وصيفة ـ على قسط من الجمال ـ من بلدة (فريبور) تدعى « ميرسيريه » ، ووصيف من وطنها يدعى « كلود آنيه » ـ سأذكر عنه مزيدا فيما بعد ـ وطاهية ، واثنين من الحمالين

(١) الاقداح الدلفية : أقداح من خزف مصنوع فى هولندا

كانا يستأجران لحمل المحفـة « السيدان »(٢) فى المناسبات النادرة التى كانت السيدة تؤدى فيها الزيارات . وكان هذا العدد من الخدم عبئا على معاش سنوى قدره ألفا « ليبرة » ، لولا أن دخل السيدة الضئيل كان ــ إذا أحسن تدبير انفاقه ــ كافيا فى بلد كانت الأرض فيه سخية جدا ، والنقود شحيحة جدا ! ولكن الاقتصاد لم يكن لسوء الحظ من الصفات الحبيبة لدى السيدة ، فكانت تستدين ، ثم تدفع بقدر ما تستطيع . كانت النقود تذهب فى كل ناحية ، والأمـور تسير على خير ما يمكن أن تسير !

وكانت الطريقة التى نظمت بهـا دارها هى عين ماكانت اوثره لو عهد إلى اختيار هذا التنظيم ، ومن ثم فمن الميسور تصور مبلغ سرورى بالحياة معها ، والإفادة منها . اما الأمر الذى كان اقل مدعاة للسرور ، فهو أننى كنت مضطرا إلى ان ابقى جالسا إلى المائدة وقتا طويلا ، فقد كانت السيدة لا تكاد تحتمل ان تشم العبير المتصاعد من الحساء وأصناف الطعام الأخرى عندما تحمل إلى المـائدة ، إذ كانت الرائحة تسلمها إلى الإغماء ! وقد دام هذا النفور بعض الوقت ، ولكنها لم تلبث أن تمالكت نفسها تدريجا . وكانت إذا جلست إلى المـائدة انصرفت إلى الكلام ، دون ان تأكل شيئا ، فلم يكن ينقضى أقل من نصف ساعة قبل أن تتناول قطعة لحم ! وكان بوسعى ــ

(١) « السيدان » هى محفة مؤلفة من مقعد ذى مظلة ، يحمله رجلان ، وكانت من مركبات ذلك العصر ■

فى هذه الفترة ــ أن اتناول ثلاث وجبات ، ومن ثم فاننى كنت دائما أفرغ من طعامى قبل أن تشرع هى فى الأكل بوقت طويل. وقد اعتدت ــ لكى أؤنسها ــ أن اشرع فى الأكل مرة أخرى ! وبهذا الوضع كنت اتناول غذاء شخصين ، وما شعرت إطلاقا بضير من ذلك . وبعبارة موجزة : اسلمت نفسى للذة الشعور بالراحة ، التى كانت تخامرنى عندما اكون معها ، لا سيما وان هذه اللذة التى كنت استمرئها كانت خلوا من اى قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها ! .. ولما لم أكن قد أشركت بعد ــ بثقة تامة ــ فى شئون السيدة ، فقد رحت أتصور أن الحال الراهنة قد تستمر على الدوام . ولقد وجدت نفسى هذه الرفاهية فى دارها فى أوقات أخرى بعد ذلك ، ولكنى كنت قد ألممت بحقيقة وضعها ، وتبينت أنها كانت تستنفد معاشها قبل أن تتسلمه ، ومن ثم فلم أكن أشعر بعين الغبطة التى شعرت بها فى ذلك الوقت ! .. إن التطلع إلى المستقبل يفسد دائما هنـاءتى . فليس من المفيد لى فى شىء أن اتنبأ بالمسـتقبل ، إذ اننى لم أعرف البتة كيف اتفاداه !

ولقد توطد بينى وبين مدام دى فاران ــ منذ اليوم الاول ــ اكمل ود وألفة ، وقد داما خـلال ما بقى من عمرها . كان اسمى لديها « الصغير » ، وكان اسمها عندى « ماما » ، وقد ظللنا دائما «الصغير» و « ماما » ، حتى عندما محت السنون كل فارق بيننا تقريبا . وإنى لأرى أن هذين الاسمين يعطيان فكرة جد رائعة عن لهجة أحاديثنا ، وعن بسـاطة الأسلوب الذى كان مرعيا فى سلوكنا ، وعن العلاقة المتبادلة بين قلبينا

قبل كل شيء آخر !.. كانت ـ بالنسبة لى ـ أرق أم ، فلم تسع قط إلى ما فيه سرورها ، وإنما كانت تسعى دائمـا إلى ما فيه الخير لى . وإذا كانت الشهوة قد خالطت يوما تعلقها بى ، فانها لم تبدل من طابع هذا التعلق ، وإنما جعلته أكثر فتنة .. واسكرتنى ببهجة الظفر بأم شابة حسناء كنت أجد غبطة فى أن الاطفها (١) .. « الاطفها » بادق ما فى الكلمة من معنى ، فما خطر لهـا قط أن تقتصد فى قبـلات الأم ، أو فى عناقاتها الرقيقة وملاطفاتها ، ومن المؤكد أنه لم يخطر ببـالى اطلاقا أن اسىء استغلال ذلك . وقد يقال إننا ـ فى النهاية ـ ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف ، وإنى لأقر بهـذا ، ولكنى أرى أن أتريث قليلا ، فليس فى وسعى أن أروى كل شيء فى التو !

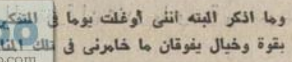
كانت لحظة لقائنا الأول ، هى اللحظة الوحيدة التى جعلتنى اشعر بها مليئة بالانفعال العاطفى الحقيقى . على أن هـذه اللحظة كانت من نتائج المفاجاة .. ولم تجسر نظراتى قط على أن تتسلل مستخفية إلى ما تحت المنديل الذى كان يحيط بعنق السيدة ، برغم أن سوء التستر على بدانة هـذا العنق كان خليقا بأن يجتذب النظر . ولم اكن اشعر فى حضـورها بأية نزوات أو شهوات، بل كنت فى حالة استجمام فاتن واستمتاع، وإن لم ادر فيم كان هـذا الاستمتاع !.. وكان بوسعى أن أقضى فى هذه الحال كل حياتى الدنيوية ، بل وحياتى الأخرى،

(١) الملاطفة هنا يقصد بها التحسس والقبلات والغزل .

دون ما لحظة من الملل والسـأم ، فان مدام دى فاران هى الشخص الوحيد الذى لم اشعر معه بذلك الفتور والنضوب اللذين يتطرقان إلى الحديث فيجعلان الاضطرار إلى المضى فيه ضربا من التضحية والاستشهاد !.. ولم يكن كلامنا الهامس فى خلواتنا حديثا بقدر ما كان ثرثرة لا ينضب لها معين ، ولم تحن لها نهاية اللهم إلا إذا طرأ ما يقطع استرسالها ! ولم تكن ثمة حاجة بها إلى أن تدعونى للـكلام ، بل كانت الحاجة إلى فرض السكوت على أكثر لزوما . وكانت كثيرا ما تستغرق فى شرود حالم لفرط تفكيرها المستمر فى مشروعاتها ، فكنت أتركها لأفكارها ، وامسك لسانى ، وانظر إليهـا .. وإذ ذاك كنت أسعد الرجال ! .. وكنت لا أزال أحتفظ بخيـال فذ ، فكنت أسعى دائما إلى مسامرتها دون من ولا تظاهر بصنيع ، فقد كنت استمرىء هذه الخلوات بشغف يتطور إلى جنون عندما كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها ! فما أن يفد احد ـ سواء كان رجلا أو امراة ـ حتى اغادر الحجرة وانا أزمجر ، عاجزا عن ان أبقى فى حضـور طـرف ثالث ! وكنت اقبع فى حجرتها الداخلية ، أعد الدقائق ، والعن هؤلاء الضيوف ـ الذين يأبون الانصراف ـ الف مرة ، وانا لا اقـوى على ان اتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت .. فقد كان لدى ما يفوقه !

ولم اكن أشعر بقوة تعلقى بالسيدة إلا عندما كنت لا أراها .. ولا كنت هانىء البال إلا حين أراها ، فاذا غابت كان قلقى يصبح اليما . كانت حاجتى إلى العيش معها تسبب لى نوبات

عاطفية كثيرا ما انتهت بالدموع ! ولن انسى مطلقا اننى فى يوم عيد من الأعياد مضيت للنزهة خارج المدينة ، بينما كانت هى فى قداس المساء .. وشعرت ان قلبى قد امتلأ بصورتها ، وبرغبة متأججة فى ان اقضى حياتى معها ، وكنت من الإدراك والعقل بحيث ارى أن هـذا كان مستحيلا فى وقتى الراهن ، وأن السعادة التى كنت أستمتع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد .. ولقد بعث هذا فى خواطرى مسحة من الأسى ، لم يكن نيها ـ مع ذلك ـ اى اكتئاب ، بل كانت تخفف منها آمال مراودة .. كان صوت الأجراس ـ الذى كان يهزنى دائما بوجه خاص ـ وشدو الطيور ، وبهاء ضوء النهار ، والمناظر الطبيعية الساحرة ، والمساكن القروية المتناثرة التى كان خيالى يتخذ منها مقاما لنا .. كل هـذه كانت تخلق فى نفسى تأثيرا قويا ، عاطفيا ، حزينا ، يهز أوتار قلبى إلى درجة ارى معهـا اننى انتقل فى غيبوبة حالمـة إلى ذينك الوقت والمكان السعيدين ، اللذين كان قلبى فيهما يمتلك كل ما كان يصبو إليه من سعادة ، فيقبل على تذوقها فى انتشاء لا سبيل إلى وصفه ، دون أدنى تفكير فى لذة شهوية . وما اذكر البتة اننى اوغلت يوما فى التفكير فى المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرنى فى تلك المناسبة . وكان اعظم ما ادهشنى من ذكرى هذا الحلم بعد أن تسنى له أن يتحقق ، هو اننى الفيت الأمـور تطابق تماما ما تصورته فى الخيال . وإذا قدر يوما لأحد أحلام اليقظة التى تراود ذهن إنسان ما ان يكون شبيها برؤى النبوة ، فهو حلمى هذا بالتأكيد . فما خدعنى خيـالى إلا فى الأمـد الذى



وما اذكر البته اننى أوغلت يوما فى التفكير فى المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرنى فى تلك المناسبة .

تصورته ، فقد تمثلت فى الحلم ان حياتنا معـا امتدت اياما
واعواما فى سكينة صافية سامية لا يعكرها شىء .. فى حين
ان هذه الحال لم تدم — فى واقع الحيـاة سوى لحظـة ..
ويا لحسرتى !.. فإن ابقى سعادة ظفرت بها ، إنمـا كانت
حلما لم تلبث اليقظة ان اعقبت تحققه فى الحال !

ولن افرغ من مهمتى إذا انا خضت فى تفصيلات كل الحماقات
التى كان تذكرى لهذه الأم العزيزة يحملنى على ارتكابها عندما
لا اكون فى حضرتها : فكم كنت اقبل سريرى لأنها نامت فيـه
يوما ، وستائرى وكل اثاث حجرتى لأنها كانت ملكا لها ، ولأن
يدها الجميلة كانت تمسها !.. حتى الأرض كنت اتقلب عليها
ما دامت هى قد خطرت فوقها !.. وكنت احيانا ارتكب — فى
وجودها — نزوات ما كان ليوحى بها سوى اعنف الوان الحب !
وقد حدث ذات يوم ان كنا نجلس إلى المائدة ، وما ان وضعت
قطعة من اللحم فى فمها ، حتى هتفت قائلا إننى لمحت شعرة
فيها ، فردت القطعة إلى طبقها ، وإذ ذاك انقضضت عليها فى
لهفة وابتلعتها ! وبإيجـاز : لم يكن بينى وبين اشد العشاق
تدلها سوى فارق واحد — ولكنه جوهرى — يجعل حالتى فوق
كل تصور وإدراك !

وكنت قد عدت من إيطاليا على غير ما ذهبت إليهـا ، بل
لعلنى عدت منها كما لم يعد قط اى امرىء فى سنى ، فقد حملت
معى — فى عودتى — طهرى الجسدى ، وإن لم احتفظ بطهرى
العقلى والخلقى ! ولقد شعرت بحكم السنين ، وقدر اخيرا
لطباعى القلقة غير المستقرة ان تغدو ملموسة محسوسة ، وقد

سبب لى تجليها لأول مرة — على غير إرادة منى — انزعاجا
بشأن صحتى ، بدرجة تبين اكثر من اى شىء آخر مـدى
البـراءة التى كنت أعيش فيهـا حتى ذلك الحين . وما ان
اطمأننت ، حتى تعلمت تلك الوسائل الخطرة التى تعاون تلك
الطباع ، والتى تغرر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين أوتوا مثل
مزاجى ، كثيرا من الاضطرابات والوان الإفراط ، على حساب
صحتهم وقوتهم و .. حياتهم احيانا ! ولهذه الرذيلة — التى
يرتاح إليها الخجل والجبن — إغراء عظيم يجتذب التخيلات :
ذلك هو — كمـا ينبغى أن يقـال — حشـد الجنس بأسره
لإرضائها ، واستغلال الجمال لملذاتهـا ، دون ما حاجة إلى
الحصول على موافقته او رضاه !.. وتحت إغراء هذه الخلة
المهلكة ، جهدت فى تدمير البنيـة البديعـة التى منحتنيهـا
الطبيعة ، والتى اتحت لها الوقت لتتسق فى تشكلها . اضف
إلى هذه العادة ظروف مركزى الحالى ، إذ كنت اقيم فى دار
امرأة جميلة ، اداعب طيفها فى قرارة قلبى ، واراها باستمرار
طوال النهار ، واحاط فى الليل بأشياء تذكرنى بها ، وانام فى
سرير عرفت أنها كانت تنام فيـه !.. فأية مثيرات هذه ! إن
القارىء الذى يتمثلها لنفسه يرى ولا ريب أننى كنت فى منتصف
الطريق إلى الموت بالفعل ! ولكن الأمر كان على نقيض ذلك
تماما ، فان الشىء الذى كان خليقا بأن يقضى على ، كان عين
ما انقذنى ، ولو إلى حين : ففى انتشائى بسحر الإقامة معها ،
وبالرغبة الجامحة فى ان اقضى ايامى بقربها ، كنت أرى فيهـا
دائما — سواء كانت غائبة او حاضرة — اما حنونا ، واختا

حبيبة ، وصديقة لطيفة .. ولا اكثر من هذا !.. هكذا كنت اراها دائما ، وهكذا كانت دائما ، فلم أكن أرى سواها قط ! وكانت صورتها الماثلة فى قلبى دائما لا تدع مكانا لأحد البتة !.. كانت لى المراة الوحيدة فى العـالم ، وكانت العذوبة البالغة التى اتسم بها ما كانت تلهمنى من مشـاعر ، لا تدع لحواسى وقتا تستيقظ فيه على غيرها ، بل كانت تعصمنى منها ومن كل جنسها ! ومجمل القول اننى كنت عفيفا ، لأننى كنت احبها !.. فليقل من يستطع ــ على ضوء هــذه النتائج التى لم احسن وصفها ــ أى نوع كان تعلقى بها !.. اما انا ، فكل ما أملك ان اقول عنه هو انه إذا كان يبدو جد غريب ، فانه سيبدو فى عواقبه اغرب !

وكنت أقضى وقتى على خير وجه ، وإن شغلت باقل ما كان يروق لى من اشياء . كانت ثمـة مشروعات تدبر ، ومذكرات تنسخ مصححة ، ووصفات تنقل ، واعشاب تنتقى ، وعقاقير تصحن وتسحق ، وانابيق (اجهزة للتقطير) تراقب .. وفى غمرة هذا كله ، كان عابرو السبيل والمتسولون والزائرون ــ من كافة الطبقات ـ لا يكفون عن الوفود زرافات ، فكنا نضطر إلى ان نستضيف جنديا وصيدليا وكاهنـا وسـيدة راقيـة وطالب ماوى .. فى آن واحد ! وكنت اسب ، وازمجر ، والعن ، واتمنى ان يتخطف الشيطان كل هذه الشرذمة اللعينة . اما مدام دى فاران ــ التى كانت تتقبل ذلك بحسن نية ــ فكانت غضباتى تضحكها حتى تدمع عيناهـا ، وكان يضـاعف من ضحكها ان تراني أزداد سخطا لأننى لم اكن أملك ان أصد

نفسى عن الضحك !.. كانت الفترات القصار التى كنت أحظى فيها بالزمجرة ، لحظات ساحرة !.. ولو أن قادما جديدا من هؤلاء الضيوف الثقلاء اقبل خلال الجدال ، فان السيدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسـلية ، وذلك بأن تطيـل الزيارة فى تخابث ، وهى ترمينى بنظرات أود معها لو اضربها ! وكانت تتمالك نفسها بعناء حتى لا تنفجر مقهقهة ، إذ ترانى أتجلد وأكظم مشاعرى تأدبا ، وأرمقها كشخص مسلوب النهى ، فى حين اننى كنت فى قرارة فؤادى ــ بل ورغما عن نفسى ــ ارى الأمر كله داعيا للضحك !

ولئن لم يكن كل هــذا يسرنى ، إلا انه كان يروق لى ، لأنه كان يؤلف جزءا من نوع من الوجود كان يبهجنى . ولم يكن فى كل ما كان يجرى حولى ــ ولا فى كل ما كنت مضطرا إلى عمله ــ شىء يلائم ذوقى ، ومع ذلك فقد كان كل شىء يروق لفؤادى . واعتقد اننى كنت قمينا بأن أميل إلى الطب ، لولا ان نفورى منه سبب تلك المناظر المضحكة التى اطربتنا كثيرا .. ولعـل هذه هى المرة الأولى التى يخلق فيها هذا الفن اثرا كهذا . كنت ازعم أن بوسعى ان أعرف اى مركب طبى من رائحته ، وكان الطريف فى الأمر اننى نادرا ماكنت اخطىء ! ولقد حملتنى مدام دى فاران على أن أتذوق افظع العقاقير ، ولم تكن ثمة جدوى من الفرار او محاولة الدفاع عن نفسى ، فبالرغم من مقاومتى ومن عبوسى ، وبالرغم من اصطكاك أسنانى ، كنت اضـطر أخيرا إلى ان افتح فمى عند ما أرى أصابعها الجميلة ــ ملطخة بالعقار ــ بالقرب منه ، فامتصها !.. وعنـدها كان كل اهل

دارها يجتمعون فى حجرة واحدة ، يسمعون جرينا وصراخنا وضحكنا ، كان أى امرىء خليقا بأن يظن اننا كنا نمثل إحدى المسرحيات ، بدلا من تحضير البلاسم والأكاسير !

على أن وقتى لم يكن وقفا على هذه الحماقات . فقد وجدت فى الغرفة التى كنت أشغلها بضـعة كتب : « المتفرج » ، و « بيفندروف » ، « سانت ايفريموند » ، والقصيدة «الهنرية» . ومع أننى لم أكن احتفظ بجنونى القديم بالقراءة ، إلا أننى كنت أقرأ قليلا عندما لا أجد شيئا آخر أفعله . وكان كتاب « المتفرج » يلذ لى بوجه خاص ، وقد أثبت أنه كان ذا نفع لى . وكان الأب دى جوفون قـد علمنى أن أقـرأ فى غير إسراع ، وبمزيد من التأمل ، ولهـذا أصبحت المطـالعة أكثر فائدة لى . وعودت نفسى أن أفكر فى اللغة والأسلوب وبلاغة تركيب العبارات ، كمـا دربت نفسى على أن أميز الفرنسـية الفصحى من التعبيرات الإقليمية . وتعلمت كيف أصحح الكثير من الأخطاء الهجائية التى كان يشاركنى فى ارتكابها جميع أهل (جنيف) !

وكنت أتحدث إلى « ماما » أحيانا عن مطالعاتى ، كما كنت أقرأ لهـا أحيانا ، فأحظى بسرور عظيم ، وأحـاول أن أتقن القراءة ، وكان هذا ـ بدوره ـ مفيدا لى . ولقد ذكرت أنها كانت ذات عقل مصقول ، كان ذلك الوقت بالذات فى عنفوانه. وقد أبدى عدد من رجال الأدب شـوقا إلى الظفر بالحظـوة لديها ، فعلموها كيف تحكم على المؤلفات التى تنم عن عبقرية. وكان لها ذوق « بروتستانتى » بعض الشىء ـ إذا جاز لى أن

أقول هـذا ـ فلم تكن تتكلم إلا عن « بايل » ، وكانت تقـدر القديس « ايفريموند » الذى مات فى فرنسـا قبل ذلك بوقت قصير . ولكن هذا لم يعقها عن أن تتعرف إلى أى أدب طيب ، وأن تناقشه فى فطنة. وكانت قد نشأت فى مجتمع رفيع، ووفدت على (سافوا) وهى بعد صغيرة . وفى الوسـط البهيج الذى يعيش فيه علية القوم فى هذه البلاد ، فقدت طريقة أهل إقليم (فود) فى الحديث، حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة ، ولا يعرفن الكلام إلا بالطرائف والحكم الشعرية !

ومع أنها لم تحظ إلا بمعرفة عابرة بالبلاط الملكى ، إلا أنها ألقت عليه نظرة سريعة ، كانت كافية لأن تعرفه بها . وكانت تحتفظ لنفسها دائما بأصدقاء فيه ، وعلى الرغم من الدسائس الخفية المنبعثة عن الغيرة ، وبالرغم من الاستياء الذى كان مسلكها وديونها تثيره ، إلا أنها لم تفقد قط معاشها . ولقـد أوتيت خبـرة بالدنيا ، ومقدرة فكرية على الإفادة من هـذه الخبرة ، فكانت تؤلف أفضل موضوع فى أحاديثها . وكان هذا بالذات هو الموضوع الذى أجدنى، فى حاجة ماسة إلى الإلمام به ، بالنسبة إلى آرائى الخيالية . . ولقد قرأنا كتاب « لابروير »، فأعجبها أكثر من كتب « لاروشفوكو » الذى كان أديبا كئيبـا ممضا ، لا سيما للشباب الذين لا يكترثون لرؤية النـاس على حقيقتهـم . وكانت إذا وعظت استغرقت أحيانـا فى خطب طويلة ، ولكنى كنت أتزود لاحتمالهـا بتقبيل فمها ويديها من وقت إلى آخر ، فلا يعود إسهابها يضجرنى !

* * *

وكانت هـــذه الحياة أبهج من أن تدوم . وكنت أشـــعر بذلك ، فكان اغتمامى بالإشفاق من أن أراها تنتهى هو الشىء الوحيد الذى عكر استمتاعى بها ! وكانت « ماما » فى وسط مداعباتها تدرسنى ، وتراقبنى ، وتسائلنى ، وترسم ـــ من أجل تقدمى ـــ مشروعات كنت أتجاوزها بسهولة . ولحسن الحظ أنه لم يكن كافيا أن تعلم ميولى وأذواقى وامكانياتى ، بل كان من الضرورى البحث عن فرص لاستخدامها على وجه نافع ، أو « خلق » هذه الفرص . ولم يكن هذا بالعمل الذى يتم فى يوم واحد . بل إن الأحكام الصادرة عن الهوى ، والتى كانت المسكينة تتخذهـــا إزاء مواهبى ، كانت ـــ فى الوقت ذاته ـــ سببا فى تأجيل لحظات تطبيقها بالذات ، إذ كانت تجعلهـــا تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل . وبالإيجاز : سار كل شىء وفق رغباتى بفضل حسن رأيها فى . ولكن هذه الحياة كانت مسوقة إلى نهاية ، إن عاجـــلا أو آجلا .. وإذ ذاك ، وداعا لكل أمل فى الطمأنينة !.. فقد جاء لزيارة مدام دى فاران قريب لها ـ يدعى السيد « دوبون » ـ كان رجلا عظيم الدهاء يجيد الدس، وذا عبقرية ـ مثل قريبته ـ فى رسم المشروعات، ولكنه كان أبرع من أن يدع مشروعاته تقضى عليه . كان من المغامرين ! وكان قد اقترح على الكاردينال « دى فليرى » مشروعا لتنظيم « يانصيب » ، بلغ من تعقده أنه لم يلق قبولا. فجاء بعرضه على بلاط (تورين)، حيث قبل ونفذ . وقد مكث هذا الرجل بعض الوقت فى (انيسى) ، حيث عشق زوجة وكيل الحكومة ! وكانت امرأة جد لطيفة ، قريبة إلى ذوقى ، حتى

أنها كانت الوحيدة التى كنت أسر برؤيتها فى دار « ماما » . ولقد رآنى السيد « دوبون » ، وحدثته قريبته عنى ، فتكفل بامتحانى ليرى ما أصلح له ، فاذا ما وجدنى أهلا لشىء ، بحث لى عن منصب !

وأرسلتنى مدام فاران إليه فى صباحين أو ثلاثة متعاقبة ، بحجة بعض مهام لها ، دون أن تبصرنى بشىء . وأفلح الرجل فى حملى على الكلام ، وأبدى لى الود ، وتبسط معى إلى أقصى ما أمكنه ، وتحدث معى فى مســـائل غير ذات بال ، وفى كافة الموضوعات .. كل ذلك دون أن يشعرنى بأنه كان يراقبنى ، ودون أدنى كلفة ، وكأنه وجـــد فى صحبتى مسرة فرغب فى التسامر معى دون ما قيود . وأعجبت به .. وكانت نتيجة ملاحظاته أننى ـــ برغم مظهرى الجذاب وملامحى الدالة على الفطنة ـــ كنت فتى قليل الذكاء ، عديم الأفكار ، عديم المعرفة تقريبا ، إن لم أكن غبيا !.. وبعبارة موجـــزة ، كنت محدود العقل من كل الاعتبارات ، وكان أرفع منصـــب بحق لى أن أصبو إليه ، هو أن أصبح يوما راعيا لكنيسة إحدى القرى ! هكذا كانت النتيجة التى قدمها عنى لمدام دى فاران ، وكانت هذه هى المرة الثانية أو الثالثة التى يحكم على فيها بمثل ذلك. بل إنها لم تكن المرة الأخيرة : فكم من مرة عزز فيها رأى السيد « ماسيرون » .

وكانت أسباب هذه الأحكام ترتبط بخلقى ارتباطا وثيقـــا لا داعى معه إلى أى إيضاح هنا . ذلك لأنه من المفهـــوم ـــ صراحة ـــ أننى لا أستطيع أن أقر هـــذه الآراء دون تحفظ ،

وأننى ـ بكل حيدة وتجرد عن الهوى ـ لا أستطيع أن أتقبل
كل ما قاله السيدان « ماسيرون » و « دوبون » وغيرهما على
علاته !.. فلقد اتحد فى نفسى شيئان متنافران تقريبا ، بطريقة
لا أملك ادراكها : طباع حادة ، وعواطف محتدمة صاخبة ..
وفى الوقت ذاته ، افكار بطيئة النمو ، مهوشة ، لا تكشف قط
عن نفسها إلا بعد فوات الأوان . ومن الممكن أن يقال إن قلبى
وعقلى لا يمتان إلى فرد واحد . فان الشعور يستحوذ على
نفسى بأسرع من البرق الخاطف ، ولكنه يكوينى ويعشى
بصرى ، بدلا من أن ينيرنى . فاذا بى احس بكل شىء دون أن
ارى شيئا ! إن العواطف تجرفنى ، ولكنى بطىء التفكير ، لابد
لى من أن أسرى عن نفسى حدة الانفعالات لكى أستطيع أن أفكر .
والعجيب فى الأمر هو أننى ـ برغم ذلك ـ أوتيت رأيا مؤكد
الصواب ، وبصيرة نفاذة ، ودقة فى الحكم ، إذا ما اتيح لى
الوقت الكافى .. وأننى لأصدر آراء عاجلة إذا تركت وشأنى ،
ولكنى لم أفه يوما بشىء ذى قيمة فى اللحظة التى طلب إلى
فيها ذلك ! وبوسعى أن أجيد النقاش عن طريق التراسل ،
بنفس النهج الذى يقال عن الأسبان أنهم ينتهجونه فى لعب
الشطرنج . وعندما قرأت عن أحد دوقات (سافوا) أنه قطع
رحلته وعاد ليصيح : « سانقض على عنقك ايها التاجر
الباريسى » ، لم اتمالك أن اقول : « هكذا أنا » !

هذا البطء فى التفكير مع فورة الشعور ، لا يلازمانى فى
الحديث فحسب ، وإنما هما معى حتى فى وحدتى ، وعندما
أعمل ! .. فان افكارى تنسق نفسها فى راسى بعناء لا يكاد
يصدق ، إذ أنها تدور فيه على غير هدى ، ثم تتخمر وتفور

حتى تحركنى وتبعث الحرارة فى كيانى ، فيتسارع خفقان
قلبى . وفى غمرة هذا الانفعال ، لا أعود أرى أى شىء بوضوح ،
ولا أقوى على أن أكتب كلمة واحدة ، واضطر إلى الانتظار
والتريث .. ولا يلبث الانفعال العظيم أن يخف بطريقة
لا أفقهها ، فينقشع الاضطراب ، ويستقر كل شىء فى مكانه ،
ولكن .. فى بطء ، وبعد انفعال طويل مربك . أنما قدر لك
يوما أن تشهد « الأوبرا » فى إيطاليا ؟.. ففى خلال تبديل
المناظر ، تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة ،
تمتد فترات طويلة . إذ تختلط كافة الزخارف (الديكورات)
بعضها ببعض ، وترى الأشياء تجذب فى كل ناحية بشكل
مؤلم ، حتى ليخال للمرء أن كل شىء قد انقلب رأسا على
عقب ! ثم لا يلبث كل شىء أن ينتظم شيئا فشيئا ، ولا يبقى
أى نقص ، ويدهش المرء إذ يرى منظرا رائعا عقب هذه
الفوضى الطويلة ! هذه العملية تقترب من تلك التى تجرى
فى مخى عندما أرغب فى الكتابة . ولو أننى تعلمت أن أتريث
أولا ، ثم أجنى الأشياء التى ارتسمت فى ذهنى ، صاقلا
جمالها ، لما تفوق على سوى قليل من الكتاب !

ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التى أجدها فى الكتابة . وأن
مخطوطاتى بما فيها من كشط ومحو وسطور متداخلة ، وكتابة
لا تكاد تقرأ ، لتشهد بالعناء الذى تكبدنيه . فليس بينها ما لم
اضطر إلى نسخه أربع أو خمس مرات قبل أن أستطيع أن
أدفع به إلى المطبعة ! وما استطعت قط أن أنتج وأنا جالس
إلى منضدتى وأوراقى والقلم فى يدى ، وإنما اعتدت أن أكتب

على صفحة ذهنى بينما اتمشى وسط الصخور والغابات ، أو فى الليل وانا مستلق فى فراشى مستيقظا . وفى وسع المرء أن يقدر ذلك البطء ، سيما لدى إنسان حرم تماما من ذاكرة تحفظ الكلام ، وما قدر له فى حياته أن يحفظ ستة أبيات من الشعر عن ظهر قلب ! .. بل إن من عباراتى وجملى ما ظللت اقلبه واديره فى راسى خمس أو ست ليال ، قبل أن يغـدو صالحا لأن يسجل على الورق ! وهنا أيضا السر فى اننى اكثر توفيقا فى أعمالى التى تتطلب جهدا ، منى فى تلك التى تتطلب خفـة اسلوب معينة ، كالرسائل .. وهى خفة لم يقدر لى قط أن اتمكن من الإلمام بها ، ومن ثم فان هذه المهمة ترهقنى . فلست اكتب رسالة فى اتفه موضوع ، إلا وتكبدنى ساعات من الضنى .. كمـا اننى إذا حاولت أن اكتب فورا ما يعن لى ، لا ادرى كيف أبدأ ولا كيف انتهى . ومن ثم تكون رسالتى لغوا طويلا مهوشا ، يلقى المرء عناء فى فهمه إذا ما قراها !

ولا تكبدنى الأفكار عناء فى تسجيلها فحسب ، وإنما تكبدنى العناء ذاته فى تلقيها . لقد درست الناس ، واعتقد اننى قوى الملاحظة ، ومع ذلك فاننى لا املك ان ارى بوضوح شيئا مما اشهده ، وإنما اتمثل بوضوح ما اذكره ، ولا ابدى الفطنة إلا فى ذكرياتى .. فمن كل ما يقال ، ومن كل ما يعمل ، ومن كل ما يجرى فى حضورى ، لا أشعر بشىء ولا أتغلغل ببصيرتى فى شىء . وإنما الذى يؤثر فى هو الظاهر وحده !.. بيد أن كل شىء لا يلبث ان يرتد إلى ذهنى فيما بعـد ، فاذكر المكان ، والزمان ، والحال ، والنظرة ، والإشارة ، والظـروف ..

لا يفوتنى منها شىء . وعندئذ ، اتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيـه ، ونادرا ما اخطىء !.. ولـو اننى سيطرت على طاقتى الذهنية قليلا ، فيما بينى وبين نفسى ، ففى وسع المرء أن يحدس ما كنت اصبح عليه من براعة فى الحديث ، حيث يجب ــ من اجل الكلام فى الموضـوع ــ أن افكر فى الف شىء فى نفس الوقت والمكان . ولكن مجرد التفكير فى التوفيق بين هذه الأشياء ــ التى اوقن من اننى لابد ان انسى شيئا واحـدا منها على الأقل ــ يكفى لكى يبث الخـوف فى نفسى ! بل إننى لا افهم كيف يجد اى امرىء الجراة على الكلام فى جماعة ، حيث لا غنى له عن أن يطوف ببصره مستعرضا الحـاضرين ، مع كل كلمـة .. وحيث لا بد له من ان يلـم بشخصياتهم وسيرهم ، حتى يستوثق من تجنبه ذكر اى شىء قد يجرح شعور احد منهم . ومن هذه الناحية ، يمتاز الذين يعيشون فى الدنيا(١) بميزة كبرى ، هى انهم يكونون اكثر من سواهم دراية بما لا ينبغى أن يصمتوا عنه ، واشد اطمئنانا إلى ما يقولون .. ومع ذلك ، فكثيرا ما تفلت منهم هفوات ، وهنات . فما بالك بمن يسقط فى وسطهم من بين السحب ؟!(٢) .. إنه ليستحيل عليه تقريبا أن يتكلم لدقيقة دون خوف من الزلل ! .. وهناك مضايقة اخرى فى المسارة ــ أى عنـدما

---

(١) يقصد الذين يختلطون بالناس ويغشون المجتمعات .

(٢) يقصد الذى يعيش بعيدا عن المجتمع ، فى أحلامه الخاصة ، ثم يقدر له أن يتكلم وسط الناس .



اتحدث مع شخص ما فى خلوة ـــ أجدها أنكى مما سبق : تلك هى ضرورة الكلام باستمرار . فاذا وجه إليك الحديث ، كان عليك أن تجيب .. وإذا لم توجـــد كلمة تقال ، كان عليك أن تحيى الحديث من جديد . هذا الاضطرار الذى لا يطاق ، هو وحده الذى ينفرنى من المجتمع . ولست اجد ضيقا افظع من الاضطرار إلى الحديث عفو الخاطر وباسترسال . ولا ادرى ما إذا كان لهذا اى شأن من كراهيتى المميتة لكل قهر ، من اى نوع . بيد انه يكفينى أن اكون مضطرا إلى الكلام ، لكى أنطلق فى لغو لا محيص منه .

اما ما يفوق هذا شناعة ، فهو اننى بدلا من ان استطيع أن امسك لسانى عندما لا اجد شيئا يقال ، إذا بى اجد نفسى ـــ فى هذا الوقت بالذات ـــ اكاد أجن شـــوقا إلى الكلام ، لأرد الدين بأسرع ما استطيع !.. فابادر إلى إطـــلاق عبـــارات متلعثمة خالية من اية فكرة ، وتشتد سعادتى إذا كانت لا تعنى شيئا على الاطـــلاق . وإذ احاول أن اغـــالب أو ان اخفى غبائى ، فاننى نادرا ما اخفق فى إظهـــاره ! ومن الف مثـــال استطيع ذكرها ، اختار واحدا لا يمت إلى ايام الصبا ، وإنما إلى وقت كان خليقا بى أن اكون قـــد اكتسبت عنده يسرا فى القول ـــ إن كان هذا ممكنا ـــ بعد أن عشت سنوات عديدة بين الناس . ففى ذات مســـاء ، كنت أجلس بين ســـيدتين عظيمتين ورجل يحق لى أن أذكر اسمه ، وهو السيد الدوق « دى جونتو » . ولم يكن ثمة سوانا فى الحجرة ، وقد رحت اجاهد فى سبيل ذكر بضع كلمات ـــ يعـــلم الله ماذا كانت ـــ

خلال حديث كان يدور بين أربعة أشخاص ، كان بينهم ثلاثة فى غير حاجة ـــ بالتـــأكيد ـــ إلى تعقيبى . وأمرت ربة البيت بإحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوما لعـــلاج معدتها . وإذ رأت السيدة الأخرى وجهها يتغضن ـ اشمئزازا من الدواء ـ قالت ضاحكة : « أهذا الدواء من لدن السيد ترونشان » . فاجابتها الأولى بنفس اللهجة : « لا اظنه ! » .. وهنا عقب روسو الذكى فى تأدب : « أظن انه لا يفوقه فى شىء ! »[1] . وبقى الجميع واجمين ، فلم يفه احد بأتفه كلمـــة أو بأضـــال ابتسامة . وبعد لحظـــة ، اتخـــذ الحديث اتجاها آخـــر . وما كانت هذه الفلتة لتبدو ـــ فى أى مجلس آخر ـــ ســـوى فكاهة ، أما وقد وجهت إلى امراة كانت من رقة الشعور بحيث لا تحب ان تجعل نفسها مادة للحديث ، ولم تكن لدى ـــ بكل تأكيد ـــ اية رغبة فى مس شعورها ، فقد بدت شنيعة ، واعتقد أن الشاهدين ـــ الرجل والمراة ـــ عانيـــا كثيرا لكى يكبحـــا الضحك . هذا مثال لفلتات الذكاء التى تمنعنى من الرغبة فى الكلام عندما لا أجد شيئا يقال .. ولن انسى بسهولة هـــذا الحادث ، لا لأنه ـ فى ذاته ـ مما يعلق بالذاكرة ، وإنما لأنه يجول بخاطرى انه كانت له عواقب تدفعه إلى ذاكرتى كثيرا .

---

[1] كان الدواء حبوبا لتليين المعدة . ومن هنا ندرك أنه لم يكن من اللياقة ان يتدخل رجل فى حديث الســـيدتين اللتين لم تكونـــا ســـوى : مدام دى لوكسمبورج ـــ وهى ربة البيت ـــ ومدام دى بربولا ، اللتين سيرد ذكرهما فى الكراسة العاشرة .

واعتقد أن هذا يكفى لبيان كيف أننى وإن لم اكن غبيا ، إلا اننى كثيرا ما ظن بى ذلك ، حتى من جانب أناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح . ومما يضاعف سوء حظى ان ملامحى وعينى توحى بفكرة افضل ، وان خيبة هذا الحدس تبدى هذا الغباء للغير بشكل ابشع !.. وهذا الإسهاب فى شرح الفكرة ، الذى تولد عن مناسبة خاصة ، ليس خاليا من النفع بالنسبة لما سيأتى فيما بعد . فهو يتضمن ما يجلى غوامض كثير من الأمور الشاذة التى شوهدت منى ، والتى تعزى إلى طباع وحشية غير اجتماعية ، ليس لدى فى الواقع شىء منها ! فلقد كنت خليقا بأن احب المجتمع كاى فرد آخر ، لو لم اكن متأكدا من أن ظهورى فيه ليس فى صالحى ، فضلا عن اننى ابدى نفسى شخصا آخر غير ما انا حقيقة . ومن ثم فان الوضع الذى اتخذته وانا اكتب واعيش فى عزلة ، هو عين الوضع الذى يناسبنى تماما . وأينما اكون حاضرا لا سبيل إطلاقا إلى تقدير قيمتى ، ولو تخمينا . وهذا ما جرى لمدام « دوبان » ، برغم أنها كانت امراة ذكية ، وبرغم أننى كنت أعيش فى دارها لسنوات عدة . ولقد صارحتنى — هى نفسها — بذلك كثيرا منذ ذلك الحين . ومع ذلك ، فان لهذه القاعدة استثناءات ، سأعود إليها فيها بعد(١) .

أما وقد استقر مجال مواهبى عند هذه الحدود ، فقد تعين الوضع المناسب لى واتضح للمرة الثانية ، ولم يبق من سؤال

(١) سنشهد أحد هذه الاستثناءات فيما سيذكره روسو فى الكراسة الرابعة عن زيارته لمجلس الشيوخ فى (برن) مع كبير الاساقفة .

سوى : كيف املأ مكانى ؟.. وكانت الصعوبة تتمثل فى اننى لم استكمل دراستى ، ولم اكن أعرف — كذلك — من اللاتينية ما يكفى لكى اصبح قسا . وكانت مدام دى فاران قد فكرت — فى بعض الأوقات — فى ان اتعلم فى المعهد الدينى ، وتحدثت إلى رئيسه ، وكان راهبا لازاريا(١) — يدعى السيد «جرو» — طيبا ، ضئيل الجسم ، اوشك ان يفقد ابصار إحدى عينيه ، كما كان هزيلا ، اشيب الشعر . وكان اعظم لازارى عرفته ذكاء ، واقلهم غطرسة .. وما هذا القول بكثير عليه فى الحقيقة !

وكان يتردد احيانا على دار « ماما » ، فكانت تحتفى به ، وتداعبه ، وتعاكسه كذلك ، وتحمله احيانا على أن يربط لها مشداتها (الكورسيه) ، وهى مهمة كان يقبل عليها راضيا ! وبينما يكون منهمكا فيها ، تأخذ فى الجرى — فى الغرفة — من جانب إلى آخر ، لتفعل شيئا هنا ، وشيئا هناك ، والسيد الرئيس يتبعها — مشدودا إلى الخيط — وهو يزمجر ولا ينفك يقول : « ولكن ، اثبتى يا سيدتى ! » .. وكان هذا موضوعا طريفا جديرا بالتصوير !

وتقبل السيد « جرو » مشروع «ماما» بتحمس قلبى ، فقنع بأجر متواضع لإقامتى ، وتكفل بتعليمى ، ولم يشترط سوى موافقة الأسقف ، الذى لم يمنح هذه الموافقة فحسب ، وإنما

(١) من اتباع مذهب القديس لازار فى الرهبنة .



وتحمله أحيانا على أن يربط لها مشداتها (الكورسيه) ،
وهى مهمة كان يقبلها راضيا !..

رغب فى دفع نفقات إقامتى ، كما سمح بأن أظل فى زيى المدنى إلى أن يقضى لى بالنجاح المنشود ، بعد امتحان !

* * *

أى تحول هذا !.. وكنت مضطرا إلى الانصياع ، فذهبت إلى المعهد الدينى وكأننى ذاهب إلى عقوبة اليمة ! فيا للمعهد من مأوى حزين كئيب ، لا سيما لمن بارح لتوه دار امرأة حبيبة .. ولم أحمل معى سوى كتاب واحد ، رجوت « ماما » أن تعيرنيه ، وكان مصدر عزاء كبير لى . ولن يتصور أحد أى كتاب كان ذلك !.. لقد كان كتابا فى الموسيقى !.. فبين المواهب التى تعهدتها «ماما» فى نفسها ، لم تكن الموسيقى منسية . إذ كان لها صوت عذب ، وكانت تجيد الغناء ، وتعزف ـ إلى حد ما ـ على « البيانو » ، وقد تفضلت بتلقينى بعض دروس فى الغناء ، وكان لابد لها من أن تبدأ من الأصول الأولى ، إذ أننى كنت لا أكاد أدرى شيئا من موسيقى مزاميرنا.
وكانت ثمانية أو عشرة دروس على يدى امرأة ـ وهى دروس لم يكن سبيل إلى استمرارها دون ما يعكر جوها ويقطع استرسالها ـ أقل بكثير من أن تمكننى من السلم الموسيقى ، أو من الإلمام بالعلامات الموسيقية . على أننى كنت من الشغف بهذا الفن بحيث رغبت فى أن أحاول المران بنفسى . ولم يكن الكتاب الذى اصطحبته من الكتب السهلة ـ فى ذاته . لقد

تضمن اغانى « كليرامبو » . ومن الممكن تصور مدى إقبالى
وعنادى ، عندما أقول إننى وفقت ــ دون دراية ولا تبديل ــ
إلى أن اترجم واغنى ، دون خطأ ، اللحن الأول من اغنية
« الفيه واريثيز » وكلماتها .. وإن كان هذا اللحن ــ فى
الواقع ــ موزونا بحيث لا يستلزم اكثر من إلقاء الشعر مع
مراعاة المسافات والوحدة ، لكى يكسب وقع الحن !

وكان فى المعهد « لازارى » لعين تعهدنى ، فجعلنى اكره
اللغة اللاتينية التى اراد ان يلقننى إياها . وكان له شعر ناعم،
اسود ، ينضح بالدهن ، ووجه كرغيف من خبز الزنجبيل(١) ،
وصوت كصوت الجاموس ، ونظرة كنظرة البومة ، ولحية
كذقن التيس !.. وكانت ابتسامته ساخرة ، واطرافه مخلخلة
كأطراف الدمية !.. ولقد نسيت اسمه البغيض ، ولكن وجهه
المخيف ، ذا اللطف المتكلف ، ظل باقيا فى ذاكرتى ، لا اكاد
اذكره دون أن ارتجف . ولا ازال اتصور اننى القاه فى
الردهات ، رافعا فى جلال قلنسوته المربعة المتسخة ، مشيرا
لى بدخول حجرته ، التى كانت ابغض لدى من غرفة
السجن ! .. فتصور ــ على سبيل المقارنة ــ استاذا كهذا
لتلميذ راهب كان ينتمى إلى البلاط الملكى !

(١) نوع من الخبز يخلط دقيقه بالزنجبيل .

ولو قدر لى ان أمكث شهرين تحت رحمة هذا الوحش ،
فاننى موقن من ان راسى ما كان ليحتمل ذلك . ولكن السيد
جرو الطيب لاحظ أننى كنت حزينا ، واننى لم اكن اقبل على
الأكل ، بل كنت ممعنا فى الهزال ، فادرك سر اساى ــ إذ لم
يكن هذا بالأمر العسير! ـ وانقذنى من براثن هذا الحيوان!..
وبتناقض آخر ، شديد الغرابة هو الآخر ، اسلمنى إلى الطف
الرجال : وكان راهبا شابا من (فوسيينى)(١) ، يدعى السيد
« جاتييه » ، كان موشكا على الفراغ من الدراسة فى المعهد ،
وقد شاء ــ بدافع من الرغبة فى إرضاء السيد جرو ، وبدافع
من الإنسانية على ما أعتقد ـ ان يسلب دراساته الوقت الذى
وهبه لتلقينى دروسى . والحق أننى ابدا ما رايت اسارير
اكثر تأثيرا فى النفس من أسارير السيد جاتييه !.. فقد كان
أشقر ، تميل لحيته إلى الحمرة ، وله الهيئة المألوفة لدى اهل
إقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم الثقيل ذكاء وافرا . على
ان ما كان يميزه حقا هو روح لطيفة ، رحيمة ، منعمة بالود .
وكان فى عينيه الزرقاوين الواسعتين خليط من الرقة والحنان
والأسى ، تجعل من المستحيل على اى شخص ان يراه دون
ان يميل إليه .. وكان من الممكن ان يقال ، من نظرات هذا



(١) مقاطعة صغيرة فى دوقية (سافوا)

الشاب المسكين ومسلكه ، انه كان على علم بمصيره ، وأنه كان يشعر بأنه ولد ليكون شقيا !

ولم تكذب شخصيته مظهره ، فقد كان يتميز بالصبر وحب الإرضاء ، مما جعله يبدو أقرب إلى الاستذكار معى منه إلى التدريس لى !.. وكان هذا وحده أكثر من أن يكفى لأن يحملنى على حبه .. ومع ذلك ، فعلى الرغم من كل الوقت الذى منحنيه ، وعلى الرغم من كل التحمس القلبى الذى وجهه كل منا إلى دراساتنا ، ومع أنه سار على خير نهج ، فاننى لم احظ من اجتهاده الجم إلا بتقدم بسيط ! ومن الغريب أننى ، بما أوتيت من إدراك واسع ، لم اتعلم شيئا من الأساتذة — فيما عدا أبى والسيد لامبرسييه — أما القليل الذى عرفته فوق ما علمنيه هذان ، فقد حصلته بنفسى ، كما سيتجلى فيما بعد . فان روحى التى لا تصبر على اى نوع من النير ، لا تقوى على الرضوخ لحكم اللحظة . بل إن الخوف من عدم التعلم يحول دون أن أنتبه ، كما أننى ، خوفا من ان أجعل الشخص الذى يتحدث إلى يفقد صبره ، أتظاهر بالفهم ، ومن ثم يمضى قدما فى حديثه ، دون ان أعى شيئا ! فلا بد لعقلى من أن يحدد الوقت الذى يروق له للعمل ، ولا يستطيع ان يخضع للوقت الذى يحدده له الغير !

وحان وقت تنصيب معلمى « شماسا » ، حسب الطقوس

الدينية المألوفة ، فعاد إلى إقليمه ، وحمل معه حسراتى ، ومحبتى ، وعرفانى . وقد قدمت من أجله نذورا لم تتقبل بأكثر مما تقبلت به النذور التى قدمتها من أجل نفسى . ولقد علمت بعد ذلك ببضع سنوات ، أنه بينما كان نائبا لأبرشية ، انجب طفلا من فتاة كانت هى الوحيدة التى أحبها ، برغم قلبه المسرف الرقة . وكانت هذه فضيحة شنيعة فى ابرشية كانت تخضع لأنظمة شديدة . فان القساوسة — نظرا لخضوعهم لنظم طيبة - ينبغى لهم الا ينجبوا اطفالا إلا من نساء متزوجات!! .. ومن ثم فان القس الشاب سجن لانتهاكه قانون العفة هذا ، وفضح ، وجرد من رتبته . ولست أدرى ما إذا كان قد استرد مركزه فيما بعد ، ولكن الشعور بسوء حظه نقش بخطوط عميقة على قلبى ، وقد عاودتنى قصته عندما كتبت « اميل » ، فمزجت شخصيتى السيد جاتييه والسيد جايم ، وجعلت من هذين القسين الفاضلين الشخصية الأصلية لأسقف سافوا ، وإنى لأغبط نفسى لأن الشخصية التى خلقتها لم تنل من قدر الشخصيتين الأصليتين !

وفى اثناء وجودى فى المعهد الدينى ، كان السيد دوبون قد اضطر إلى مبارحة (أنيسى) .. فقد خطر للسيد «كورفيزى» وكيل الحكومة ان يستاء من غرامه بزوجته ! وكان هذا أشبه

بما جرى لكلب البستانى(١) .. ذلك لأنه بالرغم من أن مدام
كورفيزى كانت ذات جمال يهفو بالقلوب ، إلا أن زوجها ـ
الوكيل ـ كان يعيش معها على شقاق ، إذ أن الأهواء التى
ورثها عن أهل الجبال النائية جعلت زوجته غير ذات نفع له ،
فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما . وكان
السيد كورفيزى رجلا شريرا ، أسود كالفأر الجبلى ، خطافا
كالحداة ، وقد انتهى به استغلاله سلطاته إلى طرده من
منصبه . ويقال إن أهل الريف يتشفون فى أعدائهم بالأغانى ،
أما السيد دوبون فقد تشفى بمسرحية هزيلة . وقد أرسل هذه
التمثيلية إلى مدام دى فاران ، التى اطلعتنى عليها فأعجبت
بها ، وتولدت لدى نزوة تأليف مسرحية أخرى ، لأرى ما إذا
كنت قد ظللت « بهيما » كما وصفنى يوما ! على أننى لم أحقق
هذا المشروع إلا فى (شامبيرى) ، حيث كتبت «عاشق نفسه» !
(ومن ثم فإننى عندما قلت فى مقدمة هذه المسرحية إننى كتبتها
فى الثامنة عشرة من عمرى ، إنما كنت أكذب ، إذ أننى تجاوزت
عن بضع سنوات !) .

* * *

(١) الظاهر أن روسو يشير بهذا الى قصة كانت شائعة بين أبناء عصره .

وفى حوالى ذلك الوقت ، وقع حادث كان قليل الأهمية
فى حد ذاته ، ولكنه كان ذا عواقب بالنسبة لى ، كما أنه أحدث
ضجة فى العالم عندما نسيته . فلقد كنت أحرص على التماس
الإذن بالخروج من المعهد مرة فى كل أسبوع ، ولست بحاجة
إلى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك . وفى يوم من أيام الآحاد ،
كنت لدى «ماما» عندما شب حريق فى إحدى بنايات « الرهبان
السمر » ، وكان ملاصقا لدار مدام دى فاران . وكان هذا
المبنى ـ الذى أقيم فيه فرن الرهبان ـ مليئا بالوقود الجاف،
فسرعان ما أصبح كله شعلة من النار ، وأصبحت دار السيدة
فى خطر عظيم ، وقد لفها اللهب الذى حملته إليها الريح .
وصار من الواجب نقل الأثاث بسرعة من الدار ، وحمله إلى
الحديقة التى كانت مواجهة لنوافذ حجرتى القديمة ، حيث كان
يجرى خلفها الجدول الذى تحدثت عنه . وكنت من الاضطراب
بحيث رحت ألقى من النافذة بدون وعى كل ما كان يقع تحت
يدى ، ولو كان حجرا كبيرا من أحجار الجدار كنت ـ فى
الأوقات الأخرى ـ لا أكاد أقوى على رفعه .. بل إننى
أوشكت أن ألقى كذلك بمرآة كبيرة ، لو لم يردنى شخص ما
عن ذلك ! ولم يقبع الأسقف الطيب ـ الذى كان فى زيارة
«ماما» فى ذلك اليوم ـ خاملا ، بل إنه انتقل بها إلى الحديقة ،
حيث شرع يصلى معها ، ومع كل من كانوا هناك .. حتى إذا
وصلت إلى الحديقة بعد ذلك بقليل ، وجدت الجميع جاثين

على ركبهم ، فحذوت حذوهم . وفى أثناء صلاة الرجل التقى ، تغير اتجاه الريح فجأة ، وفى اللحظة المناسبة ، فاذا ألسنة اللهب التى كانت تحوط الدار والتى أخذت تسعى إلى النوافذ ، تتجه إلى الجانب الآخر من الفناء ، فلم يصب البيت بأى سوء !

وبعد ذلك بعامين — وكان السيد دى برنيكس ، الأسقف ، قد توفى — شرع الرهبان الانطونيون ، وهم زملاؤه السابقون ، فى جمع الأنباء التى يمكن استغلالها فى تطويبه(١) . واستجابة لرجاء الأب « بوديه » أضفت إلى تلك الأنباء شهادة بالواقعة التى ذكرتها ، والتى كنت فيها على صواب . ولكنى اخطأت إذ قدمتها على انها معجزة ! فلقد رأيت الأسقف وهو يصلى ، ورأيت الريح تتبدل اثناء صلاته ، وفى اللحظة المناسبة تماما .. وكان ينبغى أن اذكر هذا واشهد به . اما اى الأمرين كان سببا للآخر ، فهذا ما لم يكن ينبغى لى ان اشهد به ، لأننى لم اكن املك ان أعرفه . ومع ذلك فاننى — بقدر ما استطيع ان اذكر آرائى يومئذ — كنت كاثوليكيا مخلصا ، ومن ثم فقد كنت صادق الإيمان ، ولكن حب الغرائب الخارقة — وهو طبيعى فى فؤاد البشر — وتوقيرى لهذا الراهب الوقور ،

(١) التطويب فى المسيحية هو ان يعلن البابا — أو البطريرك لدى الارثوذكس — بان شخصا قد حظى بالتمجيد فى السماء ، فاصبح فى عداد القديسين — اذا كان ميتا — أو اقترب من القداسة ، اذا كان على قيد الحياة.

والزهو المستتر بأننى ربما كنت قد ساهمت بنفسى فى المعجزة ، ساعدت على تضليلى . أما الشىء المؤكد فهو انه إذا كانت تلك المعجزة نتيجة للصلاة الحارة ، فقد كان من حقى ان أطالب لنفسى بنصيب فيها !

وعندما نشرت « رسائل الجبل » — بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما — نقب السيد « فريرون » بطريقة ما عن هذه الشهادة ، واستغلها فى تعليقاته . وجدير بى أن اعترف بأن هذا الكشف كان موفقا ، وقد بدا لى إذ ذاك أن إعلانه فى تلك المناسبة كان أمرا سارا .

وكان مقدرا لى أن اكون طريد كل المهن . فمع ان السيد دى جاتييه رفع عن تقدمى فى الدراسة تقريرا اعتبرته اقل ما كان بوسعه أن يقدمه ، من حيث إساءته إلى ، إلا انه رؤى أن تقدمى لم يكن متناسبا مع مجهوداتى ، وأن هذا لم يكن مشجعا على المضى فى دراستى . ومن ثم فان الأسقف ورئيس المعهد فصلانى وردانى إلى مدام دى فاران كشخص لا يصلح ولو لأن يكون مجرد قس ؛ وإن كان — فيما عدا ذلك — فتى طيبا ، وخلوا من اية رذيلة ، كما قالا . وكان هذا هو السبب فى أنها لم تنبذنى ، برغم تعدد الأحكام المثبطة ضدى !

وأعدت إليها — مزهوا — كتابها الموسيقى الذى أخذت منه . وكان لحن « الفيه وأريثيز » هو كل ما تعلمت تقريبا —

فى المعهد الدينى . ولقد أوحى إليها ميلى الملحوظ إلى هـذا الفن ، بأن تجعل منى موسيقيا ! وكانت الفرصـة مواتية ، فقد كانت الموسيقى تعزف فى دارها مـرة فى الأسـبوع على الأقل . وكان رئيس فريق الكاتدرائية الموسيقى يدير هـذه الحفلات الصغيرة ، وقد اعتاد أن يتردد كثيرا على الدار . وكان باريسيا يدعى السيد « لوميتر » ، بارعا فى التلحين ، كثير النشاط ، مرحا جدا ، لا يزال شابا ، على قسط كبير من الملاحة ، ونصيب قليل من الذكاء . . لكنه كان ـ فى مجموعه ـ طيبا . وقد عرفتنى به « ماما » ، فملت إليه ، كما أنه لم ينفر منى . وبحث أمر الأجر ، وتم الاتفاق . وبإيجاز ، ذهبت إلى داره ، حيث قضيت أحب شتاء لدى ، إذ أن الدار لم تكن تبعد أكثر من عشرين ياردة عن منزل « ماما » ، فكان بوسعنا أن نكون إلى جانبها فى أية لحظة ، وكثيرا ما تناولنا عشاءنا معها .

ولابد أنكم أدركتم أن الحياة فى دار « لوميتر » ـ بما فيها من غناء دائم ، ومن صحبة الموسيقيين والأطفـال المنشدين «الكورس» ـ قد راقت لى أكثر من حياة المعهد الدينى مع رهبان القديس لازار . على أن هذه الحياة ، وإن كانت أكثر حرية ، إلا أنها لم تكن أقل نظاما . فقد روضت على حب الاستقلال دون أن أنسى استغلاله البتة. ففى ستة أشهر كاملة، لم أخرج مرة واحدة إلا لأذهب إلى بيت « ماما » أو إلى الكنيسة ، ومع

ذلك فإننى لم أشعر بشوق إلى الخروج . كانت تلك إحـدى فترات حياتى التى عشت خلالها فى أعظم دعة ، والتى أذكرها بأعظم اغتباط . فمن بين الأوضاع المتباينة التى وجدت نفسى فيها ، أوضاع امتازت بشعور من السكينة والدعة يجعلنى ـ حين أذكرها ـ أتأثر بهـا وكأننى ما أزال فيهـا . فلسـت أذكر الأوقات والأماكن والأشخاص فحسب ، وإنما أذكر كل الأشياء التى كانت تحيط بى ، وحرارة الجو ، وعبير الوسط ، ولونه ، وأى طابع محلى لا يوجـد إلا هنـاك ، بحيث تردنى ذكراه الحية إلى هناك من جديد ! . . مثال ذلك أن كل ما كان يتردد فى دار رئيس الفريق الموسيقى ، وكل ما كان الفـريق يترنم به ، وكل ما كان يحدث هناك ، وزى الشمامسة الجميل ، ومسوح القساوسة ، وتيجان المرتلين ، ووجوه الموسيقيين ، ونجار أعرج طاعن فى السن كان يعـزف على الكمان الكبير « الكونترباس » ، وراهب صغير أشقر يعزف على الكمـان العادى ، والرداء الكنسى المهلهل الذى كان السيد « لوميتر » يرتديه فوق لباسه المدنى بعد أن ينزع عنه سيفه ، والقميص الاكليروسى البـديع ، الرقيـق النسـيج ، الذى كـان يستر به الرداء البالى عندما يسعى إلى فرقة المرتلين ، والزهو الذى كنت أسير به ـ وأنا ممسك بصافرتى الصغيرة ـ لأتخذ مكانى مع العازفين على المنصة ، لأشترك فى ختام مقطوعة صغيرة لحنها السـيد « لوميتر » خصيصـا من أجلى . . ثم

الغداء الطيب الذى كان ينتظرنا بعد ذلك ، والشهية الملحوظة التى كنا نقبل بها عليه .. هذا التتابع الحافل ، الذى أتمثله ، قد فتننى — فى ذكره — أكثر مما فتننى فى الحقيقة مائة مرة ! ولقد احتفظت دائما بميل عاطفى للحن معين من «كونديتور آلمى سيديرم » يرافق شعرا من بحر الغمب(١) ، لأننى سمعته مرة — فى يوم احد الصوم الكبير — وأنا مستلق فى فراشى ، وكان يرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار ، وفقا لعادات تلك الكنيسة . ولقد كانت الآنسة « ميرسيريه » — وصيفة « ماما » — على دراية بقسط من الموسيقى . ولن أنسى البتة ارجوزة دينية صغيرة كان السيد « لوميتر » يحملنى على أن اغنيها معها ، فكانت سيدتها تصغى إليها فى طرب عظيم . وقصارى القول أن الجميع ، حتى الخادم الطيبة « بيرين » — وهى فتاة ساذجة اعتاد الفتية المرتلون أن يثيروا غيظها — هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين ذكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة ، التى كثيرا ما تتراءى لى لتطربنى وتحزننى !

وعشت فى (أنيسى) زهاء عام دون ما لوم ولا تثريب ، فقد كان الناس كلهم راضين عنى ، فاننى — مذ غادرت تورين — لم أرتكب حماقة ، وما كان لى أن أرتكب ما دمت تحت بصر

---

(١) بحر من الشعر الاعجمى تكون القافية فيه مؤلفة من كلمات ذات مقطعين .

« ماما » ، فقد كانت ترشدنى ، وكانت دائما تحسن إرشادى ، وأصبح تعلقى بها هو عاطفتى المشبوبة الوحيدة . ومما يدل على أنها لم تكن عاطفة رعناء ، أن قلبى كان يكون عقلى وإدراكى . ومن الصحيح أن ثمة إحساسا واحدا كان يبتلع — كما ينبغى أن يقال — كل مقدراتى وكفاءاتى ، فجعل فى غير استطاعتى أن أتعلم شيئا ، حتى الموسيقى ، بالرغم من أننى بذلت كل جهدى . على أنه لم يكن ذنبى !.. فقد كانت العزيمة الطيبة متوفرة على أتم وجه ، كما كانت المثابرة موجودة . ولكنى كنت شارد الذهن ، حالما .. فكنت أتنهد : ما الذى أملك أن أفعله ؟ لم يكن ينقص تقدمى شىء من الأشياء المتوقفة على أنا ، ولم أكن أحتاج — لكى أرتكب حماقات جديدة — إلى غير موضوع أو شخص « ملهم » يوحى إلى بهذه الحماقات !.. ولقد ظهر هذا الموضوع ، إذ تولت المصادفة تدبير الأمور ، وعرف رأسى الغبى كيف يستغل ذلك ، كما سترى مما يلى :

ففى إحدى أمسيات شهر فبراير البارد ، سمعنا طرقا على الباب الخارجى ، بينما كنا نحيط بالمدفأة . وحملت « بيرين » مصباحها ، وهبطت ففتحت الباب ، وإذا بشاب يدخل ، ويصعد معها ، ويقدم نفسه فى غير كلفة ، ويوجه إلى السيد « لوميتر » تحية قصيرة ، لبقة ، ويعلن أنه موسيقى فرنسى

دفعه سوء حالته المالية إلى أن يعرض خدماته على كنائس الابرشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطلاق فى طريقه . وإزاء هذه الكلمات من « الموسيقى الفرنسى » ، خفق قلب « لوميتر » الطيب ، فقد كان يتدله فى حب بلده وفنه . واحتفى بالمسافر الشاب ، وعرض عليه مأوى لليلته ، وهو ما كان يبدو فى أمس الحاجة إليه ، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة . واخذت اتفحصه وهو يتدفأ ويسمر فى انتظار العشاء . كان قصير القامة ، عريض المنكبين . وكان ثمة عيب ــ لم أدر كنهه ــ فى قوامه ، دون ما نقص معين أو تشويه محدد . كان ــ إذا صح التعبير ــ ذا ظهر محدودب ، مع استواء لوحى الكتفين ، كما أظن انه كان يعرج قليلا فى مشيته . وكان فى ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر اكثر مما أبلاه القدم ، فتهلهل .. وقميص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشى تزين صدره ، وطماقين (١) كان بوسعه أن يدس ساقيه معا فى أى منهما !.. كما كان يتقى الصقيع بقبعة صغيرة يستطيع أن يدسها تحت إبطه !.. ومع هذا الزى المضحك ، فانه كان على شىء من النبل لم تكن هيئته تكذبه . كانت طلعته رقيقة بشوشة ، وكان يتكلم بطلاقة

(١) « الطماق » وقاء يعلو الحذاء وبعض الساق ، وقد اشتهر باسمه الاعجمى « جيتر » أو « طزلك » .

ولباقة ، ولكن فى تواضع جم .. كان كل شىء فيه ينم عن شاب ماجن ــ وإن كان طيب التربية ــ لم يكن يستجدى كالمتسولين ، وإنما كالمجانين ! ولقد أنبأنا بأنه يدعى « فينتور دى فيينيف » ، وقد وفد من باريس ، وضل الطريق .. وانه نسى ، إلى حد ما ، دوره كموسيقى . واضاف أنه كان ذاهبا إلى (جرينوبل) ليقابل قريبا له عضوا فى البرلمان .

وأثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقى ، فأجاد الكلام عنها . كان يعرف كبار العازفين جميعا ، وكافة المؤلفين الذائعى الصيت ، وكل الممثلين ، وجميع الممثلات ، وحسان النساء طرا ، والسادة العظماء بأسرهم ! كان يبدو ملما بكل شىء يقال ، ولكن ما أن يثار موضوع ، حتى يحول عنه الانتباه ببعض الفكاهات التى تبعث على الضحك وعلى نسيان ما يقال !.. وكنا فى يوم السبت ، ومن المقرر أن نعزف فى الكاتدرائية فى اليوم التالى ، فاقترح عليه السيد لوميتر أن يشترك فى الغناء هناك .. « عن طيب خاطر ! » .. فسأله عن طبقة الصوت .. « الطبقة العليا » ، ثم مضى يتحدث عن شىء آخر !.. وقبل الذهاب إلى الكنيسة ، قدم إليه دوره ليطلع عليه ، فلم يلق عليه نظرة . واذهل تصرفه هذا « لوميتر » ، فهمس فى أذنى : « لسوف ترى أنه لا يعرف علامة واحدة من العلامات الموسيقية ! » . فأجبت « شـد

ما أخشى أن يكون كذلك » . ورحت أرقبه فى قلق ، حتى إذا بدىء الغناء ، خفق قلبى فى قوة كبيرة ، فقد كنت شديد الاهتمام به . وسرعان ما تبينت ما طمأننى ، إذ أنه غنى قطعتيه بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما ، وفوق ذلك ، بصوت بالغ الجمال . أبدا لم ألق مثل هذه المفاجأة المستحبة ! وبعد القداس ، تلقى السيد فينتور التهانى ، جزافا من الكهنة والموسيقيين ، فكان يجيب عنها متفكها ، ولكن فى كثير من الكياسة دائما. وعانقه السيد لوميتر بحرارة ، وكذلك فعلت أنا ، وقد أبصر أننى كنت مغتبطا ، فبدا أن هذا سره !

وإنى لواثق من أن القارىء سيقرنى على أننى وقد أولعت بالسيد باكل – الذى لم يكن برغم كل شىء سوى قروى جلف – كنت حريا بأن أشغف بالسيد فينتور الذى أوتى ثقافة وتربية ومواهب وذكاء وخبرة بالدنيا ، والذى كان من الممكن أن يوصف بأنه ماجن مستحب ! .. وكان هذا عين ما حدث لى ، وما أظن أنه كان حريا بأن يحدث لأى شاب آخر فى مكانى . بل إن سهولة حدوثه كانت خليقة بأن تزداد كلما كان المرء أسلم رأيا فى إدراك الكفاءة ، وكلما كان أشد استعدادا لأن يفتتن بها . فليس من شك فى أن « فينتور » قد أوتى كفاءة ، وكفاءة نادرة فى مثل سنه ، تلك هى عدم الاندفاع إلى الكشف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبرة . ومن الصحيح أنه كان

يتشدق بأشياء كثيرة لم يكن على علم بها ، ولكنه لم يكن يقول شيئا عن الأشياء التى كان على إلمام طيب بها ، والتى كانت كثيرة العدد .. وإنما كان ينتظر حتى تحين مناسبة لعرضها ، فاذا ما حانت انتهزها دون تلهف واندفاع ، فكان هذا يحدث أكبر الأثر . ولما كان يقف عقب كل موضوع ، فلا يحدث عما عداه ، لذلك لم يكن من سبيل إلى التكهن بالوقت الذى يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه .. كان فى حديثه مداعبا ، مرحا ، لا ينضب له معين ، ذا جاذبية خلابة .. يبتسم دائما ولا يضحك أبدا ، ويتكلم بأرق لهجة عن أشد الموضوعات جفافا ، فيجعلها مستساغة !.. حتى أشد النساء حياء كن يذهلن لما يتحملنه منه ، وكم شعرن بأن من الخليق بهن أن يظهرن له الغضب ، فلم يجدن القدرة على ذلك !.. ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات . ولست أعتقد أنه خلق ليكون ذا ثروة وجاه ، ولكنه خلق ليثير إيناسا ومرحا لا حد لهما فى مجالس أولئك الذين أوتوا الجاه والثراء ! وكان من العسير أن يبقى محصورا فى وسط الموسيقيين طويلا وهو الذى يملك مثل هذه المواهب المستحبة ، فى بلاد تقدرها وتحبها !

ولقد كان ميلى إلى السيد «فينتور» أكثر رشدا فى أسبابه ، وأقل انحرافا عن الصواب فى نتائجه ، بل وأكثر حرارة وأطول بقاء من حبى للسيد باكل !.. فلقد [illegible] ، وأن

أسمعه ، وكان كل ما يفعله يبدو لى رائعا ، وكل ما يقوله يبدو لى آيات منزلة ، ولكن افتتانى به لم يذهب إلى الدرجة التى لا أطيق معها فراقه . فلقد كان لى فى الجيرة وقاء عاصم من هذا الشطط (١) . وإلى جانب ذلك شعرت بأن مبادئه ، وإن كانت جد صالحة له ، إلا أنها لم تكن تصلح لى ، فلقد كنت أهفو إلى نوع آخر من المتع لم تكن لديه أية فكرة عنه ، بل أنه كان حريا بأن يسخر منى من أجله ! ومع ذلك ، فلقد وددت أن أربط هذا الود ، بذاك الذى كان يسيطر على . فتحدثت عنه إلى « ماما » فى وجد وحرارة ، كما أن « لوميتر » حدثها عنه فى إطناب ، فرضيت بأن يحضر إلى دارها . ولكن هذا اللقاء لم يكن موفقا على الاطلاق ، إذ أنه وجد « ماما » متحذلقة ، بينما وجدته هى ماجنا ، وخشيت على من مثل هذه المعرفة السيئة ، فلم تكتف بأن حرمت على إحضاره إلى الدار مرة أخرى ، بل أنها راحت تبين لى ـ بوضوح قوى ـ الأخطار التى أتعرض لها مع هذا الشاب ، حتى أننى ازددت تحفظا فى اندفاعى نحوه ، ولحسن حظ أخلاقى وإدراكى ، لم نلبث أن افترقنا بعد قليل !

* * *

كان للسيد « لوميتر » ما لأبناء فنه من ميول ، فكان يحب النبيذ .. على أنه كان يزهده إذا ما جلس إلى المائدة ، أما أثناء عكوفه على العمل فى مكتبه ، فقد كان لابد له من أن

(١) يقصد مدام دى فاران ، اذ كان بيتها مجاورا لدار السيد لوميتر .

يشرب . وكانت خادمته تعرف ذلك تماما ، فكان إذا ما أعد ورقه للتأليف ، وحمل كمانه ، لحقت به قنينة الشراب والكأس بعد لحظة !.. وكانت تستبدل بها قنينة أخرى مليئة بين آن وآخر ، فقد كان يكثر من النبيذ دون أن يثمل . وكان هذا فى الحق شيئا يدعو للرثاء ، إذ أن « لوميتر » كان فتى طيبا بفطرته ، وطروبا ، حتى أن « ماما » لم تكن تدعوه إلا بـ « قطى الصغير » !.. وكان ـ لسوء الحظ ـ مشغوفا بموهبته الموسيقية ، فكان يسرف فى العمل ، وبالتالى فى الشراب . وقد أثر هذا على صحته ، ثم على طباعه فى النهاية ، فكان فى بعض الأوقات كثير الهواجس ، سهل الاستثارة . وكان عاجزا عن أية خشونة أو غلظة ، عاجزا عن أن يقصر فى منح كل إنسان حقه من الاحترام ، فما قال يوما سبة ، ولو لصبى من المرتلين . وكذلك لم يكن أحد ليقصر فى احترامه وتقديره ، وكان هذا عدلا !.. ولكن سوء حظه تمثل فى أنه كان قليل الذكاء ، لا يميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات ، ومن ثم فكثيرا ما كان يتوهم الإساءة لغير ما سبب !

ولقد فقد مجمع أساقفة جنيف القديم ـ الذى كان كثير من الامراء والأساقفة يتشرفون بدخوله ـ بهاءه القديم ، فى مهجره ، ولكنه احتفظ بكرامته وكبريائه . فلابد دائما ـ للانضمام إليه ـ من أن يكون المرء من السادة ، أو من حاملى درجة الدكتوراه من « السربون » ، وإذا كان ثمة فخر مباح بعد ذاك المستمد من الكفاءة الشخصية ، فذاك هو الفخر المستمد من المولد . هذا إلى جانب أن كل الشمامسة الذين

أوتوا رجالا مدنيين فى خدمتهم ، كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفع والتعالى. وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون «لوميتر» المسكين فى كثير من الأحيان ، لا سيما المرتل الذى كان يدعى السيد الأب دى فيدون ، والذى كان فى كافة النواحى الأخرى موفور الأدب ولكنه شديد الزهو بنبل أصله ، فقد كان لا يولى « لوميتر » دائما حقه من التقدير الذى تؤهله له مواهبه ، ولم يكن هذا ليحتمل راضيا الغض من شأنه . ولقد وقع بينهما فى « أسبوع الآلام » ـ من ذلك العام ـ نزاع أشد احتداما من ذى قبل ، بسبب ترتيب الحضور فى مأدبة عشاء اعتاد الأسقف أن يقيمها لرجال الكنيسة ، وكان « لوميتر » يدعى إليها دواما. فقد أبدى له المرتل بعض الازدراء الصريح ، ووجه له كلمات قاسية لم يستطع أن يتحملها . ومن ثم فقد عقد العزم لفوره على أن يفر فى الليلة التالية . ولم يستطع شىء أن يثنيه ، برغم أن مدام دى فاران ـ التى ذهب إليها ليودعها ـ بذلت قصارى جهدها لتحوله عن عزمه . فما كان بوسعه أن ينزل عن لذة الثأر لنفسه من طغاته ، بأن يوقعهم فى مأزق فى عيد الفصح ، وهو الوقت الذى كانت تمس فيه الحاجة إليه . على أن ألحانه كانت أشد بواعث حيرته ، فقد أراد أن يحملها معه ، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة ، لأن الألحان كانت تملأ صندوقا كبيرا وعظيم الثقل ، بحيث لا يمكن حمله تحت الذراع .

ولقد فعلت « ماما » ما كان ينبغى أن تفعله ـ وما كنت أنا الآخر أفعله لو أننى كنت فى مكانها ـ فبعد كثير من الجهود غير المجدية لحمله على البقاء ، رأت أنه قد صمم على الرحيل

مهما يحدث ، فتحولت إلى التطوع لمساعدته فى كل ما يمكن أن يعتمد عليها فيه. وإنى لأجرؤ على القول بأن هذا كان واجبا عليها نحوه ، إذ كان « لوميتر » قد وقف نفسه ـ كما ينبغى أن يقال ـ لخدمتها . وكان رهن إشارتها تماما ، سواء فيما يتعلق بفنه ، أو فيما يحتاج إلى عنايته . وكان التحمس القلبى الذى اعتاد أن يبديه فى أداء رغباتها ، يضاعف من قيمة حرصه على إرضائها . ومن ثم فانها ـ بما أبدته من رغبة فى مساعدته ـ إنما كانت تؤدى لصديق ، فى مناسبة حرجة ، ما يقابل كل ما فعله من أجلها فى مناسبات كثيرة متفرقة ـ خلال ثلاث أو أربع سنوات ـ وإن كانت قد أوتيت نفسا لا تحتاج ، لكى تؤدى مثل هذه الواجبات ، إلى من يذكرها بأنها التزامات عليها . لذلك استدعتنى ، وأمرتنى بأن أرافق السيد «لوميتر» حتى (ليون) على الأقل ، وأن أظل ملازما له أطول وقت يكون فيه بحاجة إلى . ولقد اعترفت لى فيما بعد بأن الرغبة فى إقصائى عن « فينتور » كانت ذات شأن كبير فى هذا الإجراء . وتشاورت مع « كلود آنيه » ـ خادمها الأمين ـ بصدد نقل الصندوق ، فكان من رأيه أننا بدلا من أن نستأجر دابة لحمله من (أنيسى) ـ مما قد يعرضنا للافتضاح ـ يجب أن نتولى نحن حمل الصندوق إذا ما جن الليل ، إلى مسافة معينة ، ثم نستأجر حمارا من إحدى القرى لنقله إلى (سيسل) ، حيث نصبح على أرض فرنسية فلا نكون معرضين لأى خطر . وقد أخذنا بهذه النصيحة ، فرحلنا فى الساعة السابعة من مساء اليوم ذاته ، واتخمت « ماما » كيس نقود « القط الصغير » المسكين ، بمبلغ لم يكن عديم النفع له ، بحجة دفع نفقاتى .

وحمل كلود آنيه والبستانى وإياى الصندوق ــ بقدر ما استطعنا ــ حتى أول قرية ، حيث أعفانا منه حمار .. وبلغنا (سيسل) فى الليلة ذاتها .

واعتقد أننى أشرت من قبل إلى أن ثمة أوقاتا لا أشبه فيها نفسى فى شىء ، حتى لأبدو شخصا آخر ، ذا شخصية مخالفة لشخصيتى . وها كم مثالا لذلك : فان السيد « ريديليه » ــ راعى كنيسة سيسل ــ كان من قساوسة كنيسة القديس بطرس ، ومن ثم كان يعرف « لوميتر » ، كما كان من الذين ينبغى على هذا أن يتوارى عنهم . ولكنى رأيت نقيض ذلك ، فنصحت بأن نذهب فنقدم نفسينا إليه بحجة ما ، ونسأله مأوى لليلتنا ، وكأننا فى (سيسل) بموافقة من « المجمع » ! واستساغ « لوميتر » هذه الفكرة التى تجعل ثأره ساخرا ، لاذعا ، ومن ثم سعينا متجلدين إلى دار السيد « ريديليه » الذى أحسن استقبالنا . وذكر له « لوميتر » أنه كان فى طريقه إلى (بيلاى) بناء على طلب من الأسقف ، ليدير موسيقاها فى عيد الفصح ، وأنه يتوقع أن يعود بعد أيام قلائل . أما أنا فقد كان على ــ لكى أدعم هذه الأكاذيب ــ أن أسكب مائة أكذوبة أخرى ، بشكل طبيعى ، حتى أن السيد « ريديليه » ــ إذ رآنى فتى جميلا ــ أبدى لى الود وعانقنى ألف مرة . وحظينا بحفاوة طيبة ، وبمضجعين مريحين . ولم يدر السيد «ريديليه» إلى أى حد رفع قدرنا ، وافترقنا كأحسن أصدقاء فى العالم ، بعد أن وعدناه بأن نمكث وقتا أطول فى عودتنا . ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو إلى نفسينا لنطلق العنان لقهقهتنا . وأصارحكم أنى ما أزال أفعل الشىء ذاته كلما فكرت فى تلك

الحيلة ، فلست أتصور البتة حيلة ماكرة أكثر إحكاما ولا أسعد مصيرا منها . وقد كانت جديرة بأن تنعش نفسينا طيلة الرحلة ، لولا أن « لوميتر » ــ الذى لم يكف عن الشراب وعن التنقل بين حانات الريف ــ أصيب مرتين أو ثلاثا بنوبات كادت تقضى عليه ، وكانت شديدة الشبه بالصرع . وقد زج بى هذا فى مآزق أفزعتنى ، وحملتنى على التفكير فى الخروج من الأمر كله بقدر استطاعتى !

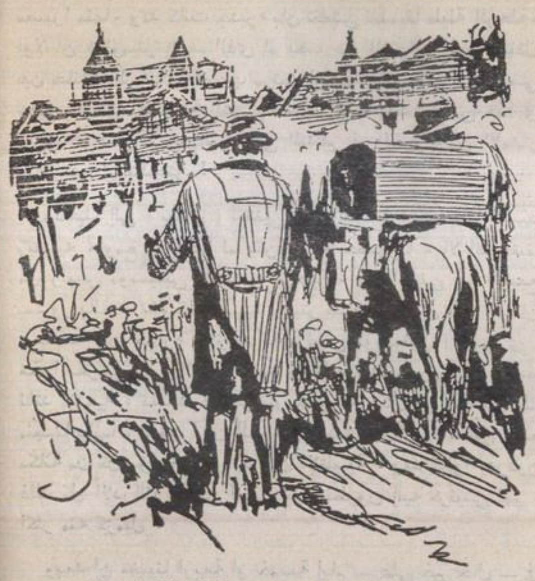
وذهبنا إلى (بيلاى) لنقضى عيد الفصح ، كما قلنا للسيد ريديليه ، ومع أن أحدا لم يكن يتوقع حضورنا ، إلا أننا لقينا من رئيس موسيقيى الكنيسة ترحيبا ، كما احتفى بنا الجميع بسرور بالغ . فقد كان للسيد لوميتر صيت ذائع فى فنه ، وكان يستحقه عن جدارة . ولقد تاه رئيس موسيقيى (بيلاى) فخرا بعرض أبدع ألحانه عليه ، وسعى للحصول على تقريظ ناقد مثله ، فقد كان لوميتر خبيرا ، وكان إلى جانب ذلك منصفا دائما ، متحررا من الغيرة ، بعيدا عن الرياء . كان أرفع مكانة من كل رؤساء فرق المرتلين الإقليمية ، وقد كانوا يدركون ذلك كل الإدراك ، حتى أنهم كانوا ينظرون إليه كرئيس لهم ، أكثر منه كزميل !

وبعد أن قضينا أربعة أو خمسة أيام ــ على خير حال ــ فى (بيلاى) ، استأنفنا الرحيل ، ومضينا فى طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التى ذكرتها من قبل . وإذ بلغنا (ليون) ، نزلنا فى فندق « نوتردام دى بيتييه » . وفيما كنا ننتظر وصول الصندوق ــ الذى استطعنا بفضل أكذوبة أخرى أن نرسله

على مركب فى نهر (الرون) بمعونة راعينا الطبيب : السيد ريديليه ـ ذهب السيد لوميتر لزيارة معارفه ، ومنهم الأب كاتون ، (أحد الرهبان السمر ، وسوف يرد ذكره فيما بعد) ، والراهب دورتان ، كونت دى ليون . وقد تلقاه الاثنان فى إكرام ، ولكنهما غدرا به فيما بعد ، كما سيتبين القارىء فى الحال . فلقد نفد حسن حظه فى دار السيد ريديليه !

بعد يومين من وصولنا إلى (ليون) ، كنا نجتاز شارعا صغيرا ، بالقرب من فندقنا ، وإذا لوميتر يصاب باحدى نوباته ، وكانت من العنف بدرجة أفزعتنى ، فرحت أصيح واصرخ مستنجدا ، وذكرت اسم الفندق ، راجيا نقله إلى هناك . وبينما التف الناس حوله ، متحمسين لمعونة رجل سقط فى الطريق فاقد الوعى وقد أخذ الزبد يفور على فمه ، إذا به يمنى بهجر الصديق الوحيد الذى كان من حقه أن يعتمد عليه . إذ أننى انتهزت اللحظة التى لم يكن فيها أحد يفكر فى أمرى ، وتسللت حول ركن الشارع ، ثم اختفيت . وإنى لأحمد السماء إذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث . ولو كان لدى كثير من هذا النوع ، لهجرت هذا المؤلف الذى بدأته .

لقد بقيت آثار من كل الذى ذكرته حتى الآن ، فى الأماكن التى عشت فيها ، ولكن الذى سأورده فى الكراسة التالية ، يكون مجهولا تماما .. إنها أعظم حماقات حياتى ، وقد كان من حسن الحظ أنها لم تفض إلى نهايات أسوأ مما انتهت إليه . ولكن رأسى كان قد فقد اتزانه ، ثم استرده من تلقاء ذاته ، وإذ ذاك كففت عن الحماقات ، أو انتى لم أعد أرتكب منها



ومضينا فى طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التى ذكرتها من قبل ..

سوى ما هو أكثر ملاءمة لطبيعتى ! وهذه الفترة من شبابى هى إحدى الفترات التى تضطرب ذكراها فى رأسى ، إذ أنه لم يمر بى خلالها من الأحداث شىء مشوق لقلبى بدرجة تكفى لأن أحتفظ له بذكرى واضحة . ومن ثم فمن العسير ألا ارتكب بعض أخطاء أخلط فيها بين الأزمنة أو الأماكن ، أثناء مثل هذه الروحات والغدوات ، وفى خلال التطورات العديدة المتتابعة .. إننى أكتب معتمدا على ذاكرتى تماما ، دون ما مذكرات ، ودون ما مواد تعيننى على التذكر .. وفى حياتى أحداث لا تزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها ، ولكن هناك كذلك ثغرات وفراغات لا أملك أن أملأها إلا بروايات مهوشة كتلك الذكريات المتبقية لها . ومن ثم فاننى معرض للخطأ أحيانا ، كما أننى قد أرتكب الخطأ ثانية — فى مسائل غير مهمة — إلى أن يحين الوقت الذى أملك فيه عن نفسى معلومات أوثق . أما فى كل ما له أهمية حقيقية من الموضوعات ، فاننى مطمئن إلى دقتى وأمانتى ، اللتين سأحرص عليهما دائما فى كل شىء .. والقارىء أن يثق من ذلك .

* * *

ما أن غادرت السيد لوميتر ، حتى استقر عزمى ، فكررت عائدا إلى (انيسى) . وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا إلى درجة كبيرة ، من أجل سلامة إقامتنا . وقد صرفنى هذا الانشغال — الذى استغرق كل اهتمامى — أياما عن التفكير فى العودة . على أن الشعور بالسلامة لم يكد يعفينى من القلق ، حتى عاد وجدى إلى سيطرته وسلطانه ، فلم يهف بقلبى أو

يغرينى شىء سوى أن أعود إلى « ماما » . كان صدق تعلقى بها ورقته قد اجتثا من فؤادى كل حماقات الطموح ، ولم أعد أرى سعادة إلا فى العيش معها ، ولا سرت خطوة دون أن أشعر بأننى كنت أبتعد عن هنائى . ومن ثم عدت إليها بأسرع ما كان ممكنا . وكان سفرى متعجلا ، وذهنى شاردا ، إلى درجة أننى وإن كنت أذكر بكثير من السرور رحلاتى الأخرى ، فلست أملك أتفه ذكرى لهذه الرحلة ، اللهم إلا مغادرتى ليون ووصولى إلى (انيسى) .. ومنذا الذى يتصور أن تخبو هذه الأخيرة من ذهنى !.. فعند وصولى ، لم أجد مدام دى فاران .. كانت قد رحلت إلى باريس !

ولم يقدر لى قط أن أعرف سر هذه الرحلة .. ولقد كانت هذه السيدة خليقة بأن تذكره لى ، لو أننى ألححت ، فهذا ما أثق منه كل الثقة . ولكن أحدا لم يكن قط أقل منى فضولا إزاء أسرار الأصدقاء ، إذ أن قلبى لا يفعم بغير الحاضر ، وهو يمتلىء به تماما ، فلا يبقى فيه ركن خال لأى شىء من الماضى ، فيما عدا المتع السالفة ، التى تؤلف بعد ذلك لذتى الوحيدة !.. على أن الذى أتخيله — من القليل الذى أنبأتنى به « ماما » — هو أن الثورة التى قامت فى (تورين) بسبب نزول ملك سردينيا عن عرشه ، جعلتها فى خوف من أن تغدو منسية ، فشاءت — بفضل حيل السيد دوبون — أن تسعى للحصول على نفس ما كان لها من امتيازات ، من بلاط فرنسا الذى كانت كثيرا ما تقول لى أنها تفضله على بلاط ملك سردينيا ، لأن المرء — فى غمرة الشئون الهامة الكثيرة التى يشغل بها ذلك البلاط

الفرنسى ـ لا يظل تحت رقابة صارمة . . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الغريب حقا أنها لم تقابل ـ عند عودتها ـ بوجوه عابسة ، وأنها ظلت تستمتع بمعاشها باستمرار ، ودون انقطاع . ولقد اعتقد كثير من الناس أنها كانت مكلفة بمهمة سرية : إما من قبل الأسقف ـ الذى كانت له بعض شئون فى البلاط الفرنسى ـ وإما من قبل شخصية أعظم سلطانا ، كانت تعرف كيف تضمن لها عودة سعيدة ! . والمؤكد ـ إذا كان الأمر كذلك ـ أن اختيار مدام دى فاران كرسول ، لم يكن بعيدا عن الصواب ، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لإنجاح اية مفاوضات ، سيما وانها كانت لا تزال شابة . . وجميلة !

الكراسة الرابعة

٦ ـ من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وصلت فلم أجدها ، فتصور مدى دهشتى وأساى ! . . إذ ذاك ، بدأ ندمى على التخلص من السيد « لوميتر » يتخذ شكلا محسوسا ، لم يلبث أن ازداد حدة عندما سمعت بما أصابه من نحس ، فان الصندوق الموسيقى الذى كان يحتوى على كل ثروته . . هذا الصندوق الثمين الذى أنقذ بكثير من العناء ، انتزع منه عند وصوله إلى (ليون) ، بناء على أمر الكونت « دورتان » الذى كتب إليه مجمع القساوسة يطلعه على التهريب . . وعبثا طالب « لوميتر » بثروته ، بوسيلة معاشه ، بنتاج عمله طيلة العمر ! وكانت ملكية الصندوق تستحق أن تكون موضوع نزاع قضائى على الأقل ، بيد أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حسم الأمر فى الحال ـ بحكم قانون الأقوى ! ـ وبهذا فقد « لوميتر » المسكين ثمرة مواهبه . . جهد شبابه ومعين شيخوخته !

ولم يكن ينقص الضربة التى تلقيتها شىء كى تصبح مضنية ، ولكنى كنت فى سن ليس للأحزان فيها قبضة تذكر ، فسرعان ما ابتدعت لنفسى أسباب العزاء . . فرحت أتوقع أن أتلقى عما قريب أنباء من مدام «فاران» ، برغم أننى لم أكن أعرف عنوانها ، كما كانت هى تجهل أننى رجعت . . أما بصدد التخلى عن السيد « لوميتر » ، فاننى بعد التأمل فى هذا الأمر لم أجد فيه ذنبا بالغا ، فلقد كنت نافعا له فى فراره ، وهذه هى الخدمة

الوحيدة التى كانت تتوقف على . ولو اننى بقيت معه فى فرنسا لما شفيته من علته ، ولما انقذت صندوقه ، ولما فعلت سوى ان أضاعف نفقاته دون ان املك له نفعا .. هكذا رأيت الأمر ، إذ ذاك ، وإن كنت أراه اليوم على النقيض . فان التصرف الخسيس لا يكربنا عند ارتكابه ، وإنما يصبح مصدر هم لنا عندما نذكره بعد وقت طويل ، لأن ذكراه لا تخمد قط !

وكان الدور الوحيد الذى استطعت أن اقوم به للحصول على أنباء « ماما » ، هو أن انتظر ، وإلا فأين كنت ابحث عنها فى باريس ، وبأى نفقات كنت اقوم بالرحلة ؟ لم يكن ثمة مكان اكثر ضمانا من (انيسى) لمعرفة مقرها ، إن عاجلا أو آجلا . ومن ثم فقد مكثت بها ، ولكنى أسأت التصرف إلى حد كبير ، إذ اننى لم أذهب إطلاقا لزيارة الأسقف الذى كفلنى من قبل — والذى كان بوسعه ان يكفلنى من جديد — فان راعيتى لم تعد على مقربة منه ، وقد خشيت اللوم منه على ذلك الهرب . وكذلك لم اعد اذهب إلى المعهد الدينى ، إذ ان السيد «جرو» لم يعد هناك .. ولم أر أحدا من معارفى ، وإن كنت قد تمنيت ان اذهب لزيارة زوجة وكيل الإدارة ، لولا اننى لم اجرؤ قط !.. بل إننى ارتكبت ما هو أسوأ من كل هذا ، فقد سعيت إلى السيد « فينتور » ، الذى لم افكر فيه البتة منذ رحيلى ، برغم شغفى به ، فوجدته متألقا مكرما فى (انيسى) بأسرها ، والنساء يتزاحمن عليه ! وقد افقدنى هذا التوفيق حجاى تماما ، فلم اعد أبصر سوى السيد « فينتور » ، بحيث أوشك ان ينسينى « مدام دى فاران » . ولكى افيد من دروسه بمزيد

من اليسر ، عرضت عليه أن يشركنى معه فى مسكنه ، فوافق . وكان يسكن لدى إسكافى لطيف مهذار ، لم يكن يطلق على زوجته — بلهجته الريفية — سوى « العاهرة » ، وهو اسم كانت أهلا له ! وكانت له معها مشاجرات اعتاد «فينتور» أن يسعى لإطالتها وهو يتظاهر بالرغبة فى أن يفعل العكس . إذ كان يوجه إليهما — بلهجة هادئة ، وبلكنته الإقليمية — كلمات تحدث أعظم أثر .. وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشيا عليه لفرط الضحك !.. وهكذا كانت فترات الصباح تنقضى دون أن يفطن إليها المرء . فاذا كانت الساعة الثانية او الثالثة ، تناولنا لقمة ، ثم يذهب « فينتور » إلى الأوساط التى كان يغشاها ، حيث يتناول عشاءه .. اما انا فكنت اتمشى وحيدا ، مفكرا فى براعته البالغة ، وانا اعجب بمواهبه الفذة واغبطه عليها ، لاعنا طالعى المنحوس الذى لم يكن يفضى بى إلى مثل هذه الحياة الهانئة !.. آه ! ما اقل ما كنت اعرفه عن الحياة الهانئة ! إن حياتى بالذات كانت خليقة بأن تكون اكثر بهجة مما كانت مائة مرة ، لو اننى كنت أقل غباء ، ولو عرفت كيف أستمتع بهذه الحياة على نحو افضل !

ولم تكن مدام دى «فاران» قد صحبت معها سوى «أنيه» ، بينما تركت « ميرسيريه » وصيفتها التى تحدثت عنها من قبل ، والتى وجدتها تشغل مخدع سيدتها . وكانت الآنسة «ميرسيريه» فتاة تكبرنى قليلا ، ليست بالجميلة ، ولكنها مقبولة الشكل .. فتاة طيبة من بنات (فريبورجوا) بريئة من الخبث ، ما عرفت لها من عيب سوى انها كانت فى بعض الأحيان —

تعصى سيدتها . فأخذت أكثر من زيارتها ، إذ أنهـا كانت من المعارف القدامى ، وكان مرآها يذكرنى بمن كانت اعز منهـا لدى ، وبمن أحببتها من أجلها . وكانت لها صديقات عديدات بينهن آنسة تدعى « جيرو » ، من بنات (جنيف) ، شاعت أن تهوانى ، برغم نقائصى . فكانت تلح دائما على « ميرسيريه » أن تصطحبنى إلى دارها . وقد تركتها تفعل لاننى كنت احبها ـ اعنى ميرسيريه ـ ولأننى كنت أجد هناك فتيات أخريات أرتاح إلى رؤيتهن . أما عن الآنسة جيرو ـ التى كانت تبدى لى كل الوان المضايقات ـ فلم يكن لدى إنسان ما يفوق النفور الذى كنت احسه نحوها !.. كنت أجد عناء ـ إذا ما قربت من وجهى أنفها الأعجف الأسود الملوث بالسـعوط ـ فى أن اكبح نفسى عن البصق عليه ! بيد أننى تشبثت بالصبر ، إذ كنت إلى جوارها انعم كثيرا بالوجود وسـط هؤلاء الفتيات اللائى كن يتبارين فى الاحتفاء بى ، إما بدافع التملق للآنسـة جيرو ، أو التقرب إلى شخصيا . ولم اكن أرى فى كل هـذا صداقة . ولقد تراءى لى فيما بعد انه كان فى وسعى ان ارى ما يزيد على الصداقة ، ولكن هـذا لم يخطر ببالى ، ولا انا اوليته اى تفكير !

وإلى جانب ذلك ، فان الحائكات والوصيفات وعاملات المتاجر لم يكن يستهويننى البتة ، وإنما كنت أصبو إلى الآنسـات الراقيات !.. إن لكل امرىء أحلامه الخيالية ، وقد كانت تلك احلامى دواما . ولسـت أرى فى ذلك ما رآه « هوراس » . على أنه من المؤكد ان ابهة المكانة والمنصب لم تكن هى التى

تجتذبنى ، وإنما كانت تفتننى بشرة مصـونة بعناية ، ويدان جميلتان ، وزينة بديعة ، وجو من الرقة والطهر يشمل الشخص بأكمـله ، وذوق ضـاف فى الحـركة والقـول ، وثـوب غال بديع الصنع ، وحذاءان صغيران ، واشرطة و «دانتيلا» : وشعر أنيق التصفيف .. وقد اعتقدت دائمـا ان افضـل من أوتيت كل هذا ، ولو كانت اقل الفتيات جمالا (.. والواقع أننى انا نفسى أرى فى هذا التفضيل امرا يدعو إلى الضحك ، ولكن قلبى يهفو إليه على الرغم منى !

***

حسنا !.. لقد سنحت لى هـذه الميزات مرة أخـرى ، ولم يكن على سوى أن أستغلها . لكم أحب أن اقع ـ من آن إلى آخر ـ على اللحظات البهيجة فى شبابى !.. ما كان احلاها لى ، وما كان اقصرها واندرها !.. ولقد استمتعت بها بابخس الأثمان !.. آه ! إن مجـرد تذكـرها يثير من جديد فى قلبى نشوة طاهرة أنا فى مسيس الحاجة إليهـا لتجديد جراتى ، ولدرء الهجوم عن بقية سنى حياتى !

ففى ذات صباح ، بدا لى الفجـر من الجمال بحيث أننى ارتديت ثيابى فى عجلة ، وأسرعت إلى الخلاء لأشهد شروق الشمس . واستمرات عذه المتعة بكل فتنتها ، وكان ذلك فى الأسبوع التالى لعيد القديس يوحنا ، والأرض فى أبهى زينتها ، وقد كساها العشب والزهور .. وكانت البلابل قد أوشكت على نهاية تغريدها ، فبدا أنهـا كانت [illegible] الإمعان فى

إطلاق أصواتها .. بل إن الطيور جميعا راحت تشدو مودعة الربيع ، متغنية بمولد يوم بديع من أيام الصيف .. يوم من تلك الأيام الجميلة التى لم يعد المرء يراها فى سنى هذه ، والتى لا يراها المرء إطلاقا فى هذه البلاد الكئيبة التى أقيم فيها اليوم (١) .

وابتعدت عن المدينة دون ان اشعر . واشتدت حرارة الشمس ، فرحت أسير تحت ظلال أشجار واد صغير على ضفة غدير . ثم سمعت خلفى وقع حوافر جياد ، وصوت فتاتين بدا أنهما كانتا فى محنة ، وإن راحتا تقهقهان من أعماقهما . والتفت ، فإذا نداء باسمى ينبعث ، فاقتربت .. ووجدت فتاتين من معارفى ، هما الآنسة دى « جرافينرييه » والآنسة دى « جالى »، اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير ، لأنهما لم تكونا فارستين ماهرتين . وكانت الآنسة « دى جرافينرييه » شابة من (بيرن) ذات ملاحة طاغية ، وقد طردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذى تتسم به سنها ، فحذت حذو مدام دى « فاران » ــ التى كانت تتردد على دارها لماما ــ على أنها لم تكن ذات مورد للعيش ، فلم تملك سوى ان تغتبط بأن تربط نفسها بالآنسة دى «جالى» التى شعرت بمودة نحوها ، فأغرت أمها على السماح لهذه الرفيقة بأن تقيم معها ريثما تجد عملا . وكانت الآنسة دى جالى تصغر زميلتها بعام ، كما كانت تفوقها حسنا . كانت

(١) كان « روسو » وهو يكتب هذا الجزء من اعترافاته يعيش فى (ووتون) بمقاطعة (ستراففورد شاير) بانجلترا .

على قدر من الرقة والترفه لا قبل لى بوصفه ، وكانت فى الوقت ذاته دقيقة القسمات ، بديعة القوام ، أوتيت من الفتنة أكبر قسط يمكن ان تحظى به فتاة !.. وكانت كل منهما مشغوفة بالأخرى حبا ، ولم تكن طيبة نفسيهما إلا عاملا على تمكين هذا الود من أن يبقى طويلا ، دون أن يقوى أى عاشق على تعكيره !

وقالت لى انهما كانتا تقصدان (تون) ، القصر العتيق الذى كانت تمتلكه السيدة جالى ـ والدة الفتاة ـ ثم طلبتا مساعدتى فى حمل الجوادين على عبور الجدول ، الأمر الذى لم تقويا عليه . وهممت بأن أسوط الجوادين ، ولكن الفتاتين أشفقتا على من الركلات ، وعلى نفسيهما من الوقوع .. لذلك عمدت إلى حيلة أخرى ، فأخذت بمقود جواد الآنسة دى جالى ، ثم جررته خلفى ، وخضت الجدول الذى وصل ماؤه إلى ركبتى .. وإذ ذاك تبعنا الجواد الآخر دون عناء . وإذ تم ذلك ، هممت بأن أحيى الآنستين ثم أمضى فى طريقى كأى أحمق ، ولكنهما تبادلتا بضع كلمات بصوت خفيض ، ثم خاطبتنى الآنسة دى جرافينرييه قائلة : « لا ، لا .. ما هكذا يفلت المرء منا ! لقد أصابك البلل وأنت تؤدى لنا خدمة ، فأصبح من واجبنا ــ نحو ضميرنا ــ أن نعنى بك حتى تجف .. فخليق بك ــ إذا تكرمت ــ أن تأتى معنا ؛ إذ إنك أسيرنا ! » .

وخفق قلبى ، وتطلعت إلى الآنسة جالى ، فأضافت وهى تضحك لما بدا على من ارتباك : « أجل ، أجل .. أسير حرب! اركب خلفها ، فنحن مسئولتان عنك ! » .. فقلت محتجا : « ولكن ، يا آنسة .. إننى لم أحظ بشرف التعرف إلى أمك ،

فماذا ترينها قائلة إذا ما راتنى ؟ » .. واجابت الآنســة دى جرافينريبيه : « إن امها ليست فى (تون) ، فقد جئنا وحدنا ، وسنعود فى المساء ، وبوسعك أن تعود معنا ! » .

وما كان للكهرباء أن تحدث فى كيانى تأثيرا اسرع مما احدثته هـذه الكلمات .. فقفزت إلى صـهوة جواد الآنســة دى جرافينريبيه وانا ارتجف غبطة . وكنت كلما اضطررت إلى أن احيط خصرهـا بذراعى لأحفظ توازنى ، خفق قلبى بعنف لم تلبث أن لاحظته ، فقالت إن قلبها ـ هو الآخر ـ كان يخفق ، لأنها كانت فى خوف من الوقوع !.. وكان قولها ـ فى مثل هذا الموقف ـ بمثابة دعوة لى كى اتحرى بنفسى صدقه ، ولكنى لم أجرؤ قط !.. ولقد ظلت ذراعاى ـ طيلة الرحلة ـ تحيطان بها إحاطة الحزام المشدود ، ولكنه حـزام لم يتزحزح عن موضعه لحظة !.. وكم من امرأة ممن يقرأن هذا ، تحس من نفسها رغبة فى أن تعرك اذنى .. ولن تكون مخطئة فى ذلك !

واطلق بهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لسانى ، فلم نسكت حتى المساء . بل إننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معا ! ولقد استطاعتا أن تسريا عنى الحرج ، فاذا لسانى لا يقل نشاطا عن عينى ، وإن اتخذ أسلوبا غير اسلوبهما . ولم يكن الحديث يتوتر قليلا إلا فى بضع لحظات كنت أجد نفسى فيها على انفراد مع إحدى الشابتين ، ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود ، دون أن تسمح لنا بوقت نتحرى فيه سبب ارتباكنا !

وما أن بلغنا (تون) ، وجفت ثيابى ، حتى تناولنا الفطور . وكان لابد بعد ذلك من الانصراف إلى المسألة الهـامة : مسألة

إعداد الغداء . فكانت الشابتان تتوقفان من حين إلى آخر ـ وهما عاكفتان على الطهو ـ لتقبلا ابناء حارسة المزرعة .. بينما كان غاسل الأطباق المسكين ـ انا ! ـ يحملق فيهما ويكبح جماح نفسه ! وارسلتا إلى المدينة فى طلب المؤن وكل ما يكفى لغداء شهى ، لا سيما الحلوى . ولكنهما نسيتا النبيذ لسوء الحظ ! ولم يكن هذا النسيان بمستغرب من فتاتين لا تشربان الخمر قط ، بيد أننى استأت إذ كنت اعـول على معونته فى استمداد الجرأة . ولقد استاءتا هما الأخريان كذلك ، ولعل استياءهما كان لنفس السبب ، وإن كنت لا أظن ذلك . وكان مرجهما العارم الفاتن هو البراءة ذاتها ! وإلا فماذا كانتا تملكان أن تفعلاه بى فيما بينهما ؟!.. ولقد ارسلتا فى البحث عن نبيذ فى كافة البقاع المجاورة ، فلم يعثر على شىء منه البتة ، إذ كان أهل تلك المقاطعة فقراء لا يقربون الخمر . وإذ راحتا تعربان لى عن أسفهما ، قلت لهمـا أن لا داعى لأن تتجشما هـذا العناء ، وإنهما لم تكونا بحاجة إلى نبيـذ لكى تسكرانى !.. وكانت هذه هى المجاملة الوحيدة التى جرؤت على قولها طيلة النهار . على أننى اعتقد أن الماكرتين قد شهدتا بجلاء كاف أن هذه المجاملة كانت صادقة !

* * *

وتناولنا غداءنا فى مطبخ المزرعة ، وقد جلست الصديقتان على مقعدين طويلين (دكتين) إلى جانبى المـائدة ، وضيفهما بينهمـا ، على مقعـد مخفض، ذى ثـلاث قوائم . ويا له من غداء !.. اية ذكرى طافحة بالمفاتن ! ولمـاذا يسعى المـرء وراء ملاه أخرى ، إذا كان بوسعه أن يحظى بمسرات فى طهر

هذه وصدقها ، بأبخس الأثمان !؟.. ابدا ما قدر للوجبات فى
منازل باريس الصغيرة ان تدانى هذه الوجبة . ولست اقول
هذا عن بهجتها فحسب ، ولا عن طربها فحسب ، بل اقوله
عن نشوتها الحسية كذلك !

وعمدنا بعد الغداء إلى شيء من الاقتصاد ، فبدلا من ان
نحتسى القهوة التى تبقت من الافطار ، احتفظنا بها لنتناولها
مع القشدة والفطائر التى احضرتها الفتاتان معهما . ولكى
نرضى شهيتنا ، ذهبنا إلى البستان لنتخذ من « الكريز » حلوى
نختتم بها وجبتنا . فتسلقت الشجرة ورحت القى للفتاتين
بعناقيد من الثمار ، بينما كانتا تردان إلى البذور (النويات)
خلال الأغصان . وحدث فى إحدى المرات أن بسطت الآنسة
جالى مرولتها ، وطوحت براسها إلى الخلف ، وثبتت فى مكانها،
فما كان منى إلا ان احكمت الرماية وانا القى بعنقود من
الكريز ، فهوى فى صدرها !.. وانطلقت الضحكات !..
وقلت لنفسى : « ليت شفتى كانتا من الكريز !.. لكم انا على
استعداد لان ارمى بهما إلى نفس المكان عن طيب خاطر ! ».

وهكذا انقضى النهار فى مرح استرسلنا فيه بأقصى تحرر ،
مع التزام اقصى حدود الاحتشام على الدوام !.. فما من كلمة
مبهمة تحتمل تأويلا ، ولا ملحة (نكتة) شاردة .. ولم يكن هذا
الاحتشام يثقل علينا البتة ، بل إنه كان ينساب من تلقاء نفسه،
وكنا نصدر فى افعالنا واقوالنا عن إيحاء قلوبنا !.. وقصارى
القول انه بلغ من حيائى ـ الذى قد يسميه الغر غباء ! ـ ان
اقصى مغازلة افلتت منى هى أن قبلت يد الآنسة جالى مرة

واحدة ! والحق أن الظروف أسبغت على هذه النعمة قيمة
خاصة ، إذ كنا وحيدين ، وكانت أنفاسى تنبعث فى تهدج ، كما
كانت عيناها منكستين .. وبدلا من ان يجد فمى قولا ، إذا به
يلتصق بيدها التى لم تلبث الفتاة أن سحبتها فى رفق ـ بعد
ان انطبعت عليها القبلة ـ وهى ترمقنى بنظرة لم تنم عن أى
انفعال .. ولست ادرى ما كنت خليقا بأن اقوله للفتاة ، لولا
ان اقبلت صديقتها على الغرفة ، فلاحت لى ـ فى تلك
اللحظة ـ بالغة الدمامة !

واخيرا ، فطنت الفتاتان إلى انه لا ينبغى التريث فى العودة
إلى المدينة حتى يهبط الليل . ولم يكن قد تبقى من النهار
سوى الوقت الذى يمكننا من العودة ، فأسرعنا بالرحيل ،
بنفس النظام الذى كنا عليه فى المجىء . ولو أننى وجدت
جراة ، لكنت قد غيرت هذا النظام ، إذ أن نظرة الآنسة جالى
كانت قد أثارت فؤادى .. بيد أننى لم أجسر على أن اقول
شيئا ، ولم يكن مما يليق بها أن تقترح هى هذا التغيير ! ورحنا
نقول ـ خلال انطلاقنا ـ إن اليوم قد انقضى سراعا ، ولكنا
بدلا من أن نشكو من قصره ، أجمعنا على أننا أوتينا معجزة
إطالته بفضل أسباب اللهو التى عرفنا بها كيف نملؤه !

وفارقتهما عند البقعة التى التقطتانى عندها ، تقريبا ..
ولكن ، بأية حسرة افترقنا ! وبأى سرور رسمنا الخطة للقاء
آخر !.. إن الاثنتى عشرة ساعة التى قضيناها معا بدت لنا
قرونا لفرط الألفة ! وإن الذكرى العذبة التى اقترنت بذلك
اليوم لم تكبد الشابتين اللطيفتين شيئا ، ولكن الوحدة الحنون

التى ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل فى قيمتها متعا اكثر بهجة واحتداما .. متعا لم يكن لها بقاء فى ظـلال تلك الرابطة . فلقد تحاببنا فى غير ما استخفاء ولا استحياء ، وكنا راغبين فى ان نتحاب دائما بهذا الشكل . وان لسذاجة الخلق لنشوتها التى تعادل تماما اية نشوة اخرى ، لأنهـا لا تعرف راحة ، ولا تفتأ تحتدم باستمرار !

اما بالنسبة لى ، فانى ادرك ان ذكرى مثل هذا اليوم اكثر تأثيرا فى نفسى ، وفتنة لى ، وترددا على فؤادى من ذكرى اية متعة تذوقتها فى حيـاتى ! وما كنت ادرى تماما ما الذى كنت ابتغيه من الفتاتين الساحرتين ، ولكنهما اطربتانى معـا كل الطرب . ولست اقول إن قلبى كان خليقـا بأن ينقسم بينهما قسمة عادلة ، لو قدر لى ان اسـيطر على امورى ، فقـد احسست بشىء من الإيثار والتفضيل : كان يسعدنى ان احظى بالآنسة جرافينرييه عشيقة ، ولكننى لو خيرت لآثرت ـ فيما اعتقد ـ ان اتخذها صديقة حميمة ! وسواء كان هذا او ذاك ، فقد بدا لى إذ فارقتهما اننى لم اعد اقوى على الحياة بدونهما معا . فمن كان منبئى بأنه لم يكن مكتوبا لى ان اراها فى حياتى مرة اخرى ، وان هـذه كانت نهاية حبنا الذى لم يعمر سوى يوم واحد !

إن الذين يقراون هـذه السطور لن يتمالكوا انفسهم من الضحك من مغامراتى الغرامية ، وملاحظة ان اكثرها تطورا كانت تنتهى ـ بعد كثير من التمهيدات ـ بقبلة على اليد !.. ولكن ، لا تغتروا يا قرائى ! فلعلنى نعمت من تلك الغراميات

ـ التى كانت تنتهى بهذه القبلة على اليد ـ بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم فى غرامياتكم التى قد تبدأ بمثل هذه القبلة !

* * *

وعاد « فينتور » إلى البيت بعد عودتى بقليل ، إذ كان قد تأخر كثيرا فى الذهاب إلى مضجعه فى الليلة السابقة . وفى هذه المرة ، لم اشعر بسرور لرؤيته كمالوف عادتى ، كما اننى كتمت عنه النهج الذى قضيت عليه يومى . فان الآنستين كانتا قـد تحدثتا إلى عنه بشىء من الازدراء ، وبدا لى انهما استاءتا إذ علمتا اننى كنت فى مثل هذه الرعاية السيئة . فنال هـذا من مكانته لدى ، سيما وان كل ما كان يشغلنى عن التفكير فيهما بدا لى غير مستحب . على ان فينتور ما لبث ان ردنى إلى نفسى وإليه ، بأن اخذ يتكلم عن موقفى ، إذ غدا احرج من ان يستمر . فمع اننى لم اكن انفق غير القليل جدا ، إلا ان كيسى بدأ يفرغ ، ولم يكن لى مورد .. ولم يكن ثمة نبـأ عن « ماما » ، فلم ادر ماذا افعل ، وشعرت بانقباض شديد إذ رايت صديق الآنسة جالى يهبط إلى مستوى المتسولين !

وانبانى فينتور بانه قد تحدث عنى إلى الضابط القضائى(١) ، وانه اعتزم ان يصطحبنى لتناول العشاء عنده فى اليوم التالى ، وان هذا الرجل كان فى مركز يمكنه من ان يخدمنى عن طريق اصدقائه .. فضلا عن انه كان من خيرة من يحسن التعـرف إليهم ، كان ذكيا واديبـا ، ذا طبـاع جد ملائمـة . وكان

---

(١) (OUGEMAGE) كان موظفا ذا مركز هام ، يطبق العدالة باسم الملك .

موهوبا ، بقدر المواهب ندى الغير . ثم أطلعنى — وهو يمزح التوافه بالخطير من الأمور ، جريا على عادته — على مقطع بديع من الشعر ، وصل من باريس ، وكان يردد فى لحن بإحدى « اوبرات » وريه ، ذاع فى ذلك العهد . ولقد اعجب السيد سيمون — وهو اسم الضابط القضائى — به ، فأراد ان ينظم مقطعا آخر ، على نفس النغمة ، ردا عليه .. وطلب إلى فينتور ان ينظم مقطعا هو الآخر ، فتملكته نزوة أوحت إليه بأن يحملنى على ان انظم بدورى واحدا ، حتى تترى هذه المقاطع تباعا — حسب قوله — فى اليوم التالى ، كما كانت المحفات تتتابع فى « القصة المضحكة »[1] .

وإذ عز على النوم — فى تلك الليلة — نظمت المقطع بقدر ما استطعت . وكان لا بأس به ، إذا قدرنا انه كان أول ما نظمت من الشعر ! بل انه كان افضل — أو على الأقل ، أرق — مما كنت خليقا بأن انظم فى اليوم السابق ، إذ أن موضوعه دار حول موقف عاطفى كان قلبى قد تفتح له . واطلعت فينتور — فى الصباح — على مقطعى الشعرى ، فرآه بديعا ، ودسه فى جيبه دون أن ينبئنى بما إذا كان هو قد نظم مقطعه .. وذهبنا نتناول العشاء فى دار السيد « سيمون » ، الذى أحسن استقبالنا . وكان الحديث طليا ، وما كان من الممكن أن يكون غير ذلك ، وقد دار بين رجلين

(١) منظر فى الفصل السابع من (ROMAN COMIQUE)، أروع مؤلفات « سكارون » .

ذكيين واسعى الاطلاع .. أما أنا ، فقد قمت بدورى المعتاد ، إذ رحت اصغى وأنا ممسك لسانى . ولم يقل احد منهما شيئا عن اى مقطع شعرى ، وكذلك لم اقل أنا شيئا .. ولم يرد ذكر — على قدر ما عرفت — للمقطع الذى نظمته !

وبدا على السيد سيمون أنه ارتاح إلى مسلكى . وكان هذا قصارى ما عرفته — تقريبا — عنى فى هذا اللقاء . وكان قد رآنى من قبل عدة مرات بدار السيدة « دى فاران » ، دون أن يولينى اهتماما يذكر . ومن ثم فاننى أحسب معرفتى به منذ ذلك العشاء .. المعرفة التى لم تكن ذات نفع للموضوع الذى كان يشغل بالى ، ولكنى افدت منها — فيما بعد — منافع أخرى ، تجعلنى أذكر السيد سيمون بسرور . وما ينبغى أن أرجىء الحديث طويلا عن شكله الذى يستحيل على اى امرىء أن يكون فكرة عن الرجل ما لم اتحدث عنه ، سيما إذا راعينا ما كان للسيد سيمون من سلطة إدارية وروح طيبة كان يفخر بها ..

لم يؤت السيد الضابط القضائى — بالتأكيد — من الطول قدمين[1] . وكانت ساقاه مستقيمتين ، نحيلتين ، وطويلتين فى نفس الوقت ، وكانتا خليقتين بأن تبدياه طويلا ، لو أنهما كانتا راسيتين ، ولكنهما كانتا منفرجتين كساقى فرجار

(١) كتب «روسو» فى مخطوطات الطبعة الأولى أن طول سيمون كان قدمين ، ثم ضرب عليها بالقلم وكتب « ثلاثة أقدام » أ.. ولكنه لم يثبت هذا التعديل فى النسخة الثانية من المخطوطات ، وهى التى استخدمت فى طبعة جنيف .

(برجل) مفتوح على سعته ، ! اما جسمه ، فلم يكن قصيرا فحسب ، وإنما كان نحيلا وضئيلا بدرجة لا سبيل إلى وصفها . ولابد انه كان يبدو ـ إذا ما تجـرد من ثيابه ـ كالجرادة ! اما راسه ـ الذى كان عادى الحجم ، وله وجه مليح التكوين ، وقسمات نبيلة ، وعينان بديعتان ـ فقد كان يبدو كرأس زائف اقيم على ارومة تبقت من جـذع شـجرة ! .. ولابد انه كان يقتصد كثيرا من نفقات الكساء ، إذ كانت قلنسـوة الشعر المستعار وحدها تكسوه تماما من راسه إلى قدمه !

وكان له صوتان مختلفان تمام الاختلاف ، يختلطان معا باستمرار كلما تكلم ، ويتباينان بشكل يبدو ـ فى اول الأمر ـ طريفا ، ولكنه لا يلبث ان يغدو كريها ! وكان احدهما جهوريا عميقا ، وهو صوت راسه ، إن جاز لى أن اقول هذا . اما الآخر فكان واضحا ، حادا نفاذا ، وكان صوت جسده ! وكان ـ إذا ما التزم الحذر ـ تكلم بتحفظ بالغ ، ونظم تنفسه ، فيستطيع أن يتكلم باستمرار بصوته العميق .. ولكنه لا يكاد يتحمس قليلا ، ويتكلم بلهجة أكثر حدة ، حتى يشبه صوته صفيرا منبعثا من نغم عال .. وكان يجد عناء بالغا فى العودة إلى الطبقة الخفيضة من الصوت !

ومع هذا المظهر الذى وصفته ، والذى لا مغالاة فيه إطلاقا ، كان السيد سيمون مؤدبا . راوية للطرائف ، شديد العناية بلباسه إلى درجة الحذلقة . ولما كان راغبا فى أن يبدو فى أعظم

مظاهره ، فقد كان يحلو له أن يعقد مقابلاته فى الصباح وهو فى السرير ، لأن الذى كان يرى راسا بديعا على الوسادة ، لم يكن يتصور أن هذا كل ما لديه من حسن ! وكان هذا يؤدى ـ فى بعض الأوقات ـ إلى مناظر مضحكة ، اعتقد ان (أنيسى) لا تزال تذكرها !



ترى كيف أبعد « روسو » عن الفتاتين الفاتنتين : جرافينرييه وجالى ؟.. وما الحيلة الماكرة التى دبرتها الآنسة جيرو ـ العجوز الشوهاء ـ لإقصائه عنهما ؟ وما المتاعب والمغامرات التى خاضها حتى استطاع أن يلتقى بمدام دى فاران مرة أخرى ؟ وكيف قبلت « أمه ! » هذه أن تصبح عشيقته ؟

إن « روسو » يحدثنا عن كل هــذا ، فى الكراسات المقبلة من اعترافاته ، التى تقدمها « مطبوعات كتابى » فى الجزء الثانى من « الاعترافات » ـ كما يحدثنـــا عن نزواتـــه واهوائه وتجاربه ، ثم عن ذهابه إلى باريس ، حيث بدأ نجمه فى التألق .





عزيزى القارئ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال:
« واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. » .

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ « عبد الرحمن صدقى » فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة « روسو » ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب « روسو » الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل » .

.. والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم (مطبوعات كتابى) إليك اليوم أول ترجمة أمينة « كاملة » لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته ـ خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ـ دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حلمى مراد